مكتبة نوبل ١٩٧١

بابلو نيرودا

النشيد الشامل

ترجمة صالح علماني



شعر

المؤلف: بابلو نيرودا
عنوان الكتاب: النشيد الشامل
المترجم: صالح علماني
الناشر: دار المدى
تصميم الغلاف: رولا ماجد
الطبعة الأولى: 2002
الطبعة الثانية: 2014

Title: Canto general
Translator: Saleh Almani
P.C. : Al-Mada
Cover designed by: Roula Majed
First Edition: 2002
Second Edition: 2014

للإعلام والثقافة والفنون
Al-mada for media, culture and arts

بغداد: حي ابو نؤاس - محلة 102 - شارع 13 - بناية 141
Iraq/ Baghdad- Abu Nawas-neigh. 102 - 13 Street - Building 141
www.almada-group.com email: info@almada-group.com
+ 964 (0) 770 2799 999
+ 964 (0) 770 8080 800
+ 964 (0) 790 1919 290

بيروت: الحمرا- شارع ليون- بناية منصور- الطابق الاول
info@daralmada.com
+ 961 175 2616
+ 961 175 2617

دمشق: شارع كرجية حداد- متفرع من شارع 29 أيار
al-madahouse@net.sy
ص.ب: 8272
+ 963 11 232 2276
+ 963 11 232 2275
+ 963 11 232 2289

بابلو نيرودا

النشيد الشامل

ترجمة: صالح علماني

النشيد الشامل
(١٩٣٨ـ١٩٥٠)

"اصعد معي أيها الحب الأمريكي"

ليس **النشيد الشامل** أكثر أعمال نيرودا شمولاً وطموحاً فقط، بل ربما هو أكبر عمل منهجي في تاريخ الشعر الناطق بالإسبانية على الإطلاق. فقد كُتبت صفحاته على امتداد أكثر من عشر سنوات، وهي موزعة على خمسة عشر فصلاً مقسمة إلى ٢٤٩ نشيداً، ويتجاوز مجموع أبيات الكتاب الثلاثة عشر ألف بيت من الشعر.

كانت فكرة الشاعر في البداية تقتصر على كتابة **النشيد الشامل** لتشيلي، (الذي أصبح فيما بعد الفصل السابع من **النشيد الشامل**). وتستجيب هذه القصيدة الضخمة أكثر من أي عمل آخر من أعمال الشاعر لغايته في نظم تأريخ شامل، وهي الغاية التي طالما راودت ذهن نيرودا منذ أن بدأ بتنفيذ مؤلفه، والتي سيعود إلى محاولة تحقيقها (بأسلوب آخر) في كتب الأغنيات (Odas) المختلفة، وفي ذكريات ايسلا نيغرا. وعندما نشر هذا الكتاب الأخير، قام نيرودا بمراجعة لنتاجه حتى ذلك الحين، وبتوضيح الدوافع التي شجعته على إنجاز كل مؤلف من مؤلفاته الكثيرة:

عندما كنت أعيش في العزلة، بعيداً عن الناس، وسعياً إلى إبراز وحدة شاملة عظيمة للعالم الذي أريد التعبير عنه، كتبتُ كتابي الأكثر جموحاً واتساعاً: **النشيد الشامل**. وقد كان هذا الكتاب تتويجاً لمحاولتي الطموحة. إنه فسيح باتساع قطعة كبيرة من الزمن، وفيه كثير من الظلال والأضواء في الوقت نفسه، لأنني رميت إلى الإحاطة بالفضاء الرحب الذي تتحرك فيه، وتنمو، وتعمل، وتضمحل الحيوات والشعوب (...) ورغم استخدامي تقنيات عديدة في هذا النشيد، ابتداء من الإيقاعات الكلاسيكية القديمة حتى نمط الأشعار الشعبية، إلا أنني أريد أن أقول بضع كلمات حول الهدف الذي توخيته من أحد أساليبي، وأعني به المباشرة التي يعيبها عليَّ الكثيرون، وكأن هذا الأسلوب يشوه الكتاب أو يدنسه. إن المباشرة مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بمفهومي لـ **التأريخ**. فالشاعر يجب أن يكون، إلى حد ما، مؤرخاً لعصره. والتأريخ يجب ألا يكون جوهراً، ولا نقاء، ولا تثقيفاً وتهذيباً، وإنما يجب أن يكون وعراً، معفراً، ماطراً، ويومياً.. يجب أن يتضمن البصمات البائسة للأيام التي تكر، وأن يحمل ضيق الإنسان وزفراته...

يمكننا أن ندلي بأي رأي حول **النشيد الشامل**، باستثناء القول إن نيرودا لم يتوصل إلى إنجاز الهدف الذي كتب العمل من أجله. إن النشيد بلا شك هو تأريخ لأميركا، ولكن هذا الوصف مقتضب وغير كاف للإحاطة بكل المجالات التي يتحرك فيها هذا الكتاب (التاريخ،

الجـغـرافـيـا، الفلكلور، مملكة النبـات، الانثـربولوجيـا...)، أو بغناه بالأصوات والأوزان والإيقاعات التي شيد منهـا الشاعر، بتناسق تام، الهندسة السيمفونية لهذا العمل البارع.

وبما أن الأمر كذلك، فلا بد من التفصيل في الحديث عن النشيد الشامل وتناوله فصلاً فصلاً، محاولين الاقتراب ما استطعنا من عظمته الحاسمة.

I. المصباح في الأرض: يبدأ الكتاب بابتهال إلى عالم ما قبل الفتح الإسباني «أرضي التي بلا اسم، بلا أميركا»، إلى الأصول الجيولوجية، إلى الغابات التي تسكنها العصافير، وسلاسل الجبال غيرالمتناهية، إلى أصوات الماء التي سميت فيما بعد «اورنيوكو»، و«الأمازون»، و«تيكيندامـا»، و«بيو ـ بيو»... حيث «لا أحد. انظر إلى الحجارة/ انظر إلى حجارة أراوكو». وفي نهاية هذا الفصل فقط تبدأ القبائل بسكنى هذه الأرض، فتأتي قبائل وشعوب: راهومارا، والأزتيك، والكاريبب، والمايا، والإنكا، والأروكاني...

قبل لمة الشعر المستعار والسترة
كانت الأنهار، الأنهار الشريانية:
وكانت سلاسل الجبال، وبين تعرجاتها المخططة
كان الكندور والثلج يبدوان دون حراك:
كانت الرطوبة، الأدغال، الرعد
جميعها ما تزال دون أسماء،
وكانت السهوب الكونية.

"حب أميركا (١٤٠٠)"

أمازون، يا عاصمة إيقاعات الماء،
أيها الأب البطريرك
أنت السرمدية السرية
للخصوبة،
تتساقط إليك أنهار كالطيور،
تغطيك حبوب طلع لها لون الحريق،
والجذوع العظيمة الميتة تضمخك بالشذا،
والقمر يعجز عن مراقبتك أو قياسك.

"الأنهار تنضم"

II. مرتفعات ماتشو بيتشو: في شهر تشرين الأول ١٩٤٣، وبينما كان في طريق عودته إلى سنتياغو بعد مهمة دبلوماسية في المكسيك، زار نيرودا البيرو ودعي هناك ليتعرّف أطلال ماتشو بيتشو، وهي مدينة قديمة مطلة على الأخدود الذي يمر منه نهر اوربامبا، يرجع بناؤها إلى ما قبل سيطرة هنود الإنكا على البيرو. وقد اكتشفت أطلالها سنة ١٩١٢ على يد عالم الآثار هيراسو بينجهام، ومنذ ذلك الحين تحولت إلى رمز يدلل على القِدم السحيق للثقافة الأمريكية، وكان الفاتحون الإسبان يجهلون وجودها، وربما لم يكن لدى هنود الإنكا أنفسهم إلا مجرد قصة خرافية عنها. وقد كتب نيرودا، متأثراً بجلال تلك الأطلال -بعد سنتين من زيارته- قصيدة طويلة من اثني عشر نشيداً، هي إحدى القمم المطلقة في نتاجه الشعري. فكل العمق الميتافيزيقي الذي في **إقامة في الأرض**

و**الإقامة الثانية**، يتبدى من جديد في هذه القصيدة، وقد تغلغل تماماً في الشاعرية الجديدة للمؤلف. كما أننا نجد عظمة هذه القصيدة في رفعتها على صعيد البناء الشعري، وفي التدرج الدرامي الرائع الذي يعطي القصيدة تطورها المتصاعد. ولا شك في أن هذا الفصل هو واحد من أجمل فصول **النشيد الشامل**.

III. الغزاة: الفصل الثالث من الكتاب هو إدانة قاسية للهمجية التي احتفل بها الغزاة الإسبان، ولممارسات السلب والدناءة التي لجأ إليها قادتهم العسكريون، ولحماقة رجال الدين وتعصبهم: «رفع القس ذراعه،/ وأحرق الكتب في الساحة/ باسم ربه الصغير». ليس هذا وحسب، وإنما نرى الشاعر يحس أيضاً بعظمة أولئك الفاتحين الأفظاظ الذين لا يمكن تصورهم من وجهة نظرنا الإنسانية، مثلما يفعل في «تحية إلى بالبوا».

IV. المحرِرون: إنه أكثر فصول **النشيد الشامل** إبرازاً للتاريخ، وأحد أطول الفصول الخمسة عشر التي تشكل العمل. فابتداء من زعماء الهنود -مثل كواوتيموك أو لاوتارو أو توباك آمارو- الذين تصدوا للغزو الإسباني في القرن السادس عشر، وحتى المحاربين والقادة العماليين في القرن العشرين -زاباتا، ساندينو، ريكابارين، برستيس ـ، مروراً بمن أطلق عليهم لقب «آباء الوطن» -أبطال حروب الاستقلال، مثل: ميراندا، وبوليفار، وسان مارتين، وأوهيجينس- يقوم نيرودا بتمجيد الدعوات والحركات التحررية في أميركا خلال أربعمئة سنة، كما يتعرض لقدرها المحكوم بالاستلاب، متابعاً تبدلات الأسياد.

وهذا الفصل غني أيضاً بتنوع رائع في الأوزان والإيقاعات، ففيه يمزج بين النظم الكلاسيكي العالي كما في قصيدة «خوسيه ميغيل كاريرا» وينتقل إلى الإيقاعات الشعبية الرتيبة كما في أهزوجة «مانويل رودريغث».

V. الرمل المغدور: وكنشيد معاكس للفصل السابق، يتعرض هذا الفصل للدكتاتوريين والطغاة الأمريكيين الذين حكموا القارة خلال أكثر من مئة عام، وهو الزمن الذي انقضى على استقلال أميركا الإسبانية. وفي هذا الفصل ملحق خاص مكرس لِغُونثالث بيديلا «خائن تشيلي»، الذي وصل إلى سدة السلطة عام ١٩٤٦ بدعم من القوى الشعبية، ثم ما لبث أن انقلب تماماً على برنامجه بعد وصوله إلى الرئاسة. وفَقَدَ نيرودا -الذي كان مسؤولاً عن الدعاية في حملة بيديلا الانتخابية -بعد ذلك حصانته البرلمانية ليتحول إلى أشد معارضي الدكتاتور قسوة. فعانى من الملاحقة وأمضى أربعة عشر شهراً في السرية -للمرة الأولى والوحيدة في حياته- لكي ينجو من الوقوع في الاعتقال، وفي فترة السرية هذه بالذات، أنهى كتابه النشيد الشامل.

VI. أميركا، لا أدعو باسمك باطلاً: فصل قصير، على شكل معترضة ما بين الثلثين الأول والثاني من مخطط العمل، وهو مؤلف من ثماني عشرة قصيدة قصيرة مختلفة المواضيع. والجو العام المسيطر عليها هو تضامن الشاعر مع المضطهدين المنبوذين في الأرض.

VII. النشيد الشامل لتشيلي: مؤلف من سبعة عشر مقطعاً تلخص المخطط الأصلي الذي وضعه الشاعر عام ١٩٣٨: مشوار في التاريخ، بين الناس، الأحجار، الأزهار، فنون بلاده التقليدية، كل هذا في بناء انسيابي منطلق، يربط تقريباً بين موضوع وآخر دون انقطاعات مفاجئة جافة أو فجوات.

VIII. الأرض تسمى "خوان": هذا فصل مؤلف من سبع عشرة قصيدة، خمس عشرة منها قصص عمال ومزارعين وحرفيين مروية بصيغة المتكلم على لسان أبطالها، على طريقة ادغار لي ماستيرس في "Spoon River Antology". إن عرض جوهر هذه الحيوات البائسة، والاستغلال الذي عانته، وإخفاقها، هو تحية مؤثرة من الشاعر إلى «خوان» جميع الأجيال، هذا الذي كان في كل لحظة «وراء المحررين».

IX. فليستيقظ الحطاب: فصل سياسي. وهو أغنية حب وتحذير إلى الولايات المتحدة الأمريكية الخارجة لتوها منتصرة من الحرب العالمية الثانية. يستحضر فيه نيرودا ظلال جواميس «البوفالو»، وحرية السهوب الفسيحة، وكلمات وايتمن وملفيل، وأحلام لينكولن المعادية للعبودية (ولينكولن هو الحطاب المقصود في العنوان). وفي نهاية رائعة، وبأبيات قصيرة، يبشر بالأخوة العالمية، ببساطة صعبة كما في ديوانه «شاذ». يقول الشاعر:

لا أريد أن يفكر أحد بي

فلنفكر بالأرض كلها،
ونحن ننقر على الطاولة بحب.
لا أريد أن تعود الدماء من جديد
لتلطخ الخبز واللوبياء،
والموسيقى.
أريد أن يأتي معي عامل المنجم،
والفتاة، والمحامي، والبحار،
وصانع الدمى،
لندخل إلى السينما ونخرج معاً
لنشرب أشد النبيذ احمراراً.

أنا لست آتياً لأحل أية قضية.

لقد أتيت هنا لأغني
ولكي تغني معي.

X. الطريد: بعد رفع الحصانة البرلمانية عنه -كان قد انتخب عام ١٩٤٥ عضواً في كونغرس الجمهورية عن منطقتي تاراباكا وانتوفاغاستا- تعرض نيرودا لمحاكمة سياسية. فانتقل إلى السرية. وقد جال طوال سنة عبر تشيلي، التجأ خلالها إلى بيوت عديدة كانت تقدم له المأوى، وكان في أثناء ذلك يكتب النشيد الشامل، إلى أن تمكن من اجتياز سلسلة جبال الأنديز من طرفها الجنوبي، على متن بغلة، ووصل

إلى الأرجنتين في شباط ١٩٤٩، متنكراً وبشارب كثيف يجعله غير معروف. وكل ما كان يحمله معه هو مخطوطة النشيد الأصلية. وكان كتابه ـ المتخفي مثله ـ يحمل عنواناً مزيفاً: **ضحكات ودمعات**، ويقبع في حقيبة تحمل اسم بينيغنو اسبينوثا. وهذه هي التجربة التي يقصها في الفصل العاشر.

إلى الجميع، إلى الجميع،
إلى كل الذين لا أعرفهم، إلى كل أولئك
الذين لم يسمعوا باسمي قط،
إلى الذين يعيشون على ضفاف أنهارنا الطويلة،
وعلى سفوح البراكين، وفي ظل
النحاس الملتهب،
إلى الصيادين والفلاحين،
إلى الهنود الزرق المقيمين على شواطئ
البحيرات المتلألئة كالبلور،
إلى الإسكافي الذي يتساءل الآن
وهو يخيط الجلد بيدين هرمتين،
إليك أنت، يا من انتظرتني دون أن تعرفني،
إليكم جميعاً أنتمي، وبكم أعترف،
ولكم أغني.

XI. أزهار بونيتاكي: بهذا الفصل يبدأ الثلث الأخير من العمل، وموضوعه هو سرد وقائع الحملة الانتخابية التي قام بها نيرودا في شمال

تشيلي، والتي انتخب بعدها عضواً في مجلس الشيوخ. إنها حملة انتخابية فريدة من نوعها -عمادها الأساسي الشعر والاتصال الشخصي والمباشر بالفلاحين- وقد كانت هذه التجربة حاسمة في حياة نيرودا، وأكدت له حقيقة المنابع التي اختارها لشعره.

XII. أنهار الغناء: ميغيل أوتيرو سيلفا، ورفائيل ألبيرتي، وغونثالث كاربالهو، وسيلفيستري ريفويلتاس، وميغيل هيرناندث، هؤلاء الإخوة الشعراء هم «أنهار الغناء»، ولهم يكرس نيرودا هذا الفصل المنظوم بموسيقى بطيئة متخذة شكل الاتصال الرسائلي.

أنت تعلم يا بني كل ما لم أعلمه، وأنت تعرف
بأنك كنتَ لي،
في كل القصائد، كنتَ اللهب الأزرق.
واليوم أضع وجهي على التراب لأصغي إليك،
لأسمعك: دماً، موسيقى، وشهداً محتضراً.

لم أر سلالة أكثر تألقاً من سلالتك،
ولا جذوراً أشد صلابة، ولا حتى يدي جندي،
ولم أر شيئاً ينبض بالحياة أكثر من قلبك
الذي أحرق ذاته في أرجوان رايتي.

"إلى ميغيل هيرنانديث، القتيل في سجون إسبانيا"

XIII. كورال سنة جديدة للوطن الذي في الدياجير: هذا الفصل حسب التسلسل التاريخي هو آخر فصول النشيد، وقد كُتب عندما كان

الشاعر يتأهب للبدء في حياة نفي لا يدري كم ستدوم. ويضم هذا الفصل، مثله مثل سلسلة الجبال التي يلهج بذكرها، سفحين: في أحدهما الهجاء والقدح، وعدم التواني عن إعادة وتكرار الإدانة للدكتاتور غونثالث بيديلا، وفي السفح الآخر، السفح الرائق والمشرق، يؤكد نيرودا، بإصرار أكبر من كل ما تقدم، على وطنيته كتشيلي، وحبه الذي لا سبيل إلى التخلي عنه للناس والأشياء في وطنه.

سنة سعيدة أيها التشيليون،
للوطن الذي في الدياجير،
سنة سعيدة للجميع، لكل واحد منكم ماعدا واحداً،
إننا قليلو العدد، سنة سعيدة يا أبناء موطني،
يا إخوتي،
رجالاً، نساء، أطفالاً،
فصوتي يطير اليوم إلى تشيلي، إليكم،
ويضرب مثل عصفور أعمى على نافذتك،
ويناديك من بعيد،
يا موطني،........

"تحية (١٩٤٩)"

XIV. المحيط العظيم: علاقة نيرودا الحميمة القديمة بجنوب الباسفيك تتبدى هنا، للمرة الأولى في شعره، بكل ألقها: إعادة بناء الأسطورة حول جزيرة رابا ـ نوي السحرية (جزيرة باسكوا)، الحوار مع الأعماق السحيقة، والقصائد المكرسة للطيور البحرية أو لسكان

الشـواطئ، وحـتى تلك الجـوهرة الصـغـيـرة المنظومـة بعنوان «رخـوية غونغورية» (التي كتبها عالم الرخويات العظيم: نيرودا)، تعكس غنى مشهدياً وحسياً يضع الفصل بكامله خارج التاريخ وأحداثه، ويمنحه نوعاً من الثبات الذي تساعد في ترسيخه إلى حد كبير الأوزان المسترسلة والفخمة التي يستخدمها الشاعر. وكأن نيرودا، وهو يقترب من اختتام عمله بفصل خاص «عن المؤلف»، يريد أن يعود مرة أخرى إلى البهاء الأصيل -في الجانب البحري هذه المرة- إلى زمن الأصول الذي سبق الحضارة والذي افتتح به سيمفونيته.

XV. هذا أنا: هذه هي المرة الأولى التي يستعرض نيرودا حياته في عمل من أعماله -سيعود إلى هذا فيما بعد، حتى ينتهي إلى تصفية حساباته مع نفسه تماماً في ذكريات ايسلا نيغرا- مشيراً إلى النقاط المحورية في سيرة حياته: علاقته الحميمة بمنطقة لافرونتيرا ("طفولتي هي أحذية مبللة، جذوع مهشمة/ملقاة في الغابة، تلتهمها النباتات المتسلقة")، وعاشقة تيموكو ("بعض الضفائر فقط ترتفع حركتها/نحو عزلتي مثلما ترتفع شعلة سوداء")، ثم البيت، والأب، والرحلة الأولى إلى سنتياغو، والحبيبة ساكنة الحي الشعبي ("آه، أنت أكثر طلاوة، أكثر اتصالاً/من الحلاوة، أيتها الحبيبة الجسدية")، والرحلة إلى الشرق، والحرب الاسبانية، ولقاء الحب من خلال علاقته بديليا دل كاريل، وإقامته المؤقتة في المكسيك وعودته إلى تشيلي، واكتشافه النهائي للأشياء البسيطة والنقية على الأرض ("أريد أن آكل بصلاً، أحضر لي من السوق/ واحدة منها، كرة مترعة بالثلج البلوري") ممهداً بهذا للخطوة

التالية في شعره المتمثلة بدواوين الأغنيات Odas، ومؤكداً اعتناقه الشيوعية. وفي هذا الفصل ينتصب نيرودا بكامل قامته، لينهي ملحمته الفسيحة، واضعاً أمام العالم بأسره، المعجبين والأعداء، ملامح هويته بخيرها وشرها.

* * *

الفصل الأول

المصباح في الأرض

حُبَّ أميركا
(١٤٠٠)

قبل لمّة الشعر المُستعار والسترة العسكرية
كانت الأنهار، الأنهار الشريانية:
وكانت سلاسل الجبال، وبين تعرجاتها المخططة
كان الكندور والثلج يبدوان دون حراك:
كانت الرطوبة، الأدغال، الرعد
جميعها ما تزال بلا أسماء،
وكانت السهوب الكونية.

الإنسان ـ الأرض كان إناء،
كان جفناً من الطين الرجراج، شكلاً من الصلصال،
كان دناً كاريبياً، حجراً تشيبشياً [١] ،
قُلّة ملكية أو صواناً أراوكانياً [٢] .
ناعماً ودموياً كان،
ولكن على قبضة سلاحه البلوري الرطب،

---

١ تشيبشا : شعب من الهنود كان يقطن فيما يعرف اليوم بكولومبيا .
٢ أراوكاني ، منتسب إلى أراوكو ، وهي منطقة في أقصى جنوب تشيلي ، كانت موطناً للهنود الاراوكانيين .

كانت حروف الأرض الأولى
منقوشة.
ولم يستطع أحد
أن يتذكرها فيما بعد: فالريح نسيتها،
ولغة الماء دُفِنَتْ،
والمفاتيح ضاعت
أو غرقت في الصمت أو الدم.

أما الحياة فلم تَضِعْ أيها الإخوة الرعاة.
وإنما مثل وردة برية
سقطت قطرةٌ حمراء في كثافة الأجمة
وانطفأ مصباحُ أرضي.

إني هنا لأروي القصة.
منذ سلام الجاموس
وحتى زمن الرمال المجلودة
في الأرض الأخيرة،
في زبد النور الجنوبي المتراكم،
وفي الكهوف الواطئة
للسلام الفنزويلي المكفهر،
بحثتُ عنك يا أبانا،
أيها المحارب الشاب من ديجور ونحاس،
وأنت، أيتها النبتة الزفافية،
أيتها الناصية العنيدة،
أيتها الأم التمساح، أيتها الحمامة المعدنية.

أنا، ابن الإنكا[١] الموحل،
لمستُ الحجر وقلت:

مَنْ
ينتظرني؟ وضغطتُ بيدي
على قبضة زجاج فارغ.
ولكنني مشيت ما بين أزهارٍ ثابوتيكية[٢]
وعذباً كان الضوء مثل غزال،
والظل كان مثل رمش أخضر.

يا أرضي التي بلا اسم، بلا أميركا،
أيتها الإبرة الاستوائية، أيتها الحربة الأرجوانية،
شذاك تسلقني من جذوري
حتى الكأس التي شربتها،
وحتى أرق كلمة،
لم تكن قد ولدت بعد في فمي.

I
النباتات

إلى الأراضي التي بلا أسماء
بلا أرقام

١ الإنكا : شعب من الهنود الأمريكيين كان يسكن البيرو .
٢ تابوتيكا : شعب هندي كان يقطن بعض مناطق المكسيك .

كانت الريح تنزل قادمة من أراض أخرى،
تحمل الأمطار خيوطاً سماوية،
وإله المذابح[1] المضمخة
يعيد الزهور والحياة.

بين الخصوبة كان الزمن يزهر.

زهور الجاكاراندا[2] ترفع زبداً
مصاغاً من تألقات بحرية
وشجرة الاروكاريا[3] ذات الحِراب المنتصبة
تقف نِداً أمام الثلج،
ومن شَجرة الكابلي الأولى
يقطر الدم،
وإلى الجنوب من أشجار السرو،
كانت شجرة الرعد، الشجرة الحمراء،
شجرة الشوك، الشجرة الأم،
شجرة الثيبّو القرمزية، شجرة المطاط،
كلها كانت حجماً أرضياً، صوتاً،
كانت وجوداً أرضيا،
شذا جديداً يعبق
ويملأ الأنفاس،

---

١ المذابح : جمع مذبح . وهو الموضع الذي تقدم عليه القرابين .
٢ الجاكاراندا : نبتة أمريكية ذات أزهار زرقاء .
٣ الاروكاريا : شجرة من فصيلة الشربين . موطنها تشيلي . يصل طولها إلى خمسين متراً في بعض الأحيان .

من خلال تجاويف الأرض،
الأنفاس المتحولة إلى دخان وأريج:
التبغ البري يطلق زهرة هواء مُتَخيل.
ومثل حربة في رأسها نار
بدت عرانيس الذرة،
وانفرطت حباتها لتولد من جديد،
بعثرت دقيقها،
وكان ثمة موتى تحت جذورها،
وفيما بعد، في مهدها، رأت
نمو الآلهة النباتية.
التجاعيد والإمدادات نثرت بذرة الريح
على ريش السلاسل الجبلية
ضوءاً كثيفاً من البذور والبراعم،
فجراً أعمى ترضعه
نبتات «أونغوينتو» الأرضية
في الامتدادات المطرية الجامحة،
في الليالي الينبوعية المغلقة،
في الأحواض الصباحية.
وحتى في السهوب
التي مثل صور كوكبية
تحت حشد رطب من النجوم،
كان «الأومبو»[1]، ملك الأعشاب

---

[1] الامبو: نوع أعشاب ينمو بكثرة في الأرجنتين.

يعترض الهواء الطلق، وحفيف الطيران
ويمتطي سهول البامبا مثبتاً إياها
بأعنة فروعه وجذوره.

يا أميركا الدغل،
يا عوسجاً برياً بين البحار،
من قطب لقطب تؤرجحين الكنز الأخضر:
أدغالك.
ويخصب الليل
في مدن ذات لحاء مقدسة،
في أخشاب رنانة،
وأوراق فسيحة
تغطي الحجر المُخصِب والولادات.
إنه الرحم الأخضر،
ملاءة البذور الأمريكية،
القبو المتشابك،
غصن ولد مثل جزيرة،
ورقة لها شكل السيف،
زهرة كانت برقاً ومديوزا،
عنقود كوّر خلاصته،
جذر انزلق إلى الظلمات.

II

بعض الحيوانات

كان غسق «الإغوانا»[1].

ومن شرفةٍ قوسُ قزحية
كان لسانها مثل نُشَّابة
يتغلغل في الخضرة،
وآكل النمل المترهب يدبُّ
بقوائمه الإيقاعية في الغابة،
و«الغواناكو»[2] الرقيق مثل الأكسجين
يمضي في الذرى الفسيحة البنيّة
منتعلاً حذاءً ذهبياً،
بينما اللهب يفتح عيوناً ساذجة
في رقة العالم المغمور بالندى.
وكانت القرود تغزل خيطاً
شبقياً بلا نهاية
على ضفاف الفجر،
مهدمة جدراناً من الطلْع
ومُخلّة بالطيران البنفسجي

١ الاغوانا : نوع من السحالي الأمريكية كبيرة الحجم ، لونها أخضر تخالطه بقع صفراء .
٢ الغواناكو : حيوان مجتر غير داجن من فصيلة الجمال . لا سنام له . موطنه أميركا .

لفراشات موزو[1].
كانت ليلة التماسيح،
ليل النقاء والتناسل
لمخاطم خارجة من الوحل،
ومن المستنقعات الناعسة،
قعقعة دروع قاتمة
أعادتها إلى المنشأ الأرضي.

كان «الجَغْوَر» يطأ الأوراق برفق
بغيابه الفوسفوري،
و«البُوما» يعدو بين الأغصان
كالنار الشرهة
بينما تتقد منه العيون
الكحولية الغابيّة.
و«الغرير» يكشط أطراف النهر
ويتشمم عشاً
سيُعمل بلذائذه النابضة
أسنانه الحمراء.

وفي أعماق المياه الهائلة،
كمحيط الأرض،
ترقد أفعى «الأنَكُندة» العملاقة

---

١ موزو : جبل في كولومبيا .

النهمة والمتعبدة،
مغطاة بوحول طقوسية.

III
الطيور آتية

كل شيء كان طيراناً في أرضنا.
مثل قطرات دم وريش
كانت طيور «الكاردينال»[١]
تدمي إشراقة الصباح في «أنهواك»[٢].
كان «التوكان»[٢] صندوقاً ظريفاً
لثمار ملمعة بالبرنيش،
واحتفظ «الكوليبري»[٤]
بومضات البرق الأصلية
ونيرانه الصغيرة
تستعر في الهواء الثابت.

الببغاوات الشهيرة تملأ
أعماق ما بين الأوراق
مثل سبائك ذهب أخضر

---

١ الكاردينال : عصفور رمادي له بقعة حمراء على رأسه .
٢ أنهواك : اسم كان يطلق فيما مضى على وادي المكسيك ، ثم صار يطلق اليوم على الهضاب الخصبة المحيطة بمدينة مكسيكو .
٢ التوكان : طائر أمريكي ، له منقار عريض مقوس ، ريشه أسود وتغطي عنقه وصدره ألوان زاهية .
٤ الكوليبري : طائر ذبابي ، له صوت طنان .

أُخذت لتوها من عجينة المستنقعات،
ومن عيونها المستديرة،
تحملق حلقة صفراء
عتيقة مثل المعادن.
كانت نسور السماء جميعها
تغذي ذُرِّيتها الدموية
في الزرقة المهجورة،
وفوق كل هذا الريش الجارح،
أعلى من الجميع،
يحلق الكندور، الملك القاتل،
راهب السماء المتوحد،
تعويذة الثلج السوداء
إعصار التصقر.

هندسة باني الأفران
صنعت من الطين العَطِر
مسارح صغيرة رنانه
احتلتها الطيور الغريدة.
كان عصفور «أتاخاكمينوس» يمضي
مطلقاً صرخته الندية
على حافة الخزانات الأرضية.
والحمامة الأراوكانية تصنع
أعشاشاً خشنة في الخضرة الكثيفة
تضع فيها هديتها الملكية
من البيوض الدسمة.

عصفورة «اللويكا» الجنوبية العطرة[١]،
نجارّة الخريف العذبة،
تعرض صدرها المرصع
بأبراج نجوم قرمزية،
و«التشينغولو»[٢] يرفع
أنغام مزماره الملتقطة لتوها
من خلود الماء.
ثم، رطباً مثل النيلُوفر،
يفتح أبو لهب[٣] أَبوابه
مثل أبواب كاتدرائية وردية،
ويطير كالفجر،
أبعد من الغابة الخانقة
حيث تتعلق درّة «الكيتزال»[٤]،
التي تستيقظ فجأة،
تتحرك، تنزلق وتلمع
وتطير بجذوتها العذراء.

ويطير جبل بحري
نحو الجزر،
قمر من طيور تمضي صوب الجنوب،
فوق جزر البيرو

١ اللويكا : عصفور يشبه الزرزور ، يصدح بغناء بديع . موطنه تشيلي .
٢ تشينغولو : عصفور أمريكي ، يشبه السنونو .
٣ أبو لهب (Flamenco) ، طائر طويل الساقين ، وردي اللون .
٤ الكيتزال : طائر متعلق ، موطنه أميركا الاستوائية . له ريش ناعم ، لونه أخضر برّاق وأحمر .

المختمرة.
إنه نهر ظلٍ دافقٍ
إنه نيزك
من قلوب صغيرة لا تُحصى
تحجب شمس الدنيا
وتحيلها ظلمة،
ومثل مذنب كثيف
يخفق باتجاه الأرخبيل.

وفي آخر البحر النزق،
في مطر الأقيانوس،
ينبثق جناحا البطروس[1]
كأنهما مجموعتا أملاح،
ليفرضا في الصمت،
بين مهبات الرياح الجارفة،
وبسلطانهما الرحب،
نظام العزلة.

IV
الأنهار تنضم

يا حبيبة الأنهار، أيتها المتعاركة
مع الماء الأزرق والقطرات الشفافة،

---

[1] البطروس ، جنس طيور بحرية ، أبيض اللون . أكبر حجماً من الإوز ، طويل الجناحين والذيل .

إن طيفك مثل شجرة أوردةِ
لربة قائمة تقضم تفاحاً:
عندما استيقظت عارية
كنتِ موشومة بالأنهار،
وفي الأعالي المبللة
يملأ رأسك الدنيا بندى جديد.
ويهزك الماء من خصرك.
كنتِ مشيدة من عيون ماء
وكانت تلمع بحيرات على جبينك.
ومن أدغالك الأم كنتِ تأخذين
الماء دموعاً حيويّة،
وتجرجرين القنوات إلى الرمال
عبر الليل الكوكبي،
مجتازة الصخور القاسية الفسيحة،
محطمة في طريقك
كلّ أملاح الجيولوجيا،
مخترقة غاباتٍ كجدران متماسكة،
ومزيحة من دربك عضلات الكوارتز.

أورينوكو

أورينوكو[1]، دعني على ضفافك
تلك الساعة التي بلا ساعة:
دعني مثلما كنتُ أمضي عارياً،

---

١ أورينوكو : نهر غزير من أنهار أميركا الجنوبية . يشكل جزءاً من الحدود ما بين كولومبيا وفنزويلا . وله دلتا واسعة . طوله ٢٤٠٠ كيلومتر .

لألج غياهبك المعمَّدة.
أورينوكو يا ذا المياه القرمزية،
دعني أغمس اليدين العائدتين
في أمومتك، في مجراك،
يا نهر الأعراق، يا وطن الجذور،
هديرك غير المتناهي، وصفحتك الوحشية
يأتيان من حيث أتيتُ،
من العزلات الفقيرة المتعالية،
من سرّ كالدم،
من أم طينية صامتة.

الأمازون

أمازون، يا عاصمة إيقاعات الماء،
أيها الأب البطريرك
أنت السرمدية السرية
للإخصاب،
تسقط إليك أنهارٌ كالطيور،
تغطيك حبوب طلع لها لون الحريق،
والجذوع العظيمة الميتة تضمخك بالشذا،
و يعجز القمر عن رصدك أو قياسك.
إنك محمّل بمَني أخضر
مثل شجرة زفاف، وأنت مفضض
بالربيع البري،
إنك محمرٌ بالأخشاب،
أزرق وسط قمر الحجارة،

متشح ببخار حديدي،
وبطيء مثل طريق كوكبي.

تيكينداما

أتذكر يا تيكينداما[١]
مرورك المتوحد في الأعالي
دون شاهد،
كخيط من العزلة، إرادة نحيلة،
خط سماوي، سهم بلاتيني،
أتذكر كيف كنت تفتح جدران الذهب
خطوة خطوة
إلى أن تسقط من السماء
في مسرح رعب الحجر الفارغ.

بيو - بيو

ولكن حدثني يا بيو - بيو[٢]،
فكلماتك
هي التي تنزلق من فمي
أنت وهبتني اللغة،
والغناء الليلي المختلط بالمطر
وبأوراق النباتات.

---

١ تيكينداما : شلال في كولومبيا على نهر فونزا . يبعد حوالى عشرين كيلومتراً عن العاصمة بوغوتا ، وهو يسقط من ارتفاع ١٧٥ متراً .

٢ بيو - بيو : نهر في تشيلي ، وهو أغزر أنهار البلاد . طوله ٢٤٠ كيلومتراً . وكان يشكل الحدود الفاصلة بين المناطق التي سيطر عليها الغزاة الإسبان وتلك التي بقيت بيد الهنود الأراوكانيين .

أنت، ودون أن يلتفت أحد إليَ وأنا صغير،
رويت لي عن شروق الأرض،
عن السلام الوطيد في مملكتك،
وعن الفأس المدفونة
مع باقة من السهام الميتة،
وكل ما روتْهُ لك
أوراق أشجار القرفة خلال ألف عام.
ثم رأيتك وأنت تسلم نفسك للبحر
موزعاً إلى أفواه ونهود،
عريضاً ومزهواً، تهمس
بقصة لها لون الدم.

V
المعادن

يا أم المعادن، لقد أحرقوكِ
نهشوك، عذبوكَ،
قرضوك بأنيابهم،
ثم تركوك تتعفّنين
عندما لم تستطع الأوثان
الدفاع عنكِ.
نبتة «الليانا»[1] التي تتسلق
نحو شَعر الليلة الغابيَّة،

---

١ الليانا : نوع من النباتات المتسلقة .

وأشجار الكابلي
التي تكوّن مركز السهام،
والحديد المتجمع في العلِيّة المزهرة،
والمخلب المتكبر، مخلبَ نسر مرشد
من نسور بلادي،
والمياه المجهولة، والشمس الخبيثة،
وموجة الزبد الشرس،
وسمكة القرش المترصدة،
وأسنان سلاسل الجبال الجليدية،
والربة الأفعى المجنحة
والمتخففة من سمها الأزرق،
والحمى السلفية الملقحة
بهجرات أجنحة ونمل، وهزاز،
وفراشات حمضية الزُباني،
وأخشاب تقترب من المعدن،
لماذا لم يدافع الكورال المعادي
عن كل هذا الكنز؟

يا أم الحجارة القاتمة
التي تصبغ بالدم أهدابك!
إن فيروز طبقاتها،
اللامع مثل يرقة براقة
وُلد فقط ليكون حلِيةَ
للشمس الكهنوتية،
والنحاس استقر في طبقات أرضها الكبريتية،

ومضى الانتيمون[١] من طبقة إلى طبقة
نحو أعماق نجمنا.
كان الفحم يتألق ببريق أسود
كنقيض كليّ للثلج،
جليدٌ أسود تكوّن
في العاصفة السرّية الثابتة للأرض،
عندما دفن بريقُ عصفور أصفر
تيارات الكبريت
تحت أقدام الجبال المتجمدة،
كان "الفاندوم"[٢] متسربلاً بالمطر
لينفذ إلى حجرة الذهب.
والتنغستين يشحذ السكاكين.
وكان البزْمُوث[٣] يضفر
جدائل طبية.

الحباحب[٤] المخطئة
كانت ما تزال في الأعالي،
تطلق شزرات الفوسفور
في أخاديد الهاويات،
وفي القمم المكتنزة بالحديد.

---

١ الانتيمون : يعرف أيضاً بالإثمد . وهو حجر يكتحل به .
٢ الفاندوم : عنصر فلز نادر ، أبيض اللون ، ينصهر في ٢٧١٠ درجة منوية .
٣ بزموث : معدن أبيض مع شوائب وردية ، قابل للكسر والصهر عند الدرجة ٨٦٢ منوية .
٤ حباحب : أجناس حشرات ينبعث منها في الظلام بريق مضيء .

إنها كروم النيازك،
نيازك اللازورد الباطنية.
والجندي الصغير بين الموائد الصخرية
ينام بملابس قصديرية.

النحاس يَركن جرائمه
في الظلمات غير المدفونة
المشحونة بمادة خضراء،
وفي الصمت المتراكم
تنام المومياءات المدمرة.
وفي عذوبة تشيبشا، يخرج الذهب
بصلوات قاتمة
بطيئاً نحو المحاربين
ويتحول إلى مآبر حمراء،
إلى قلوب رقائقيَّة،
إلى تألق أرضي،
إلى أسنان خرافية.

أنا أنام حينئذ، وأحلم
ببذرة، بيرقة،
وبأدراج «كيريتارو»[١]
أنزلها معك.
لقد انتظرتني

---

١ كيريتارو: مدينة مكسيكية، بنيت في القرن الثامن عشر، وهي غنية بمعالمها الأثرية.

حجارة القمر الحائر،
وجوهرة الأُبال[1] الصائدة،
والشجرة الميتة في كنيسة
متجمدة بالجَمَشت.[2]
كيف أمْكَنَك يا كولومبيا الشفوية،
أن تعرفي بأَن حجارتك الحافية
تخبئ عاصفة ذهب غضوب،
كيف، يا موطن الزمرد،
أمكنك أن تري
أن حليّ الموت والبحر،
وأن البريق في قشعريرته،
سيتسلق حناجر المؤسسين الغزاة؟

لقد كنت فكرة حجرية خالصة،
وردة أحسَن الملح تهذيبها،
دمعة شريرة مدفونة،
صفارة شرايين نائمة،
«بلادونا»[3]، أفعى سوداء.
(وبينما كانت النخلة تبعثر ساقها
في أمشاط عالية
كان الملح يجرد
الجبال من رَوْنقها،

---

١ الأبال : حجر لبني . يسمى أيضاً عين الهر .
٢ الجمشت : حجر كريم ، وهو ضرب من المرو ، بنفسجي اللون .
٣ بلادونا : نبات سام .

ويحوّل قطرات المطر على الأوراق
إلى بزة من الكوارتز
ويحوّل أشجار الشربين
إلى عروق من الفحم.)

هرعتُ عبر الأعاصير نحو الخطر
ونزلتُ إلى ضوء الزمرد،
صعدتُ إلى أوراق الياقوت
ولكنني صَمتُ إلى الأبد
في تمثال النيترات الممتد في الصحراء.
رأيتُ
في رماد الهضبة الجرداء
كيف رفع القصدير
أغصانه المرجانية السامة
إلى أن انتشر كغابة الضباب الاعتدالي،
فغطى ختم أنظمتنا السيريسية[1].

VI
البشر

مثل كوب من صلصال
كان عرق البشر المعدنيين، الإنسان
المصنوع من حجارة وأثير

---

١ السيريسية، نسبة إلى الإلهة سيرس، وهي ربة وثنية عند بعض الشعوب الهندية.

نظيفاً ورناناً كالجرار.
عجنَ القمر الكاريبيين
استخرج أكسجيناً مقدساً
سحقَ أزهاراً وجذوراً.
وراح إنسان الجزُر
يطرز خيوطاً حريرية
وينسج الغيرنالدا[١] بألوان كبريتية متعددة
وينفخ في الخَيْلان[٢] البحري
عند شاطئ الزبد.

تزينتْ جبال «تاراهومارا»[٣] بالمآبر الحادة
وعلى امتداد الشمال الغربي ابتدع النار
بالدّم والصّوان،
بينما كان الكون يولد ثانية
في صلصال «تاراسكو»[٤]:
ليغدو خرافات الأراضي العاشقة،
والفيض النديّ، حيث سيصبح
الوحل الجنسيّ، والثمار المذابة
آلهة.
أو جدراناً شاحبة للأواني.

---

١ الغيرنالدا : نسيج صوفي كان يستخدم قديماً في أميركا .
٢ الخيلان : إله بحري . ابن نبتون . نصفه إنسان ونصفه سمكة .
٣ تاراهومارا : اسم يطلق على جبل في سلسلة سيرا مادري الغربية في المكسيك .
٤ تاراسكو : من القبائل الهندية التي كانت تقطن المكسيك .

ومثل طيور التُدْرُج الباهرة،
نزل الأساقفة
على السلالم «الأستيكية»[١]
وحملت الأدراج المثلثة
بريق الحُلل المتعددة.
والهرم المهيب، احتضاراً وزهواً
في بنائه المهيمن،
حفظ حبة لوز..
قلباً أضحية.
وسال الدم
في رعد كأنه العواء،
على الأدراج المقدسة.
ولكن شعوباً حاشدة
كانت تحبك الألياف،
وتحفظ مستقبل الغلال،
تضفر بريق الرياش،
وتقهر الفيروز،
وفي تشابك النباتات المتسلقة
كانت تُعبِّر عن ضوء العالم.

أنتم يا أبناء «المايا»[٢] قلبتم

١ الأستيك أو الأتتيك: شعب من الهنود الحمر. أقام حضارة باهرة في المكسيك استمرت منذ القرن الرابع عشر حتى الغزو الإسباني عام ١٥١٩.

٢ المايا: شعب من الهنود. استوطن أميركا الوسطى، ما بين غواتيمالا وغرب هندوراس وجزء من السلفادور. وقد جعل من هذه المنطقة خلال أكثر من ألفي سنة أهم المراكز الثقافية والحضارية في أميركا. وعرف هنود المايا الكتابة، وكان لديهم نظامان من الأعداد.

شجرة المعرفة.
وانتصبت هياكل التجربة والموت،
تعبق بروائح سلالات الحبوب،
تقصيتم آبار الماء
وألقيتم لها بعرائس الذهب
ليستمر عطاء الخصب.
كم تعالى بك الضجيج يا «تشيتشين»[1]
في فجر الغابة.
بينما كانت الأعمال تمضي
متناسقة، كما في خلية النحل،
في قلعتك الصفراء،
وهدد الفكر
دمَ قواعد التماثيل،
وفكك السماء في الظلمة
ليرشد الطب
وليكتب على الحجارة.

كان الجنوب ذهولاً ذهبياً.
ووحشة الذرى
في ماتشوبيتشو، عند أبواب السماء
كانت ملأى بالزيت والأناشيد،
الإنسان كان قد حطم أعشاش الطيور الكبيرة

---

١ تشيتشين : مدينة قديمة أشادها هنود المايا في حوالى القرن التاسع للميلاد . ومازالت بعض آثارها قائمة ، مثل : هرم القلعة ، ومعبد المحاربين ، والبرج الحلزوني وغيرها .

في الأعالي،
وفي الأرض الجديدة بين الذرى
لمسَ الفلاحُ البذور
بأصابعه التي جرحها الثلج.
وأشرقت مدينة «كوثكو»[1]
كعرش من البروج والعنابر،
وكان ذاك الجنسُ بأشباحه الصفراء
زهرة الفكر في العالم
وعلى أياديه المفتوحة ارتعشت..
تيجان ملكية مرصعة بالجمَشْت،
ونبتت على المصاطب الجبلية
ذُرة الأراضي العالية،
وفي الدروب البركانية
مضت الأواني والآلهة.
وعطّرتْ الزراعة
مملكة المطابخ،
ومدّت على السطوح
غطاءً من شمس محلوجة.

(أيها الجنس الطيّب، يا ابن الجبال،
ياسليل البروج والفيروز
أطبق لي العينين الآن،
قبل أن نمضي إلى البحر

١ كوثكو أو كوسكو: مدينة في البيرو، بنيت في القرن الحادي عشر، وكانت عاصمة إمبراطورية إنكايكو عند الغزو الإسباني.

إلى حيث تأتي الآلام.)

تلك الغابة الزرقاء كانت مغارة
وفي سرّ الشَّجرة والظلمة
كانت اللغة «الغوارانية»[1] تغني
كالدخان الصاعد في السماء،
كالماء على أوراق الشجر،
كالمطر في يوم حب،
وكالحزن قرب الأنهار.

في أعماق أميركا التي بلا اسم
كانت «أراوكو» بين المياه الدوارة،
يقصيها برد الكوكب كله.
انظرْ إلى الجنوب العظيم المتوحد.
لا دخان في الأعالي.
لا شيء يبدو سوى القمم
والرياح الشديدة التي تصدها
أشجار «الأروكاريا» القاسية.
لا تبحث تحت الخُضْرة الكثيفة
عن أغنية مشغل الفخار

كل شيء صمت ماءٍ وريح.

---

١ اللغة الغوارانية: لغة الهنود الغوارانيين، وهم شعب ملاح، قام بهجرات شهيرة ما بين باراغواي والأمازون. ومازالت اللغة الغوارانية مستخدمة بكثرة في باراغواي وبعض مناطق الأرجنتين.

لكن المحارب ينظر بين الأوراق.
صرخة بين أشجار الشربين
عينا نمر
بين قمم الثلوج.

انظرْ إلى الحراب المستريحة.
اصغِ إلى وَشْوشة الهواء
الذي تمرق فيه السهام.
انظر إلى الصدور والسيقان
والشعور المسترسلة الكالحة
تلمع تحت ضوء القمر.

انظر إلى فراغ المحاربين.

لا أحد. سوى القرقب[1] يغرد
كالماء في ليلة صافية.

ويعبر الكندور في طيرانه الأسود.

لا أحد. أتسمع؟ إنه أسد البوما
يمر بين الهواء والأوراق.

لا أحد. اصغِ. اصغِ إلى الشجرة،

---

١ القرقب أو القُرقُف : جنس طير لونه رمادي في الغالب . يألف الأشجار ويغرّد طول النهار .

اصغِ إلى الشجرة الأراوكانية.

لا أحد. انظر إلى الحجارة.

انظر إلى حجارة أراوكو.

لا أحد، إنها الأشجار فقط

إنها الحجارة فقط؛

إنها أراوكو.

الفصل الثاني

مرتفعات ماتشوبيتشو[1]

١ ماتشوبيتشو ، منطقة جبلية في سلسلة الأنديز في البيرو ، فيها حصن قديم بناه هنود الانكا ، وبقايا مدينة مقدسة اكتشفت أطلالها عام ١٩١١

I

من الهواء إلى الهواء،
مثل شبكة فارغة،
أمضي بين الدروب والأجواء، لأصلَ وأودعَ
في تنبؤات الخريف، قطعة النقد المتدلية
من أوراق الشجر،
وبين الربيع والسنابل،
ما يسلمنا إياه الحب الأكبر،
كما في قفاز يهوي،
مثل قمر طويل.

(أيام بريق حيّ في عراء الأجساد:
فولاذ متحوّل
في صمت الأكاسيد:
ليالٍ تحللت حتى آخر ذرة طحين:
خيوطُ غَزْلٍ مغدورة من وطن الزفاف.)

ثمة من انتظرني بين الكمنجات،
فوجد عالماً مثل برج مدفون
يغرس حلزونه أعمق من جميع الوريقات
ذات اللون الكبريتي الفظ:

أكثر عمقاً، في الذهب الجيولوجي،
وكسيف تكتنفه النيازك،
غرستُ اليد المرتعشة العذبة
في أعمق ما هو تناسلي من الأرض.

وضعت جبهتي بين الأمواج العميقة،
ونزلتُ مثل قطرة بين السلام الكبريتي،
وكأعمى، رجعتُ إلى ياسمين
الربيع البشري المُستهلَك.

II

كانت الزهرة تسلّم إلى الزهرة حبوب الطلع
وتحفظ الصخرة زهرتها المبددة
في ثوبها الماسيّ والرملي المصفوع،
وكان الإنسان يدعك تويج الضوء
الذي يلتقطه من الينابيع البحرية
ويخرم المعدن النابض بيديه.
وفجأة،
وسط الملابس والدخان، فوق المائدة الغارقة،
تبقى الروح مثل كتلة مختلطة:
كوارتز وأرق، دموع في الأقيانوس
مثل برك البرد.
ولكن
اقتلها واجعلها تحتضر بورق وحقد،

أغرقها في السندس اليومي،
مزقها بين زينات الأسلاك المعادية.

لا..
من يحفظ دون خنجر (مثل البرقوق القاني) دمه
في الدهاليز، في الهواء، في البحر أو في الدروب؟
فالغضب أنهك التجارة البائسة لبائع الكائنات،
بينما كان الندى يترك رسالته الشفافة
في أعلى شجرة الخوخ منذ ألف عام،
فوق ذات الغصن الذي ينتظرها، آه يا قلبي،
آه أيتها الجبهة المطحونة،
بين فجوات الخريف.

كم من المرات في شوارع شتاء إحدى المدن
أو في حافلة
أو في سفينة في الغسق
أو في العزلة المتكاثفة،
عزلة ليلة العيد،
تحت صوت الظلال والنواقيس، في مغارة
اللذة البشرية نفسها،
كم أردت أن أتوقف
لأبحث عن العرق المعدني الأخرس الخالد
العرق الذي لمستُه من قبل في الحجر
أو في البرق الذي تنتزعه القبلة.

(ما هو في الحبة مثل قصة صفراء
ذات نهود صغيرة مكتنزة، يكرر رقماً
هو عذوبة في الطبقات النبتية،
يتطابق دائماً، ينفرط عاجاً
وما هو في الماء وطن شفاف، ناقوس
يبتدئ من الثلج المعزول وحتى الأمواج الدامية.)

لم أستطع أن أمسك
إلا بعنقود من وجوه أو أقنعة مترسبة،
كخواتم ذهب فارغ،
كملابس مبعثرة بنات خريف مسعور
تبعث الرجفة في الشجرة البائسة،
شجرة السلالات الخائفة.
لم أجد موضعاً أريح فيه يدي
أو مسيلاً كماء جدول مقيد بسلاسل،
أو كخُثارة فحم أو بلور،
يعيد الحرارة أو البرودة إلى يدي الممدودة.
ماذا كان الإنسان؟
في أي جزء من حديثه المفتوح،
وسط المخازن والصفير، في أي من إيماءاته المعدنية
كان يحيا ما هو غير قابل للفناء، ما هو خالد:
الحياة؟

III

الكائن الحي مثل الذُرة كان ينفرطُ في هري لا ينضب

هري الأعمال الضائعة، والأحداث البائسة،
من واحدة إلى سبع إلى ثمان
وليس ميَتة واحدة، وإنما مِيتات متعددة
تأتي لكَل كائن:
كلّ يوم مِيتة صغيرة،
غبار، دودة، قنديل ينطفئ
في وحل الأحياء الفقيرة،
مِيتَةٌ صغيرة بأجنحة غليظة
تدخل في كل إنسان مثل حربة قصيرة.
في الإنسان المُحاصَر بالخبز أو بالسكين،
راعي المواشي، ابن الموانئ،
أو قبطان المحراث المجهول،
أو قارض الدروب الحاشدة:

جميعهم ماتوا وهم ينتظرون موتهم،
موتهم اليومي القصير:
وانهيارهم المشؤوم كل يوم كان
مثل كأس سوداء ينهلونها مرتجفين.

IV

الموت الجبار دعاني مراراً:
كان مثل الملح المختفي بين الأمواج،
وكان طعمه الخفيُّ يتناثر
مثل أنصاف أعماق وقمم
أو مثل أبنية فسيحة من رياح وقمم جبلية.

جئتُ على الحد الحديدي، إلى ضيق الفضاء،
إلى كَفَنِ زرعٍ وحَجَر،
إلى الفراغ النجمي للخُطى الأخيرة
إلى الطريق اللولبية الدُوارية:
ولكن، أيها البحر الواسع، أيها الموت!
أنت لا تأتي موجة فموجة،
وإنما مثل خبب ضياءٍ ليليّ
أو مثل أرقام الليل بأسرها.
أنت لم تتوصل قطُّ إلى نَفْض جيبك،
ولم تكن زيارتك ممكنة دون بطاقة حمراء:
دون سجّادة فجر مسوّر بالصمت:
دون ارث الدموع شامخاً أو دفيناً.

لم أستطع أن أُحبَّ في كل كائن شجرةً
تحمل خريفَها الصغير على كاهلها (موت ألف ورقة)،
أن أُحبَّ كل الميتات المزيَّفة
والقيامات التي بلا أرض، بلا لجّة:
أردتُ أن أسبحَ في أوسع الحَيوات،
في أكثر المصبّات تحرراً
وعندما رفضني الإنسانُ شيئاً فشيئاً
وراح يسدّ الطريق والباب
لكي لا تلامس يداي النبعيتان انعدامه المجروح،
عندها مضيت من درب إلى درب
ومن نهر إلى نهر،
ومن مدينة إلى مدينة ومن سرير إلى سرير،

وعَبَرَ قناعي الأُجاج الصحراء،
وفي آخر البيوت البائسة التي بلا سراج،
بلا نار، بلا خبز، بلا حجر، بلا صمت،
تدحرجت وحيداً
صوب الموت... موتي.

V

لست أنت أيها الموت، يا طائراً ريشه من حديد،
لست أنت ما يحمله الفقير وإرث الحجرات.
بين طعامه المستعجل، وتحت جلده الفارغ:
كان شيءٌ، تويج زهرة فقيرة في حبل هلاك:
ذرة نهد لم يأت إلى المعركة
أو الندى الكثيف الذي لم يسقط في الجبهة.
كان ما لم يستطع الولادة من جديد،
قطعةً من الموت الصغير دون أمن ودون أرض:
عَظْمة، وناقوساً كانا يموتان في داخله.
وأنا رفعتُ أضمدة اليود، وغرست يديَّ..
في الآلام الفقيرة التي تقتل الموت،
ولم أجد في الجرح سوى هبة ريح باردة
تدخل من فجوات الروح الهائمة.

VI

عندئذ، على أدْرَاج الأرض صعدتُ
بين التشابك الفظيع.. تشابك الأدغال المنسية
إليك، يا ماتشوبيتشو، صعدت.

يا مدينة الحجارة الدرجية العالية،
ها أنت أخيراً مُسْتَقَر لما لم تُخفهِ الأرض
في الأردية النائمة.
فيكِ، يهتز مع الريح الشوكيّة
مهد البروق ومهد الإنسان
كخطين متوازيين.

أيتها الأم الحجرية، يا زبد الكندور.

يا منارةً للفجر الإنساني.

يا معولاً ضائعاً في الرمل الأول.

هاهنا كان المسكن، هذا هو المكان:
هنا اشرأبت حبات الذرة العريضة
ثم تهاوت من جديد مثل بَرَدٍ أحمر.

هنا انسلّت الخيوط الذهبية من وبر الفيكونا[١]
لتكسو الحُبُّ، والأضرحة، والأمهات،
والملك، والصلوات، والمحاربين.

ها هنا استراحت أقدام الإنسان ليلاً
جنباً إلى جنب مع أقدام النسور

---

١ الفيكونا : جنس حيوانات برية من اللبونات ، موطنه الأساسي البيرو وما جاورها . استخدمت شعوب الإنكا وبره لصناعة أصناف متقنة من النسيج .

في الأوكار العالية الجارحة،
وفي الفجر
داسوا بأقدام الرعد فوق الضباب المتخلخل
ولامسوا الأرض والحجارة
إلى أن تعرفوا عليها في الليل أو الموت.

انْظُرُ إلى الملابس والأكف،
وصدى الماء في الفجوة الرنانة،
والجدار الذي يرق لملامسة وجهٍ..
تطلع بعينيٍ إلى المصابيح الأرضية،
بيديً أطلي الأخشاب المختفية بالزيت،
لأن كل شيء:
الملابس، الجلد، الأواني،
الكلمات، النبيذ، الخبز،
كلها مضت، كلها اندثرت في التراب.

ودخلت الريح بأصابع كالزهور،
ومرتْ على كل الأشياء النائمة.
رياح ألف سنة، رياح شهور، أسابيع،
رياح زرقاء، رياح سلاسل الجبال الحديدية،
جاءت كلها كعواصف رقيقة
لتصقل بخطواتها السور الحجري المعزول.

VII

أيها الأموات في هُوَّة واحدة،

يا أشباحاً في الوهدة العميقة نفسها،
هكذا، كجحيم مقاسكم
أتت الحقيقة: الميتَةُ الممضّة.
ومن الصخور المخرمة،
من تيجان الأعمدة القرمزية،
من الأخاديد المتسلقة
هويتم، مثلما تهوي الأوراق في الخريف،
نحو ميتة وحيدة.
الهواء الفارغ ما عاد يبكي اليوم،
إنه لم يعد يعرف أقدامكم الفخّارية،
لقد نسي دنانكم التي تصفي السماء
عندما تريقها خناجر الشعاع،
والشجرة القوية التي تآكلتها الغيوم،
وبترتها هبّة الريح،
استندت بيدها، وما لبثت أن تهاوت
من الأعالي حتى نهاية الزمن.
لا، لم يعودوا أيدي عناكب،
خيوطاً ضعيفة، نسيجاً متشابكاً:
وعندما مضيتم،
انهارت عادات، مقاطع بالية،
وأفناء نور مُبْهِر.

ولكن ديمومة الحجارة والكلمة بقيت منتصبة.

المدينة ارتفعتْ ككأس في أيدي الجميع:

أحياء، وأمواتاً، وصامتين،
ومستندين إلى ميتات كثيرة.
وانتصب جدار، وحياة نابضة
بضربة تويج حجري،
فكانت الوردة الدائمة، البنفسجية:
هذه المنارة الأنديزية في الأعالي الجليدية.

عندما تحولت اليد التي بلون الطين
إلى طين،
وعندما أطبقت الأهداب الصغيرة
وهي ممتلئة بالجدران الخشنة،
ومسكونة بالقلاع،
وعندما حُشرَ الإنسان كله في جحر
بقي الكمالَ شامخاً:
بقي الموقع الرفيع للفجر البشري:
أعلى إناء حفظه الصمت:
حياة حجرية بعد حيوات كثيرة.

VIII

اصعد معي أيها الحب الأمريكي.
قبّل معي الحجارة السرّية.

فضة أوروبامبا[1] الغزيرة

---

١ أوروبامبا : اسم نهر في البيرو .

تجعل ذرات الطَّلْع تتطاير إلى كؤوسها الصفراء.
ويطير فراغ اللبلاب،
والنبتة الصخرية، وإكليل الغار القاسي
فوق صمت العلبة الجبلية.

تعالي أيتها الحياة الصغيرة،
ما بين أجنحة الأرض،
بينما البلّور والبرد، والريح العاتية
تُبعد الزمرد المحارب،
آه، أيها الماء المتوحش، الهابط من أعالي الثلج.

آه يا حبي، يا حبي، حتى الليل الوَعْر،
من الحجر الأنديزي الرنان،
إلى الفجر ذي الرُكب الحمراء،
يتأمل ابن الثلج الأعمى.

آه يا «ويكامايو»، يا ذات الخيوط الرنانة،
متى تحطمين رعودك الهندسية
وتحولينها إلى زبد أبيض، مثل ثلج مُجرَح،
متى ستغني رياحُكِ العاتية وتعصف
مُوقظة السماء،
أي لغة تحمل إلى الآذان
آذان زبدك الأنديزي المستأصلة لتوها؟
من ذا الذي أسر بروق البرد
وتركها مصفدة في الأعالي،

منوزعة في دموعها الجليدية،
منتفضة في سيوفها العجولة،
ضاربة مآبرها المُجربة،
موجهة في سريرها القتالي،
قافزة في نهايتها الصخرية؟

ما الذي تقوله ومضاتك المضطهدة؟
وبروقك السرية المتمردة
التي ارتحلت مسكونة بالكلمات؟
مَنْ ذا الذي يُقطِّعُ الأهداب الورديّة
الآتية من الأرض لترى؟
مَنْ أسقط العناقيد الميتة
النازلة من يديك الشلالين
لتفرك حبوب ليلها المنثورة
في فم الجيولوجيا؟

مَنْ الذي دَهْوَرَ فرع الأواصر؟
ومن الذي دفن مجدداً تحيات الوداع؟

آه أيها الحب، يا حبي، لا تلامس الحدود،
ولا تقدس الرأس الغاطسة:
دع الزمن يتم قوامه
في صالة ينابيعه المهشمة،
وما بين الماء المتدفق والأسوار،
يلتقط هواء المضيق،

شرائح الريح المتوازية،
وقناة الجبال العمياء،
وتحية الندى الحميمة،
ويصعد، زهرة فزهرة، في الأجمة،
ليجوس في الوهدة التي تتلوى مثل أفعى.
في المنحدر الوَعر، حيث الحجر والغابة،
والغبار ذو النجوم الخضراء، والأدغال النقية
ينفجر «مانتور» كبحيرة حية
أو كخطوة صمت جديدة.

تعال إليّ أيها الكائن الذاتي، إلى فجري،
إلى العزلات المتوجة.
فالمملكة الميتة ما زالت فيها حياة.

ويعبر ظلُّ الكندورِ الدمويُّ في الساعة،
مثل مركب أسود.

IX

أيها النسر الكوكبي، يا دالية الضباب.
أيها الحصن الضائع، يا حساماً أعمى.
يا حزاماً نجمياً، يا خبزاً احتفالياً.
أيها الدَرج البرجي، أيها الجفن الفسيح.
يا عباءة مثلثة، يا طلْع الحجارة.
يا مصباح الغرانيت، يا خبزاً حجرياً.
يا أفعى معدنية، يا زهرة حجرية.

يا مركباً دفيناً، يا نبعاً حجرياً.
يا حصان القمر، يا ضوءاً حجرياً.
أيتها الهندسة النهائية، يا كتاب الأحجار.
يا كتلة جليد موشاة بين هبّات الريح.
يا عِرْق لؤلؤ الزمن الغارق.
يا سوراً صقلته الأصابع.
يا سقفاً من الريش المقاتل.
يا فروع مرآة، يا قواعد العاصفة.
يا عروشاً قلبتها نباتات متسلقة.
يا نظام المخالب الجارحة.
يا ريحاً عاصفة مستندة إلى المنحدر.
يا شلال عقيق ثابت دون حراك.
يا ناقوس النائمين البطريركي.
يا حَلقة الثلوج المروّضة.
أيها الحديد المستقر فوق النُصب.
يا عاصفة مغلقة لا تُقتحم.
يا أيدي «البوما»، يا صخوراً جارحة.
يا برجاً مظلّلاً، يا جدال الثلوج.
يا ليلاً يرتفع بالأصابع والجذور.
يا نوافذ الضباب، أيتها اليمامة المتصلبة.
أيتها النبتة الليلية، يا تمثال الرعود.
يا سلسلة الجبال الأساسية، أيها السقف البحري.
يا هندسة النسور التائهة.
يا حبل السماء، يا نخلة الأعالي.
أيها المستوى الدامي، أيتها النجمة المشيَدة.

أيتها الفقاعة المنجمية، يا قمر الكوارتز.
أيتها الأفعى الأنديزية، يا جبهة الدَيسَم.
يا قُبّة الصمت، أيها الوطن النقي.
يا عروس البحر، يا شجرة الكاتدرائيات.
يا غصن ملح، يا شجرة الكرز ذات الأجنحة السوداء.
يا أسناناً مثلجة، يا رعداً بارداً.
يا قمراً مخدوشاً، يا حجراً متوعداً.
يا غدائر شعر البرد، يا فعل الهواء.
يا بركان الأيدي، أيها الشلال القاتم.
يا موجة الفضة، يا وجهة الزمن.

X

أيها الحجر الجاثم في الحجر، أين كان الإنسان؟
أيها الهواء المنتشر في الهواء، أين كان الإنسان؟
أيها الزمن المتداخل في الزمن، أين كان الإنسان؟
أكنت النثار المحطم،
نثار الإنسان الذي لم يكتمل خلقه،
نثار النسر الأجوف،
ذلك الذي يمضي في الدروب اليوم،
وفي آثار الأقدام،
وفي أوراق الخريف الميت
ذلك الذي يعذب الروح حتى الممات؟
أين اليد الفقيرة، والقدم، والحياة البائسة...
أين أيام النور المتفككة فيكَ،
مثل قطرات المطر المتساقطة

فوق رايات الاحتفال،
التي أعطت، تويجاً بعد تويج، للفم الفارغ
من طعامها القاتم؟
أيها الجوع، يا مرجان الإنسان،
أيها الجوع، يا نبتة سرية، يا جذر الحطابين،
أيها الجوع، هل صعد خطك متجاوزاً الحد
ليصل إلى هذه الأبراج العالية المنسلخة؟

إني أستجوبك، يا ملح الدروب،
فأرني الملعقة.
وأنتِ أيتها الهندسة المعمارية،
دعيني أسبر بمسبر صغير نسيج الصخور،
وأصعد كل درجات الهواء حتى أصل إلى الفراغ،
وأكشط الرحم حتى ألامس الإنسان.

آه يا ماتشوبيتشو،
لقد بَنيتِ حجراً فوق حجر، والأساس؟ أسمال؟
وفحماً فوق فحم، وفي العمق؟ دموع؟
وناراً في الذهب، وفيه يرتعش قانياً
الدم النازف؟
ماتشوبيتشو!
أعيدي إليَّ العبد الذي دفنتِه!
وانفضي التراب عن الخبز اليابس
خبز البائسين،
أريني ملابس القن ونافذته.

أخبرني كيف كان ينام وهو حيّ.
أخبرني إذا ما كان يشخر
في نومه، ويحلم بهُوّة سوداء
مبعثها الإنهاك فوق السور.
السور! أيها السور! أخبرني إذا ما كان
كل صف من حجارتك يرتفع فوق أحلامه،
وإذا ما هوى تحتها مثل قمر، مع أحلامه!
يا أميركا القديمة، أيتها العروس المغمورة،
إن أصابعك أيضاً،
تصعد من الغابة نحو فضاء الآلهة في الأعالي،
تحت رايات زفاف الضوء والزخارف،
مختلطة برعد الطبول والحراب،
أصابعك، أصابعك أيضاً
التي نقلتها الوردة المجردة وخط البرد،
والصدر الدامي من الغلال الجديدة
إلى نسيج المادة المشعة، إلى الكهوف القاسية،
وحفظتْ في أعمق أعماقكِ
يا أميركا الدفينة،
في أحشائك المريرة،
مثل نسر، حفظت الجوع؟

XI

عبر السناء المضطرب،
عبر الليل الحجري، دعني أغرس يدي
ودع القلب

يخفق فيَّ، مثل عصفور أسير منذ ألف عام،
القلب الهَرِم، قلبي، أنا المنسي!
دعني أنسَ اليوم هذه السعادة
التي هي أكثر اتساعاً من البحر،
لأن الإنسان أرحب من البحر ومن جزائره،
ويجب الغوص فيه، كما في بئر،
ليخرج من اللجّة بغصن ماءٍ سريٍّ، وبحقائق طافية.
دعني أنسَ، أيها الحجر الفسيح،
التطابقَ الشديد،
والوسيلة الخطيرة، وحجارة الشُهد،
ودع يدي تنزلق اليوم
على حافة هذا المثلث ذي الدم والمسوحِ الخشنة.
وعندما يصفع الكندور الهائج صدغيَّ في طيرانه
مثل جمرة جناح حديدي أحمر،
وبإعصار الريش الجارح يكنس الغبار المذهول
عن الأدراج المائلة،
فإنني لا أرى عندها الحيوان الطيّار السريع،
ولا حَلقة مخالبه العمياء،
وإنما أرى الكائن البشري القديم، المستعبَد،
النائم في الحقول،
أرى الجسد، ألف جسد،
أرى رجلاً، وألف امرأة، تحت هَبّة الريح السوداء،
وقد سوّدهم المطر والليل،
يحملون حجارة النصب.
أرى:

«خوان» قاطع الخشب، ابن «ويراكوتشا»[1]،
و «خوان» متحمل البرد، ابن «النجم الأخضر»،
و «خوان» جد الحفاة، وحفيد الفيروز،
فاصعد لتولد معي يا أخي.

XII

اصعد يا أخي، لنولد معاً.
مدّ لي يدك من أعماق بؤرة ألمك المبدد.
إنك لن تعود من أعماق الصخور.
لن تعود من الزمن تحت الأرضي.
ولن يعود صوتك المتحجر.
ولن تعود عيناك المثقوبتان.
حدّق بي من أعماق الأرض،
أيها الفلاح، والحائك، والراعي الصامت،
وأنت يا مروض الغواناكو الجامحة:
وأنت أيها البنّاء الذي يتحدى السقالة:
وأنت يا ساقي الدموع الأنديزية:
وأنت أيها الصائغ ذو الأصابع المسحوقة:
وأنت أيها الزراع المرتجف في البذرة:
وأنت أيها الخزاف، يا من تسكب ذاتك مع صلصالك:
أحضروا كلكم إليّ كأس الحياة الجديدة هذه
آلامكم القديمة الدفينة.
أروني دمكم، أروني الأخاديد التي حفرتها السياط،

---

[1] ويراكوتشا : أحد ملوك الإنكا في البيرو القديمة .

وقولوا لي: هنا عُذِّبت،
لأن الحلية لم تكن تلمع، أو لأن الأرض
لم تَمْنَح، في موسمها،
الحجر أو الغلة.
أروني الحجر الذي سقطتم عليه
والخشبة التي صلبوكم عليها،
اقدحوا لي حجارة الصوان القديمة،
وأشعلوا القناديل العتيقة، والسياط التي صفعت
قروحكم عبر القرون،
والفؤوس ذات الألق الدامي.
فأنا آت لأنطق بفمكم الميت.
فوحدوا، عبر الأرض،
كل الشفاه النازفة
ومن الأعماق حدثوني عن هذا الليل الطويل كلّه،
كما لو كنت مدفوناً معكم.
حدثوني عن كل شيء، عن قيودكم:
سلسلة فسلسلة،
حلقة فحلقة، وخطوة فخطوة،
واشحذوا المُدى التي بها تحتفظون،
وأغمدوها في صدري وفي يدي،
كنهر من البروق الصفراء،
كنهر من النمور المدفونة،
ودعوني أنتحب لساعات، لأيام، لأعوام،
لعصور عمياء، وقرون كوكبية.

امنحوني الصمت، والماء، والأمل.
امنحوني النضال، والحديد، والبراكين.
التصقوا بجسدي وكأنه قطعة مغناطيس.
هلموا إلى عروقي وفمي.
وانطقوا بكلماتي ودمي.

الفصل الثالث

الغزاة

Ccollanan Pachacutec! Ricuy
anceacunac yahuarniy richacaucuta!

TUPAC AMARU I[1]

---

١ وردت هذه العبارات في الأصل بلغة الكيتشوا ، وهي لغة هنود الإنكا التي ما زالت شائعة في بعض مناطق البيرو . ومعناها بالعربية :

يا باتشاكوتيك العظيم!

انظر إلى دماء أسلافنا كيف تتجدد حياة!

توباك آمارو الأول .

إنهم آتون من الجزر
(١٤٩٢)

الجزارون دمروا الجزر.
«غواناهاني»[١] كانت الأولى
في تاريخ العذاب.
ورأى أبناء الطين ابتسامتهم تنكسر ،وقاماتهم الأيَلِيّة تُصفع،
وحتى عندما ماتوا.. لم يفهموا لماذا يموتون.
لقد قُيِّدوا وجُرحوا،
أُحرقوا وكُووا،
نُهشوا ودُفنوا.
وعندما دار الزمن دورة الفالس
راقصاً ما بين النخيل،
كانت القاعة الخضراء قد أقفرت.

العظام وحدها بقيتْ
متكلسة ومصفوفة
على شكل صليب،
من أجل مجد أعظم

---

١ غواناهاني : اسم قديم لاحدى جزر سان سلفادور ، وهي أول موضع نزل فيه كولمبس عام ١٤٩٢ .

للرب والبشر.
من الوحول الكبرى
ومن تفرعات «ساتوبينتو»[1]
حتى التجمعات المرجانية
كانت سكين «نارفايث»[2] تقطع:
هنا الصليب، وهنا المسبحة،
وهناك عذراء الهراوة.
دُرّة كولمبس؛ كوبا المتألقة،
تلقت الراية والخرق
في رمالها المضمّخة.

II
الآن كوبا

ثم كان الدم والرماد.
وبعده بقيت أشجار النخيل وحيدة.

كوبا، يا حبي، لقد قيدوكِ إلى آلة التعذيب،
شطروا وجهك،
وباعدوا ما بين ساقيك الذهبيتين الشاحبتين،
ومزقوا رحمك الرمّاني،
اخترقوكِ بخناجرهم،

١ سوتابينتو : مجموعة جزر في الأنتيل الأصغر .
٢ بانفيلو دي نافاريث ، عسكري إسباني ، شارك في غزو كوبا سنة ١٥١١ ، وحارب في المكسيك وفي منطقة المسيسبي .

قطعوكِ، أحرقوكِ.

عبر وديان العذوبة
نزل المبيدون،
وعلى الجبال العالية ضاعت في الضباب
تيجان الريش التي كان يضعها أبناؤك،
طوردوا إلى هناك
فرداً فرداً إلى أن هلكوا،
ممزقين في الألم
دون أرضهم الدافئة، أرض الأزهار
التي كانت تُسحب من تحت أقدامهم.

كوبا، يا حبي، أية قشعريرة
جعلتك ترتجفين من الزبد إلى الزبد،
حتى صرتِ نقاء،
صرتِ عزلةً، صمتاً، كثافة،
وعظامَ أبنائك
تنازعتها أسماك الكابوريا.

III

وصلوا إلى بحر المكسيك (١٥١٩)

نحو «فيراكروث»[1] تمضي الريح المجرمة

---

١ فيراكروث ، مدينة مكسيكية وميناء مهم . هي أول مدينة بناها الفاتحون الإسبان في المكسيك عام ١٥١٩ .

وفي فيراكروث رست الخيول.
أتت السفن المحشوة بالمخالب
وباللحى القشتالية الحمراء.
إنهم: أرياس، ريس، روخاس، مولدونادوس،[1]
أبناء الخذلان القشتالي،
عارفو الجوع في الشتاء
والقمل في النُزل.

بماذا يفكرون وهم متكئون على مرافقهم فوق السفن؟
أهم يفكرون بكل ما هو آتٍ وكل الماضي الضائع،
بكل شرور الريح الإقطاعية
في الوطن المجلود؟

لم يخرجوا من موانئ الجنوب
ليضعوا أيدي الشعب
في النهب والموت:
لقد رأوا مرابعَ خضراء، حريات،
قيوداً محطمة، منشآت،
ومن السفينة رأوا الأمواج التي تتبدد
على شواطئ الأسرار الكثيفة.
أهم ماضون ليموتوا، أم ليحيوا من جديد
فيما وراء النخيل، في الهواء الدافئ
حيث تتجه نحوهم مثل فرن غريب،

[1] أسماء بعض الفاتحين الإسبان الذين غزوا أميركا.

الأراضي الحارقة كلها؟
كانوا شعباً، رؤوساً مسترسلة الشعور من «مونتيل»[1]
أيادي قاسية مشققة من «اوكانيا»[2] و«بيدراهيتا»[3]،
سواعد حدادين، عيون أطفال
تنظر إلى الشمس الرهيبة وإلى النخيل.

جوع أوربا القديم، جوع كذيل كوكب خالد،
كان يسكن السفينة،
كان الجوع عارياً هناك
مثل فأس باردة منسية، مثل أم دون حنان،
الجوع يلعب لعبة الحظ
في ذلك الإبحار،
ينفخ في القلوع:
«هناك بعيداً ستؤكل، هناك بعيداً
إذا ما رجعت
إلى الأم، إلى الأخ، إلى القاضي وإلى الكاهن،
إلى حاكم التفتيش، إلى الجحيم، إلى الطاعون.
هناك، هناك بعيداً عن القمل،
عن السوط الإقطاعي، عن الزنزانة،
عن العربات الممتلئة بالبراز».

وعيون «نونيث» و«بيرنالس»[4]

١ مونيتيل : بلدة إسبانية في منطقة لامانتشا .
٢ اوكانيا : بلدة إسبانية في منطقة طليطلة .
٣ بيدراهيتا : واد في إسبانيا ، في مقاطعة ابيلا .
٤ نونيث وبيرناليس : عسكريان إسبانيان شاركا في فتح المكسيك .

تتعلق بضوء السكون غير المحدود،
تلك كانت حياة، والآن حياة أخرى،
إنها عائلة بؤساء العالم المعاقبة،
والتي لا عدّ لها.

IV

كورتس

لم يكن لـ «كورتس»[1] قرية، إنه شهاب بارد،
قلب ميت في الدروع.
«-أراضٍ مخصبة يا مولاي ومليكي،
ومعابد فيها الذهب سبائك
بين أيدي الهنود.»

تقدم وهو يغمد الخناجر،
ويصفع الأراضي الواطئة، وتطأ خيوله
الجبال المضمّخة بالشذا،
ويوقف قطعانه ما بين أعشاب السَّحْلَب[2]
وتيجان الصنوبر،
ساحقاً زهور الياسمين،

---

١ هيرنان كورتس: فاتح إسباني، ولد في اكستريمادورا (١٤٨٥-١٥٤٧) شارك في غزو كوبا إلى جانب ديغو فيلاثكيث سنة ١٥١١، وقد وَكّلَ إليه قائده هذا إعداد حملة لغزو المكسيك. وعندما وصلها حارب الوطنيين الهنود وذبح منهم الآلاف، وأسس مدينة فيراكروث، ثم استقل بالمكسيك عن السلطة المركزية، وأمر بإغراق سفنه ليحول دون عودة معارضي سلطته إلى كوبا.

٢ السَّحْلَب: جنس أعشاب عسقولية معمرة من فصيلة السحلبيات. تستخرج من عساقل بعض أنواعه مادة نشوية تُطبخ وتؤكل.

حتى أبواب «تالاكسكالا»[١]

(يا أخي الخائف،
لا تتخذ النسر الأحمر صديقاً:
من بين الطحالب أقول لك:
ستمطر في الغد دماً،
وستكون الدموع كثيرةً
تتحول إلى غيوم، إلى بخار، إلى أنهار،
حتى تُذيب عينيك.)

وتلقى كورتس حمامة،
تلقى ديكاً بريّاً، وقيثارة
من موسيقيّي العاهل،
ولكنه كان يريد حجرة الذهب،
يريد خطوة أخرى، ليسقط كلَّ شيء
في صناديق الجشعين.
ويطل العاهل من الشرفة:

«هذا أخي» ، يقول.
فتتطاير حجارة الشعب مجيبة،
ويشحذ كورتس المدى
على القبلات المغدورة.

---

١ تالاكسكالا ، مدينة مكسيكية قديمة ، كانت عامرة قبل الفتح الإسباني بكثير ، وتوجد فيها وفيما حولها آثار قديمة أهمها معبد أوكوتلان .

وترجع الريح إلى تالاكسكالا
حاملة معها همسة آلام صماء.

V

تشولولا

في تشولولا[1] كان الشبان يرتدون
أفضل الملابس: ذهب وريش،
وينتعلون خفاف الاحتفال.
سألوا الفاتح

فأجابهم الموت.

آلاف القتلى سقطوا هناك.
قلوب قُتلتْ غيلة
تنبض مُلقاة هناك
في الحفر الرطبة التي شقوها،
وما تزال
تحفظ تسلسل أحداث ذلك النهار.

(دخلوا على الجياد يقتلون،
وقطعوا اليد التي كانت ترحب بهم
بالذهب والزهور،

---

١ تشولولا ، مدينة مكسيكية قديمة . فيها هرم الأستيك الشهير والقبة الملكية . وقد أخمد كورتيس فيها بوحشية بالغة انتفاضة قام بها الوطنيون سنة ١٥١٩

أغلقوا الساحة، وأنهكوا أذرعهم
حتى لم تعد تقوى على الحركة،
قتلوا زهرة المملكة،
وغرقوا حتى المرافق في الدماء
دماء إخوتي المغدورين.)

VI

الفارادو

الفارادو[1] أهوى بالمخالب والخناجر،
على الأكواخ،
ودمر إرْث الصائغ،
اختطف زهرة الزفاف من القبيلة،
وغدر بأجناس، بأراض، بأديان،
وكان صندوق سيولة اللصوص،
صقر الموت السريّ.
وإلى النهر الأخضر، نهر بابالوابان،
نهر الفراشات،
حمل فيما بعد
الدم في رايته.

---

١ بيدرو دي الفارادو : فاتح إسباني ، ولد في بلدة باداخوث (١٥٤١-١٦٢٨) ، كان نائباً لكورتيس في المكسيك . وهو الذي أصدر الأوامر بتنفيذ مذبحة فظيعة ضد الهنود ، عرفت باسم الليلة الحزينة عام ١٦٢٠ ، وقد أصبح فيما بعد قائداً عاماً لغواتيمالا ، حيث أنشأ مدينة سنتياغو دي لوس كاباييروس(١٥٢٤) . شارك في غزو السلفادور وفي تنظيم حملة على البيرو ، وحاول الوصول إلى جزر التوابل ، ولكنه مات وهو يقاتل في غاليسيا الجديدة .

النهر الوقور رأى أبناءه
وهم يموتون أو يعيشون عبيداً،
ورأى الرؤوس الشابة،
تشتعل في المحارق قريباً من الماء،
عرقاً بعد عرق.
ولَكن الآلام لم تُستنفد
مثل مسيرته العنيدة
نحو مراكز جديدة.

VII

غواتيمالا

إيه يا غواتيمالا العذبة،
كل حجر من حجارة بيوتك
يحمل قطرة دم قديمة مهدورة
بأنياب النمور.
ألفارادو سحق ذُرِّيَّتك،
وحطم نقوشك الكوكبيَّة،
وعاث بعذاباتك.
ومن وراء النمور الشاحبة
دخل القسّ إلى «يوكاتان»[1]
وجمع أعمق حكمة
سمع بها الهواء،

---

١ يوكاتان : شبه جزيرة في أميركا الوسطى بين خليج المكسيك والبحر الكاريبي . يتبع جزء من أراضيها للمكسيك والجزء الآخر لغواتيمالا . وكانت مركز حضارة المايا قبل وصول الإسبان .

حكمة أول يوم من الدنيا،
عندما كتب أول أبناء «المايا»
ملاحظاً خفقان النهر،
عن علم اللقاح،
وعن غضب آلهة الحزمة النسيجية،
والهجرات عبر العوالم الأولى،
وقوانين خليّة النحل،
وسرّ الطائر الأخضر،
ولغة النجوم،
وأسرار الليل والنهار
مأخوذة كلها على ضفاف
التطور الأرضي!

VIII
قسّ

القسّ رفع ذراعه،
وأحرق الكتب في الساحة
باسم ربه الصغير،
وجعل من الأوراق القديمة دخاناً،
تلك الأوراق التي أبلاها الزمن القاتم.

والدخان لا يرجع من السماء.

IX

الرأس على سنان رمح

إيه يا «بالبوا»[1]، لقد حملت الموت والدمار
إلى أطراف الأراضي الوسطى العذبة،
ومن بين كلاب الصيد،
كان كلبك هو روحك:
كلبك «ليونثكو» ذو الشفة الدامية
كان يمسك العبد الهارب،
ويغرس أنيابه الإسبانية
في الحناجر النابضة،
وعلى براثن الكلاب
كان اللحم يخرج للعذاب
وكانت الجواهر تتساقط في الكيس.

ليكن ملعوناً الكلب وصاحبه،
والنباح المشؤوم في الغابة العذراء،
والخطوة المترصدة،
خطوة الحديد واللصوصية.
ليكن ملعوناً التاج الشوكيّ،
تاج العوسج البريّ
لأنه لم ينتصب مثل قُنْفُذ

---

١ فاسكو نونييث دي بالبوا، (١٤٧٥-١٥١٧) فاتح إسباني، ولد في خيريث دي لوس كاباليروس (مقاطعة باداخوث). شارك في عدد من حروب الفتوح في أميركا الوسطى. ولكنه اعتقل في أواخر حياته واتهم بالخيانة من قبل قائده بيدرارياس، وحوكم ونفذ فيه حكم الإعدام بقطع رأسه.

للدفاع عن المهد المستباح.

ولكن
ما بين القادة الدمويين،
ارتفعتْ في الظل
عدالة الخناجر،
وغصن الحسد الشرس.

وعند عودتك يا بالبوا
كان لقب «بيدراریاس»[1]
يقطع طريقك،
مثل انشوطة.

لقد حاكموك بين نباح الكلاب
قاتلة الهنود.
الآن وأنت تموت
أتسمع الصمت النقي
الذي تقطعه كلاب صيدك الهائجة؟
الآن وأنت تموت
بين أيدي نواب الملك المتجهمين،
أتشعر بالشذا المُذهب
شذا المملكة العذبة المحطمة؟

---

١ بيدراریاس هو لقب بيدرو ارياس دافيلا : قائد عسكري إسباني (١٤٤٠ ؟ -١٥٣١) شارك في غزو مناطق كثيرة من أميركا الوسطى . واتهم بالبوا بالخيانة وقطع رأسه . أسس مدينة بنما سنة ١٥١٩ ، وقام بعدة حملات إبادة ضد سكان البلاد الأصليين .

عندما قطعوا رأس بالبوا،
وغرسوه على رأس رمح،
تعكر بريق عينيه الميتتين
وانزلقتا على الرمح
كقطرات نجاسة
ثم اختفتا في التراب.

X
تحية إلى بالبوا

أيها المكتشف،
إن البحر الفسيح، وزبدي أنا،
ارتعاشة القمر، إمبراطورية الماء،
تُكلِّمك بفمي عَقِبَ قرون.
كمالُكَ وصل قبلَ الموت.
رفعتَ التَعبَ حتى السماء،
ومن ليل الأشجار القاسي
قادَكَ العرق حتى شاطئ أعمق البحار،
حتى المحيط الكبير.
في نظرتك تمَّ زفافُ الضوء الممتد
وزفاف قلب الإنسان الصغير،
وامتلأت كأس لم تكن تُرفع قبلاً،
ومعك وصلت بذرة بروق
وملأ الأرض هزيم مُتَدفِّق.

بالبوا، أيها القائد، يا لصغر كفّك
على حافة قبُعتك
يا دمية الملح الكشاف السرية
يا عريس الرقة المحيطية،
يا ابن الرحم الجديد للعالم.

من عينيك عَبرتْ
مثل أزهار متقافزة،
الرائحة القاتمة، رائحة البهاء البحري المسروق،
وسقط في دمك فجرٌ متكبر
إلى أن استوطن روحك، أيها المجنون!
وعندما عدتَ إلى الأراضي العاتية،
أيها المتسرنم البحري، أيها الرُبان الأخضر،
كنتَ ميتاً تنتظرُ الأرضُ
تَلَقّي عظامك.

أيها العريس الفاني، لقد تمّتْ الخيانة.
لم تدخل الجريمة التاريخ عبثاً،
فالصقر افترس عشّه،
والأفاعي تجمّعت يهاجم بعضها بعضاً
بألسنتها الذهبيّة.

ودخلتَ في الغسق المحتدم
بخطاك التائهة التي كنتَ تخطوها،
وأنت ما تزال مضمخاً بالأعماق،

متسربلاً بملابس براقة،
وما كدت تقترن بزبد أكبر موجة،
حتى قادتك إلى شطآن بحر آخر:
إلى الموت.

XI
جندي نائم

تائهاً في الآفاق الكثيفة
أتى الجندي.
كان الإنهاك مجسداً
وارتمى بين اللبلاب والأوراق،
تحت قدمي الرب الأكبر ذي الريش.
وهذا،
كان وحيداً بعالمه المنبثق لتوه
من الغابة.
نظر إلى الجندي
الغريب الآتي من المحيط،
نَظَر إلى عينيه، إلى ذقنه الدامية،
إلى سيفه، إلى البريق الأسود
المنبعث من دروعه،
وإلى التعب المخيّم مثل ضباب
فوق رأس ذلك الطفل الجارح.

كم من مساحات الظلام انقضت

ليولد إله الريش
ويفرد هيبته على الأدغال،
في الحجر الوردي،
كم من صخب المياه المجنونة
والليل الموحش مضى،
قبل أن يولد مسيل النور الطافح،
وهيجان الحيوات الغاضب، والدمار،
وطحين الخصوبة، ثم بعد ذلك النظام،
نظام النبتة والحشرة،
وشموخ الصخور المقتلعة،
ودخان المصابيح الطُقوسية،
وثبات الأرض للإنسان،
واستقرار القبائل
ومجلس الآلهة الأرضية.
ثم خفقتْ كل حرشفة في الحجر
وأحستْ بالبخار الساقط
كغزو حَشَريّ،
وتسلمت كل سلطتها،
وجعلت المطر يصل حتى الجذور،
لتتحدث إلى عروق الأرض،
وكان الإله بملابسه القاتمة
التي هي من حجر كوني لا حراك فيه،
فلم يستطع تحريك المخالب ولا الأسنان،
ولا الأنهار، ولا الزلازل،
ولا النيازك الصافرة

في سماء المملكة.

وبقي هناك، حجراً راسخاً، صامتاً،

بينما كان «بلتران» القرطبي نائماً.

XII
خيمينث دي كيسادا (١٥٣٦)

ها هم قادمون، ها هم قادمون،
لقد وصلوا،
آه يا قلبي، انظر إلى السفن،
السفن القادمة من نهر مجدلينا،
سفن غونثالو خيمينث[1]
إنها تصل.. لقد وصلت السفن،
أوقفها أيها النهر،
أطبق عليها ضفتيك والتهمها،
أغرقها في لجتك،
انتزع الجشع منها،
اقذفها بمخاطمك النارية،

---

١ غونثالو خيمينث دي كيسادا، رجل قانون وفاتح إسباني. ولد في غرناطة (١٥٠٠ ؟ ١٥٧٩). بعد تعيينه مديراً أعلى للعدلية، أبحر إلى سانتا مارتا (كولومبيا الحالية) سنة ١٥٣٥، استكشف مجرى نهر مجدلينا. وخاض معارك ضارية ضد هنود التشيبتشا. أسس مدينة سانتا في دي بوغوتا سنة ١٥٣٨. وأطلق على المنطقة اسم غرناطة الجديدة.

بفقرياتك الدموية،
بثعابينك آكلة العيون،
ليعترضها التمساح القاسي
بأسنانه التي بلون الوحل
وبدروعه الأصلية،
مدده، أيها النهر، جسراً
فوق مياهك الرملية،
أطلق نيران الجَغْوَار
من فوق أشجارك، المتولدة من بذورك،
أيها النهر الأم،
اقذفهم بذباب الدم،
اسلبهم البصر بالرَوْث الأسود
أغرقهم في لجتك،
ثبتهم ما بين الجذور
في عتمة مهادك،
وعَفِّن كلّ دمائهم
والتهم رئاتهم
وشفاههم بأسماكك.

ها هم يدخلون الغابة،
ها هم ينهبون، ينهشون، يقتلون.
آه يا كولومبيا! دافعي عن حِجاب
غاباتك الحمراء السريّة.

ها هم يرفعون المدية

فوق حنجرة «إراكا»
إنهم يشدون الآن وثاق الـ «ثيبا»[1]،
إنهم يقيدونه الآن ويأمرونه:
«سلِّمنا مجوهرات الرب العتيق»،
المجوهرات التي كانت تتفتح
وتلمع مع الندى
في الصباح الكولومبي.

إنهم يعذبون الأمير الآن.
ها هم يذبحونه،
رأسه يتطلَّع إليَّ بعينين
لن يستطيع إطباقهما أحد،
عينان يحبهما
وطني الأخضر العاري.
الآن يحرقون البيت الآمن،
وتتوالى الجياد،
والسيوف، والتعذيب،
الآن بقيت بضع جَذوات
وما بين الرماد
بقيت عينا الأمير
اللتان لم تنطبقا

١ ثيبا : لقب كان يطلق على أمراء قبائل كاسيك التشيبتشية التي كانت تقطن المنطقة المعروفة اليوم باسم كولومبيا .

XIII

موعد الغربان

في «بنما» اجتمع الشياطين.
هنا عُقد حلف بنات آوى.
كانت شمعة متقدة تبعث بنورها الباهت،
عندما أتى الثلاثة
واحداً بعد آخر.
أولاً وصل «ألماغرو»[1]: عجوز أعور،
ثم «بيثارو»[2] الضابط الخنْزيريّ
والقسّ «لوقا»[3]، الكاهن المأجور
المتمادي في الضباب.
وكل واحد منهم
كان يخفي المدية ليغرسها
في ظهر شريكيه،
كل منهم
يتطلع بنظرة الجشع إلى الجدران القائمة
ويتكهن بالدم من ورائها،

---

١ دييغو دي ألماغرو ، فاتح إسباني (١٤٧٥-١٥٣٨) . رافق بيثارو في حملة البيرو . عينه الإمبراطور كارلوس الأول نائباً متقدماً في أرضي الجنوب ، فقام بحملة استكشافية إلى تشيلي (١٥٣٦) . وعند عودته إلى البيرو ، دخل في نزاع مع قائده السابق بيثارو لخلاف على بعض المناصب . وقد قبض عليه أنصار بيثارو وأعدموه .

٢ فرانثيسكو بيثارو ، فاتح إسباني (١٤٧٥ ؟-١٥٤١) . انتقل إلى أميركا سنة ١٥٠٢ برفقة بالبوا . وفي عام ١٥٢٤ اتفق مع الماغرو ولوقا على غزو البيرو ، وفشلوا في حملتين متتاليتين . ولكن بيثارو تمكن عام ١٥٣٢ من احتلال مدينة كاخامركا وقتل فيها اتاهوالبا زعيم الإنكا . وقد ثار ابن ألماغرو على بيثارو وقتله في ليما سنة ١٥٤١ .

٣ هيرناندو دي لوقا ، رجل دين إسباني ، شارك مع بيثارو وألماغرو في غزو البيرو . توفي سنة ١٥٣٢ .

ذهب الإمبراطورية البعيدة يجذبهم
مثلما يجذب القمر الحجارة الملعونة.
وعندما عقدوا حلفهم، رفع لوقا
القربان إلى المذبح،
وعجن اللصوص الثلاثة خبزهم المقدس بابتسامة قبيحة،
ثم رفع الكاهن يديه:
«لقد تم اقتسام الرب، أيها الإخوان،
فيما بيننا»، وردد القاتلان
صاحبا الأسنان البنفسجية:
- «آمين».
ضربوا على الطاولة وبصقوا.
ولأنهم ما كانوا يعرفون الكتابة
طمسوا بعلامات الصليب الطاولة،
والورق، والمقاعد، والجدران.
بيرو القاتمة، المغمورة،
كان مُؤشراً عليها بصلبان صغيرة سوداء،
الصلبان السوداء خرجت
مبحرة صوب الجنوب:
صلبان للموت،
صلبان كثيفة الشعر
صلبان لها خطافات زَحّافة،
صلبان ملطخة بالبثور،
صلبان كأقدام العناكب،
صلبان صيد مكفهرة.

XIV
سكرات الموت

في كاخاماركا[1] ابتدأ القتل.

«أتاهوالبا»[2] الشاب، المئبر الأزرق،
الشجرة الشهيرة، استَمَعَ إلى الريح
وهي تحمل قعقعة السيوف.
ورأى اختلاط البريق،
والاضطراب على الشاطئ،
ووقْعَ جياد كثيرة
- حوافر جياد وسطوة -
حديد وحديد بين الأعشاب.
ووصل المتقدمون.
فخرج «الإنكا» من الرقص
محاطاً بالأسياد.

الزائرون
القادمون من كوكب آخر، كانوا متعرقين وملتحين،
فأراد أن يقدم إليهم شعائر الاحترام.

---

1 كاخاماركا، مدينة في البيرو. اقترف فيها جنود الفاتح الإسباني بيثارو مجزرة فظيعة، وألقوا القبض على ملك الإنكا الأخير أتاهوالبا.

2 أتاهوالبا، آخر ملوك الإنكا، إمبراطور البيرو (١٥٠٠ـ ١٥٣٢)، ابن غير شرعي للملك هواينا كاباك. ورث مملكة كيتو، وقاتل ضد أخيه وخصمه هواسكار ليبسط سيطرته على مملكة الإنكا كلها. اعتقله الإسبان عند فتح البيرو، وحوكم وأعدم بأمر من الفاتح الإسباني بيثارو في كاخاماركا.

لكن القسّ «بالبيردي»:
القلب الخؤون، ابن آوى المتعفن،
قدم له شيئاً غريباً،
قطعة من قفاز،
أو ربما ثمرة
من ثمار الكوكب البعيد
الذي أتت منه الجياد.
فأخذها «أتاهوالبا». ولم يكن ليدري ما هي:
لا بريق فيها، لا صوت لها،
ثم - مبتسماً - تركها تسقط.[1]

« - الموت،
الثأر، اقتلوهم وسأغفرُ لكم»،
هكذا صرخ الثعلب ذو الصليب القاتل.
ووصل الصدى إلى اللصوص.
فهُدر دمنا في مهاده.
والتف الأمراء في كورال
حول ابن الانكا، في ساعة احتضاره.

عشرة آلاف من أبناء البيرو سقطوا
صرعى تحت الصلبان والسيوف،
وضرج الدم ملابس أتاهوالبا.

---

١ تقول الواقعة التاريخية أن أتاهوالبا خرج في موكب مهيب لاستقبال "ضيوفه" الغرباء. وقد قدم له قس إسباني نسخة من الكتاب المقدس، فتأملها أتاهوالبا قليلاً ثم أفلتها فسقطت على الأرض. وقد اعتبر الإسبان تلك الحركة ازدراء لمعتقداتهم، فتذرعوا بها ليعملوا السيوف تقتيلاً في مستقبليهم.

و«بيثارو»، خنزير اكستريمادورا القاسي
أوثق الأذرع النحيلة
أذرع «الإنكا».
وخيم الليل على البيرو
مثل جمرة سوداء.

XV
الخط الأحمر

فيما بعد رفع العاهل
يده المنهوكة، وتلمس الجدران
فوق جباه اللصوص.
هناك خطوا
الخط الأحمر.
ثلاث حجرات
كان عليهم أن يملؤوها بالذهب والفضة[1]،
حتى ذلك الخط الأحمر من دمهم.
ودارت عجلة الذهب ليلة بعد ليلة.
وعجلة الآلام نهاراً وليلاً.

شقوا الأرض، واستولوا على الحليّ
التي شُغلت بحُبّ ودقة،

[1] الإشارة هنا إلى الواقعة التاريخية التي سبقت إعدام أتاهوالبا، عندما طلب الإسبان فدية مقابل الإفراج عنه، وكان ما طلبوه ملء حجرة بالذهب، فبدأ شعب الإنكا يجمع ما لديه من الحلي إلى أن لم يبقَ هناك شيء منها، وعندئذ تنكر بيثارو لوعده وأمر بإعدام أتاهوالبا.

انتزعوا خلخال العروس،
وهجروا آلهتهم:
الفلاح سلّم ميداليته،
والصّياد سلّم قطرته الذهبية،
وارتجفت القضبان مستجيبة
للنداء وللصوت الآتي من الأعالي
بينما استمرت عجلة الذهب في دورانها.
عندئذ اجتمع نمر ونمر
واقتسما الدم والدموع فيما بينهما.

«أتاهوالبا» كان ينتظر بكآبة
في نهار المنحدر الأنديزي الوعر.
لم يفتحوا الأبواب إلى أن اقتسموا
آخر مجوهرة:
فيروز الطقوس، مضرجاً كان
من المجزرة، والرداء الموشى
بالفضة.
أظفار اللصوص
كانت تقتسم بالقسطاس كل شيء،
بينما قهقهات القسّ
بين الجلادين،
تصل إلى مسامع العاهل الكئيب.
كان قلبه كأساً طافحة
بكآبة مرّة كمرارة
روح الكينا.

وفكر بحدوده، بعاصمته «كوسكو»[1]
بالأميرات، بحياته،
وبقشعريرة مملكته.
كان كل ما في داخله صلابة.
وسلامه اليائس
كان حزناً. وفكّر:
أيكون أخوه «هواسكار»[2]
هو الذي بعث بهؤلاء الغرباء؟
كل شيء كان أحجية، وكل شيء كان مُدْيَة،
وكل شيء كان جنداً،
الخط الأحمر الحي وحده
كان ينبض،
مبتلعاً الأحشاء الصفراء
للمملكة الصامتة المحتضرة.

ودخل «بالبيردي» مع الموت عندئذ.
«سيكون اسمك خوان» قال له
بينما كانوا يُعَدون المحرقة.
وردّ أتاهوالبا بحشرجة: «خوان،
خوان هو اسمي للموت»
دون أن يفهم حتى ما هو الموت.

---

١ كوسكو أو كوثكو ، مدينة في البيرو ، أسسها الملك مانكو . كاباك في القرن الحادي عشر . وكانت عاصمة إمبراطورية الإنكا عند الغزو الإسباني .

٢ هواسكار : أحد زعماء الإنكا ، قُتل سنة ١٥٣٢ . وهو ابن هواينا . كاباك ، وعنه ورث ملك كوسكو سنة ١٥٢٥ ، نشب نزاع بينه وبين أخيه أتاهوالبا الذي هزمه وأمر بقتله .

عصبوا عنقه
فدخل خطاف في الروح

في روح البيرو.

XVI
مرثاة

وحدي في العزلات
أريد أن أبكي كالأنهار،
أريد أن أتجهّم، أن أنام
مثل ليلك المعدني القديم.

لماذا وصلت المفاتيحُ المتألّقة
إلى يدي اللص؟
انهض يا «اويو» الأمومي، وأرح سرّك
في التعب الطويل هذا الليل
وألقِ بحكمتك في عروقي.
إنني لا أطالبك حتى بشمس "يوبانكيس"
إني أُخاطبك نائماً، منادياً
من أرضٍ لأرَض،
أيتها الأم البيرويّة،
يا رحم سلسلة الجبال.
كيف دخل إلى سورك الرملي

وابلُ المُدى؟

وأنا ساكنٌ بين يديك
أحسُّ بامتداد المعادن
في قنوات باطن الأرض.
إني مصنوع من جذورك،
لكنني لا أعلم،
فالأرض لا تسلمني حكمتها،
ولا أرى سوى ليل وليل
تحت التراب المتألق.
أيُّ حلم بلا معنى، حلم أفعى،
زحفَ حتى الخط الأحمر؟
آه يا عين الحداد، أيتها النبتة الضبابية.
كيفَ وصلتَ إلى ريح الخَلّ هذه
وكيف لم يرفع "كاباك"
عمامته التي من طين لامع
من بين صخور الغضب؟

دعني تحت الخيام
أقاسي وأُغُص
مثل جذر ميت لا بريق فيه.
وتحت صلابة الليل القاسي
سأنزل في الأرض حتى أبلغ
فم الذهب.

أريد أن أتمدَّد فوق الحجَر الليلي.

أريد الوصول إلى هناك
مع التعاسة.

XVII

الحروب

بعد ساعة الغرانيت
أتى لهيب حارق.
الماغريّون، وبيثاريّون، وبيلترانيون[1]
تطاعنوا بالخناجر متقاسمين الخيانات التي اقتنوها،
لقد سرقوا المرأة والذهب،
تنازعوا السُلطة
فصاروا يشنقون بعضهم بعضاً في الزرائب،
ويُصفّون بعضهم بعضاً في الساحة،
ويعلقون بعضهم بعضاً في «الكابيلدو»[2]
فهوت شجرة النهب
ما بين الطعنات والأحقاد.
ومن وقع خيول بيثارو
في حقول الكتّان الأرضية
وُلد صمت ذاهل.

---

١ فئات منسوبة إلى أسماء قادة الفتوح الإسبانية في أميركا اللاتينية. وقد دارت بين هذه الفئات صراعات دامية وحروب ومؤامرات ومكايد خلال تنافسها على السلطة والثروة.

٢ الكابيلدو: مجلس إداري في مستعمرات أميركا الإسبانية.

كل شيء كان موتاً
وفوق احتضار أبنائه البائسين
وحشرجتهم،
في الحقول (التي قرضتها
الفئران حتى العظم)،
كان يثبتُ أحشاءه
قبل أن يَقتُل أو يُقتَل.
يا جزاري الغضب والمشنقة،
يا مسوخاً منهارة في وحل الجشع،
يا طغاة
خروا صاغرين أمام بريق الذهب،
لقد أفنيتم ذُرِّيتكم
ذات الأظفار الدامية
وإلى جانب الأسوار الصخرية
أسوار مدينة كوسكو الشامخة المتوجة،
أمام شمس أعلى السنابل،
قدَّمتم في رماد الإنكا الذهبي،
مسرحيةَ المستعمرين الجهنميين:
النهب ذو الخطم الأخضر،
الشبق المشحَّم بالدم،
الجشع ذو الأظفار الذهبية،
الخيانة بأنيابها الخسيسة،
الصليب الذي مثل زَحّافة جشعة،
المشنقة على خلفية من الثلج،

والموت الناعم كالهواء

ثابت في دروعه.

XVIII
مكتشفو تشيلي

من الشمال حمل ألماغرو بريقه المشعث.
وعلى الأرض، ما بين فرقعة وغروب،
انحنى ليلاً ونهاراً وكأنه ينحني على رسالة.
كظلٍّ أشواك، كظلٍّ حَراشِف وشمع،
كان الإسباني متحداً مع صورته الجافة،
ينظرُ إلى استراتيجيات الأرض المكفهرة.
ليلٌ وثلجٌ ورملٌ تؤلف
شكل وطني النحيل.
الصمت كله في امتداده الطويل،
الزبد كله يخرج من لحيته البحرية،
الفحم كله يغمره بقُبلات سرّيّة.
وكأن جمرة من ذهب تتقد بين أصابعه
والفضة تضيء مثل قمر أخضر
شكله القاسي ككوكب كئيب.

الإسباني الذي كان قابعاً في يوم سابق إلى جانب الزهرة،
إلى جانب الزيت، إلى جانب النبيذ والسماء القديمة،
لم يتخيل هذا الطرف من الحجارة الغاضبة

التي تولد تحت رَوْث النسور البحرية.

XIX
الأرض المقاتلة

الأرض قاومت أولاً.

الثلج الأراوكانيّ أحرق خطوات الغزاة
مثل محرقة من بياض.
وتساقطت من البرد أصابع «ألماغرو»
وكفّاه وقدماه،
والمخالب التي نهشت
ودفنت ملوكاً
أصبحت، في الثلج، نقطة
من لحم متجمد، أصبحت صمتاً.
كان هذا في خضم السلاسل الجبلية.

الريح التشيلية صفعتهم
مُخلّفة عليهم آثار نجوم،
وملقية
بالجشع والخيول أرضاً.

ثم سار الجوع في أثرهم
وراء الماغرو،
سار خلفهم مثل فكٍّ

خفي قارض.
الجياد أكلتْ
في تلك الحفلة الجليدية.
والموت الجنوبي بعثر
خبب جياد ألماغرو،
إلى أن عاد جواده
نحو البيرو، حيث كان الموت الشمالي،
متربصاً في الطريق،
وفي يده فأس،
بانتظار المكتشف المتقهقر.

XX

الأرض والإنسان يتحدان

إيه يا أراوكانيا، يا حزمة سنديان دافق،
أيها الوطنُ القاسي،
يا حبيبة بائسة
منعزلة في مملكتك الماطرة:
لم تكنْ سوى حناجر معدنية،
وأكفَ من جليد، وقبضات
اعتادت قطع الصخور،
كنتَ، أيها الوطن، سلام الصلابة
وكان رجالك جَلبَة،
كانوا أطيافاً لاذعة، ريحاً هوجاءَ.

لم تكن لآبائي الأراوكانيين
خوذ ريش لَماع،
ولم يستريحوا على أزهار الأعراس،
ولم يغزلوا الذهب للكاهن:
كانوا حجراً وشجراً،
وجذور غابات منتفضة،
كانوا أوراقاً لها شكلِ الرمح،
وأسنّة من معدنٍ حربيّ.
أيها الآباء، ما كادت مسامعكم تصغي
إلى وقعِ حوافر الجياد،
حتى مرّت فوق قمّة الجبال،
صاعقة أراوكانيا.
وأصبح آباء الحجر أشباحاً،
التحموا بالغابة، وبالظلمات الطبيعية،
صاروا ضوء الجليد،
حموضة أرضٍ وأشواك،
وهكذا انتظروا في الأعماق،
أعماق العزلة الجامحة:
أحدهم كان شجرة حمراء تتطلّع،
وآخر قطعة معدن تصغي،
وآخر رشقة ريحٍ ومثقب،
وآخر كان بلونِ الطَريق.
أيها الوطن، يا مركباً ثلجياً،
يا أوراقاً متصلبة:
هنا وُلدتَ، عندما طلبَ إنسانُكَ..

رأيته من الأرض،
وعندما الأرض، والهواء، والحجر، والمطر،
الورق، الجذور، العطر، العواء،
غطّت جميعها ابنكَ،
أحبّتهُ كلها، ودافعت عنه.
هكذا وُلدَ الوطن الإجماعي:
فكان وحدةً قبل القتال.

XXI
بالديبيا

ولكنهم عادوا
(كان اسمه بيدرو.)
بالديبيا[1]، القائد الدخيل،
قطّع وطني بسيفه
ووزعه على اللصوص: «هذا الجزء لك،
هذا لك يا فالديس، وأنت يا مونتيرو،
وهذا الجزء لك يا إنيس، وهذا الموضع
هو الكابيلدو»[2]
لقد اقتسموا وطني

---

١ بيدرو دي بالديبيا : فاتح إسباني (١٥٠٠-١٥٥٤). قاتل في فنزويلا ثم في البيرو تحت إمرة بيثارو . وبقيادته تم غزو تشيلي حيث أسس مدينة سنتاغو سنة ١٥٤١ ، وعُين قائداً وحاكماً لهذه المقاطعة . ارتكب عدة مجازر فظيعة ضد الهنود في اراوكو . ولقي مقاومة شديدة من الاراوكانيين في جنوب تشيلي . وفي إحدى معاركه مع الهنود الذين يقودهم الاراوكاني "لاوتارو" ، هُزم ووقع في الأسر . ويقال إن الهنود بتروا ذراعيه وأكلوهما أمامه . وقد عاش بعدها ثلاثة أيام قبل أن يموت .

٢ الكابيلدو ، مجلس إداري في مستعمرات أميركا الإسبانية .

وكأنه جحش ميت.
«خذ
هذا الجزء من القمر والغابة،
وابتلع هذا النهر مع الشفق»،
بينما كانت سلسلة الجبال الكبرى
تنتصب برونزاً وبياضاً.
وأطلّت «أراوكو»: طوباً، أبراجاً،
شوارع..
وانتصب الصمت سيد البيت باسماً.
وعملت اراوكو بأيديها الملوثة بمياهها ووحولها،
وأحضرت صلصالها وسكبت ماءها الأنديزي
ولكنها لم تُطِقْ أن تكون مُستعبَدة.
عندئذ، هاجم بالديبيا الجلادُ
بالنار والموت. وهكذا بدأ الدم،
دم ثلاثة قرون، الدم المحيطي،
الدم السديمي الذي غمر تراب بلادي
والزمن الفسيح، كما لم يحدث في أية حرب أخرى.
خرج النَسْر النزق
من دروع الحداد السوداء
وعض الـ «بروماوكا»، ومزق
التحالف المكتوب في صمت "هويلين"،
في الهواء الأنديزي.
وبدأت أراوكو تطهو طعامها
الذي هو من دم وحجارة.

سبعة أمراء
أتوا ليفاوضوا،
فسُجنوا جميعهم.
وأمام عيون أراوكانيا،
قطعوا رؤوس هؤلاء الزعماء.
الجلادون أرادوا إثارة الحماسة
ثَبّت، إنيبس دس سواريث، الجندي النذل،
الأعناق الملكية،
المختلطة بالأحشاء والعواء،
بين ركبتيه الممسوختين الجهنميتين.
ألقى بالرؤوس من فوق الأسوار،
واستحم بالدم النبيل،
وغطى نفسه بالوحل القرمزي.
ظنوا أنهم بهذا سيُخضِعون أراوكو.
ولكن الذهول المتحد هنا،
الذي جمع بين الشجر والحجر،
بين الرمح والوجه،
بعث الجريمة مع الريح.
فعرفت بها أشجار الحدود،
والصياد، والملك، والساحر،
وعرف بها فلاح أقاصي الجنوب الجليدي،
وعرفتها كذلك المياه الأم،
مياه نهر بيو - بيو.
وهكذا وُلدت الحرب الوطنية.

دخل بالديبيا ورمحه يقطر
إلى أعماق أراوكو الصخرية،
وغرز يده في القلب،
ضغط بأصابعه على الخافق الأراوكيّ،
وأراق ما في العروق البرية،
عروق الفلاحين،
وأباد
الفجر الرعوي،
وحمل العذاب
إلى مملكة الغابة: أحرق
بيت صاحب الغابة،
قطع يديْ شيخ القبيلة،
وأعاد الأسرى
وقد جدَع أنوفهم وصلم آذانهم،
وخَوْزَق «توكي»،
واغتال الصبية المحاربة
وبقفازه الملطخ بالدم
علَّمَ على حجارة الوطن،
الذي ملأه بالقتلى،
والعزلة والقروح.

XXII

إرثيا

حجارة أراوكو والورود النهرية

الطليقة، وممالك الجذور،
هبت للقاء الإنسان القادم من إسبانيا.
بالأشنة المادرة، وأغارت على دروعه.
ونكست ظلال السَرْخَس سيفه.
وحطَ اللبلاب الأصلي بأيديه الزرقاء
في صمت الكواكب الآتي لتوه.
أيها الإنسان، يا «إرثيا»[1] الصداح،
ها أنا ذا أسمع نبض الماء
في فجرك الأول،
وهيجان العصافير والصاعقة بين أوراق الشجر.
فاترك، اترك آثار أقدامك
كنسر أشقر،
ومزق خدك بالذُرة البرية،
كل شيء في الأرض سيُنهش.
أيها الصداح، أنت وحدك فقط
لم تشرب كأس الدم، أيها الصداح،
البرق الخاطف الذي وُلد منك أنت فقط
سيصل إلى فم الزمان السرّي، بلا جدوى
ليقول لك: بلا جدوى.
بلا جدوى، بلا جدوى
الدم النازف على أغصان البلّور الملطخة،

---

١ ألونسو دي إرثيا : شاعر ومحارب إسباني (١٥٣٣-١٥٩٤) ذهب إلى تشيلي، وعاش هناك منذ ١٥٥٦ حتى ١٥٦٢ . وقد كتب قصيدة ملحمية رائعة يتغنى فيها بتاريخ الهنود الأراوكانيين ومآثرهم . عنوان ملحمته (الأراوكانية) وقد نشرت في ثلاثة مجلدات وعلى ثلاث مراحل : المرحلة الأولى نشرت عام ١٥٦٩ ، والثانية عام ١٥٧٨ ، والثالثة عام ١٥٩٠ .

وبلا جدوى خطوة الجندي المتحدية
عبر ليالي «البُوما»،
والأوامر،
وخطوات
الجريح.
كل شيء يعود إلى الصمت المكلل بالرياش
حيث يلتهم اللبلابُ المتسلق ملكاً بعيداً.

XXIII

يدفنون الرماح

هكذا اقتسموا الميراث.
الدمُ جَزّأَ الوطن كله.
(وسأروي في سطور آتية
عن نضال شعبي.)
وبعد أن اقتُسم الوطن
بالمُدَى الغازية،
أتى
مرابون من «أوسكادي»، وأحفاد
«ليولا»، لاستيطان الإرث.
وبين سلسلة الجبال والمحيط
اقتسموا بالأشجار والأجساد،
ظِلُّ الكوكب المائل.
وقامت مستوطنات المستعمرين على الأرض

المرتعشة الجريح المحروقة،
وجرى اقتسام الماء والغابات
للجيوب. ووصل «آل إراثويث»
رافعين شعارهم المسلح:
سوط ونعل.

XXIV

قلب ماجلان (١٥١٩)

من أين أنا؟، أتساءلُ أحياناً، من أي جحيم
أتيت؟ في أي يوم نحن؟ ماذا جرى؟،
أشخرُ، في غرفة النوم، وسط شجرة، في عز الليل،
وترتفعُ موجةٌ مثل جفن،
يُولد منها نهار، وبرقٌ بمخطم نمر.

أستيقظ في الليل مفكراً بالجنوب الأقصى

يأتي النهار، ويسألني: «أتسمع
وقعَ المياه البطيئة، المياه،
المياه،
فوق باتاغونيا؟»
وأجيبُ: «أجل يا سيدي، أسمعُ.»
يأتي النهار، ويقول لي: «ثمة نعجة بريّةٌ،
بعيداً، في المنطقة، تلحسُ لونَ حجرٍ جليدي.
على الريح الجنوبية الزرقاء التي تحملُ

القمر كأساً في يديها.
ألا ترى الفيلق،
إصبع الريح الحقود
يلامس الموجةَ والحياةَ بخاتمه الخاوي؟».

وأتذكّرُ عزلةَ المضيق

الليل الطويل وشجرة الصنوبر، يمضيان حيث أمضي.
وينقلب الحامضُ الأصمُ، والتعبُ،
وغطاء البرميل، وكل ما أملكُ في الحياة.
ثمة قطرةُ ثلج تبكي وتبكي عند بابي
مُظهرةً رداءَها الوضّاء
ومُحرِقةً مُذنِباً يبحثُ عنّي ويشهق.
لا أحد ينظرُ إلى العاصفة، إلى المدى،
إلى عواء الفضاء في المروج.
وأقتربُ، وأقولُ: لنذهب.
ألامسُ الجنوب، أصُبُّ في الرمل،
أرى النبتةَ اليابسة السوداء، وكل جذر وصخر،
الجزر التي يسفعها الماء والسماء،
نهر الجوع، وقلب الرماد،
وبهو البحر المفجع، حيثُ يحفر الأرضَ
آخر ثعلب مجروح، ويخبّئ كنزه الدامي:
وأجدُ العاصفة، وصوت تمزّقها،
صوتها الذي مثل صوت كتاب عتيق، لفمهِ ألف شفة،
يقول لي شيئاً،
شيئاً يفترسهُ الهواءُ كل يوم.

المكتشفون يظهرون، ولا يبقى منهم شيء

يذكرُ الماء كل ما جرى للسفينة.
والأرضُ الغريبةُ الصلبةُ احتفظتْ بجماجمهم
التي تصفرُ في الرعب الجنوبي مثل أبواق
وعيون رجلٍ وثورٍ تقدّمُ إلى النهار فَراغها،
تقدّم حَلقتها، رنينها ذا الخطِّ العنيد.
والسماءُ العتيقةُ تبحث عن الشراع،
لا أحد
لا أحد على قيد الحياة: فالمركبُ المحطّم
يعيشُ مع رماد النوتي المرّ،
ومن مكامن الذهب، من بيوت الجلد
من القمح الوبائي، ومن
لهب الإبحار البارد
(يا للضجة في الليل [الصخر والسفينة]في الأعماق)
لم تبقَ سوى البلاد المحروقة، بلا جثث،
وتقلُّب جوٍّ دائم، يكاد أن يكون مجروحاً
بقطعة سوداء
من نارٍ خامدة.

الكآبة وحدها تفرضُ ذاتها

يا كرةً دمَّرها الليلُ، والماء، والجليد ببطء،
يا امتداداً قَاتَلَهُ الزمنُ والأجل،
بطابعه البنفسجي، باللون الأزرق الأخير
من قوسِ قزحٍ البري.
إن قَدَمَي وطني مغمورتان بظلك

والوردةُ المسحوقةُ تصيحُ وتحتضر.

أتذكرُ المكتشف العجوز

معهُ، مع العجوز، مع الميتِ،
تبحرُ في القنال من جديد
غلال الحبوب المجلَّدةُ، ولحيةُ القتال،
والخريفُ الجليدي، والعابر الجريح.
مع ذاك الذي خَلَعتهُ المياه المسعورة،
معه، في اضطرابه، وجبهته.
ما زال طائر البطريق يتبعه،
وأنشوطةُ الجلد المقروض، بعيون لا نَظَرَ فيها،
والجرذُ يقضم وهو ينظر، ولا يرى،
ينظرُ خلال العصيِّ المكسورة
إلى الإشراق الغضوب،
بينما الخاتَمُ والعظمُ
يسقطان في الفراغ،
ويزحفان فوق البقرة البحرية.

ماجلان

مَنْ الإلهُ الذي يمرّ؟
انظر إلى لحيته الممتلئة بالدود وسرواله،
في الجو الكثيف يلتصق ويعض مثل كلبٍ غريق:
ولقامته الملعونة وزنُ مرساة،
والبحرُ يصفِّرُ، والنسيمُ يهرعُ
إلى قدميه المبلّلتين.

يا حلزون الظلِّ
ظلّ الزمن القاتم،
يا مهمازاً مشوشاً،
يا سيّد الحداد الساحلي العجوز،
يا مُدّجن النسور الذي لا سَلَفَ له،
أيها النبعُ الملوث،
إن رَوْث المضيق يهيمن عليك،
وليس لصدرك صليب، بل صرخة بحرية،
صرخة بيضاء من ضوء بحري،
صرخة كمّاشة، صرخة دَويّ في دَويّ
صرخة إبرة مُهدّمة.

وصلَ إلى المحيط الهادي

لأن نهار البحر المشؤوم سينتهي يوماً
ولأن اليدَ الليلية تقطعُ أصابعها واحدةً فواحدة
حتى يزول كيانها، حتى يولَدَ الإنسانُ
ويكتشفَ الفولاذ فيه الربّان
وترتفع أميركا على فقاعتها
وينصبَ الشاطئُ رصيفَه الشاحب
الملوث بالفجر، المضطرب بالولادة
حتى تخرجَ صرخةٌ من السفينة وتغرق
وتخرجَ صرخةٌ أخرى، ويولد الفجر من الزبد.

ماتوا جميعاً

يا إخوان الماءِ والقمل، إخوان الكوكب الكاسر:

أرأيتم أخيراً شجرة الصاري
التي أحنتها الزوبعة؟
أرأيتم الحجر المسحوق
تحت الثلج المجنون،
ثلج العصفة المباغتة
ها أنتم تملكون أخَيراً فردوسكم المفقود،
ها أنتم تملكون أخيراً حراستكم المتذمِّرة
وأخيراً أشباحَكم الشفافة في الفضاء
تُقَبّلُ فوق الرمل أثرَ الفُقمة.
أخيراً تصلُ إلى أصابعكم التي بلا خواتم
شمسُ الصحراء الصغيرةُ،
والنهارُ يموتُ مرتجفاً
في مشفى الأمواج والأحجار.

XXV

برغم الغضب

ضجيج خُوذ، وحوافر ميتة.

ولكن عبر النار والحافر
ومثل نبع ساطع
من الدماء الذاهلة،
والحديد المغروس في الألم
انسكبَ ضوءُ على الأرضِ:

رقمٌ، اسمٌ، خطٌّ وشكل.

صفحات ماء،
حفيف لغاتٍ صافية متينة،
قطرات حلوةٍ مشغولة كالعناقيد،
مقاطع بلاتين
برقّة نهودٍ لؤلؤية نقية،
وفَمُ ماسٍ كلاسيكيّ
منح الأرضَ بريقه الثلجي.
هناك بعيداً، خلعَ التمثال
مرمرهُ الميت،
وفي ربيع العالم
أشرقتْ المُعَدَات الآليّة.
ورفعت التقنيّة سطوتها
وصار الزمن سرعةً وزوبعة
في راية التجار.

قمرُ الجيولوجيا
الذي اكتشف العشبة والكوكب
أفرد الروائع المتناسقة
في حركة تطوره.
آسية أسلمت أريجها البكر.
وأتى الذكاء بخيط جليدي
من وراء الدم، لينسج النهار.
والورق وزعَ الشّهد العاري

المحفوظ في الغياهب.
وطيران حمائم
خرج من الرسم
مع تورّد الغيوم وازرقاق البحر.

الفصل الرابع

المُحَرِّرون

المُحَرَّرُون

هي ذي الشجرة، شجرة
الإعصار، شجرة الشعب.
من الأرض يصعد أبطالها
مثلما تصعد الأوراق من النسغ،
ومثلما تُهشّم الريح الأوراقَ
تهشيماً متعدداً مدوياً،
إلى أن تسقط بذرةُ الخبزِ
في التراب من جديد.

هي ذي الشجرة، الشجرة
المغتذية بأموات عراة،
بأموات جرحى ومجلودين،
أموات ذوي وجوه مستحيلة،
رُفعوا على سنان رمحٍ،
وتلووا في الأتون،
ضُربت أعناقهم بالفأس،
مَزقتهم الجياد،
أو صُلبوا في الكنيسة.

هي ذي الشجرة، شجرة
الجذور الحية،
التي امتصت الأملاح من الشهيد،
وعبت جذورها الدماءَ،
واستخرجت دموعاً من التراب:
ثم رَفَعتها في غصونها،
لتوزعها في بنيانها
فكانت أزهاراً خفية أحياناً،
أزهاراً مدفونة،
وفي أحيان أخرى كانت تُويجاتها
تضيءُ مثل الشهب.

ولملمَ الإنسان عن الغصون
تويجاتها اليابسة
وتناقلها من كف إلى كف
مثل المانوليا، أو الرمان.
وفجأة، شَقت الأرض
ونبتت مشرئبة حتى النجوم.

إنها شجرة الأحرار.
الشجرة الأرض، الشجرة الغيم،
الشجرة الخبز، الشجرة السهم،
الشجرة القبضة، الشجرة النار.
تُغرقها المياه المائجة،
مياه عصرنا الليلي،

لكن صاريها يتأرجع راسماً
ميدان سلطتها.

وأحياناً أخرى، تسقط من جديد
الأغصان التي سحقها الغضب،
ويغطي جلالها القديم
رماد متوعد.
هكذا عبرتْ من أزمنة أخرى،
هكذا خرجتْ من الاحتضار،
إلى أن أتت يدٌ سرّيّة،
وسواعد لا عد لها،
سواعد الشعب، فحفظت أجزاءها
وخبأت جذوعها الراسخة.
وكانت شفاه الشعب
هي أوراقَ الشجرة الضخمة المقسمة،
المبعثرة في كل الأنحاء،
السائرة بجذورها.
هذه هي الشجرة، شجرة الشعب
وشجرة كل الشعوب
شجرة الحرية، والنضال.

انظرْ إلى ضفائرها:
لامسْ أشعتها المتجددة:
اغرز كفك في المعامل
حيث ثمرتها النابضة

تنشرُ نورها كل يوم.
ارفع براحتيك هذه الأرض،
وشارك في هذا الألق،
خذْ خبزك وتفاحك،
خذْ قلبك وجوادك
وانطلق للحراسة على الحدود ،
على حدود أوراقها.

دافع عن هدف تُويجاتها ،
بَدِّد الليالي المعاديَة،
واحرس دورةَ الفجر
وتنسم الأعالي المتألقة بالنجوم،
حامياً الشجرة، هذه الشجرة
التي تشمخ في وسط الأرض.

I
كواوتيموك[١] (١٥٢٠)

أيها الأخ الفتيّ
يا من لم تنم منذ أزمان وأزمان

١ كواوتيموك : (١٤٥٩ ؟ .١٥٢٥) آخر ملوك الأستيك . بالرغم من دفاعه البطولي عن المكسيك أمام الفاتح الإسباني هيرنان كورتس ، فقد هُزم ووقع في الأسر ، وتعرض لتعذيب وحشي لأنه رفض الاعتراف بمخبأ الكنوز الملكية . قاوم التعذيب بالنار بصمود عجيب ، وبقي في الأسر ثلاث سنوات ، أعدم بعدها بأمر من كورتس .

ولم تجد العزاء قطّ،
أيها الشاب المنتفض في دياجير
المكسيك المعدنية، من يدك
أتلقى هبة وطنك العاري.

وفيه تولُد ابتسامتك وتنمو
مثل خط فاصل بين النور والذهب.

شفتاك الملتحمتان بالموت
أطهر صمت مدفون.

إنهما النبع الغارق
تحت أفواه الأرض جميعاً.

أُسمعتَ، أسمعتَ،
هناك في «انهواك»[1] البعيدة
همس ماء، وريح
ربيع مُدَمَّر؟
ربما كانت كلمة أشجار الأرز،
أو موجة بيضاء من «أكابولكو»[2]

لكن قلبك يفر في الليل

---

١ أنهواك : اسم قديم كان يطلق على المكسيك ، موطن هنود الأستيك (الاتتيك)
٢ اكابولكو : أحد شواطئ المكسيك الجميلة .

كغزال
نحو التخوم، مضطرباً،
بين النصب الدامية،
وتحت القمر القَلِق.

الظلّ كله كان يهيئ ظلاً.
والأرض كانت موقداً قاتماً،
حجراً وحلّة، بخاراً أسود،
جداراً بلا اسم، كآبة
تناديك من المعادن الليلية
معادن وطنك.

ولكن لا ظلّ في رايتك.
لقد أزفت الساعة الموعودة،
فكنتَ وسط شعبك
خبزاً وجذراً، رمحاً ونجماً.
الغازي أوقف مسيرته.
فليس هذا «موكتيزوما»[1] المتوفى
مثل كوب ميت،
وإنما هو البرق، وسلاحه
ريشة «كيتزال»[1]، زهرة الشعب،
ناصية الريش المشتعلة بين السفن.

---

١ موكتيزوما: (١٤٦٦. ١٥٢٠) إمبراطور أستيكي. خلف عمه أهويثولت في الحكم سنة ١٥٠٢، خاض عدة حروب ضد جيرانه وحاول غزو تلاكسكالا. وعند وصول الفاتح الإسباني كورتس عام ١٥١٩ وضع حداً لسلطاته، إذ أنه استسلم دون مقاومة للغزاة الإسبان. وقد قتل على يد أتباعه الذين رفضوا استسلامه.

ولكن يداً قاسية مثل عصور حجرية
ضغطت على حنجرتك.
لم يغلقوا ابتسامتك،
لم يُسقطوا الحبوب من الذرة السرية،
وسحلوكَ،
أيها الأسير المنتصر،
عبر أبعاد مملكتك،
بين الشلالات والسلاسل،
فوق الرمال وإبر الشوك
كنت مثل عمود شامخ،
مثل شاهد مُؤلم، إلى أن أحاطت أنشوطةٌ
بعمود النقاء
وعلقت الجسد ليتأرجح
فوق الأرض المحزونة.

---

١ كيتزال ، أحد آلهة المكسيكيين القدماء ، مرتبط بكوكب الزهرة . يُعتقد أنه كان في البداية شخصية تاريخية ، وأنه علم الشعوب المؤمنة به أعمال الزراعة . وتصنيع المعادن . والفنون . والتقويم . وأسس ديانة تقوم على المحبة . واسمه يعني بلغة المكسيكيين القدماء ، الأفعى ذات الريش أو الأفعى المجنحة .

II

فراي بارتولومي[1]
دي لاس كاساس

يُفكرُ أحدنا ، لدى عودته إلى بيته ،
في الليل ، منهوكاً ،
وسط ضباب أيار البارد ،
بعد خروجه من النقابة (في فتات النضال اليومي ،
والفصل الماطر الذي
يقطر من إفريز السطح ، والنبض الأصمّ للألم المتكاثف)
بهذا الانبعاث المُقنع ،
الخبيث ، المرذول ،
للسجان ، وللسلاسل .
وعندما تصعد الكآبة
حتى مزلاج الباب لتدخل معنا ،
ينبثق ضوء قديم ، ناعم وقاس
مثل معدن ، مثل نجم مدفون .
أيها الأب بارتولومي ، شكراً لهذه الهدية
في منتصف الليل الفج ،
شكراً لأن شعاعك كان عصياً على الهزيمة :

---

١ فراي بارتولومي دي لاس كاساس ، (١٥٦٦.١٤٧٤) مبشر كاثوليكي إسباني ، ولد في إشبيليا . أُطلق عليه لقب رسول جزر الهند ولقب حامي الهنود بسبب دفاعه المستميت عن سكان أميركا الاصليين . فقد ناضل دون هوادة منذ وصوله إلى أميركا عام ١٥٠٢ ضد الممارسات العنيفة التي كان الفاتحون الإسبان يقترفونها في حقّ أهل البلاد . ألف كتاباً بعنوان "قصة تدمير بلاد الهند" وفيه يروي أدق التفاصيل عن مساوئ الغزو الإسباني للعالم الجديد . وكتاباً آخر بعنوان "التاريخ العام لبلاد الهند" .

كان يمكن أن يموت هرساً، أو أن يأكله
الكلب ذو الأنياب النزقة،
كان يمكن أن يبقى في رماد
البيت المحترق،
كان يمكن أن تقطعه السكين الباردة
سكين القتلة الذين لا يُحصون
أو الحقد المغلف بالابتسامات،
(خيانة المصلوب التالي).
أو الكذبة الملقاة من النافذة.
كان يمكن أن يموت الخيط البلّوري،
الكمال الشفاف، المتحول إلى فعل،
إلى نضال
وإلى هاوية شلال فولاذية.
حيوات قليلة مثل حياتك يُعْطى الإنسانُ،
ظلالٌ قليلة مثل ظلك في الأشجار،
جميع الجذوات الحية في القارة
هرعت،
كل المصائر المخربة،
وجراح الأبتر،
والقرى المبادة،
جميعها تولد من جديد تحت ظلك،
فأنت تؤسس للأمل من تخوم الاحتضار.
أيها الأب،
من حسن طالع الإنسان ونوعه
أنك أتيت إلى هذه المزرعة،

وأنك قضمت بأسنانك غِلال الجريمة،
وأنك شربت
كل يوم كأس الغضب.
مَنْ الذي وضعك، أيها الفاني العاري،
بين أنياب الحقد؟
كيف أطلت عيونٌ أخرى،
من معدن آخر، عند ولادتك؟

كيف تنفذ الخميرة وتتغلغل
في الطحين البشري المخبأ
ليُعجن دقيقك الثابت
في خبز العالم؟

كنتَ واقعاً بين أشباح دموية،
كنتَ سرمدية الرقة
فوق عصفة العذاب.
ومن معركة إلى معركة تحول أملك
إلى أسلحة ضرورية:
النضال الفردي أصبح غصناً،
والبكاء غير المجدي اتحد في حزب،
ولم تفد الشفقة شيئاً، فعندما كنت تعرض
وحدتك، وسفينتك المُدافعة،
ويدك التي تُباركُ بها، وعباءتك،
داس العدو الدموعَ
وهشم لون السَوْسن.

ولم يفد شيئاً الحجر المنتصب الفارغ
الذي مثل كاتدرائية مهجورة.
فكان قرارك الذي لا يُهزم:
المقاومة الفعالة،
والقلب المُسلح.

كان الحق هو مادتك الجبارة.
كان بنيانك زهرة منتظمة.
من فوق أرادوا تأملك
(من عليائهم) أراد الغزاة التطلع إليك،
وهم متكئون كأشباح حجرية
على سيوفهم،
يُثقلون أرض مبادرتك ببصاقهم الساخر،
ويقولون: «ها هو ذا المُحرض»،
ويكذبون: «لقد دَفَعَ له
الأجانب»،
«ليس له وطن»، «إنه يخون»،
ولكن موعظتك لم تكن
لحظة ضعف، ولا إرشاداً عابراً،
ولا ساعة مسافر.
لقد كان خشبك غابة مقاتلة،
حديداً في داليته الطبيعية، مختفياً عن كل ضوء
تحت الأرض المزهرة،
بل كان أعمق من ذلك:
في وحدة الزمن،

في مسيرة الحياة، كانت يدك المتقدمة
نجمة من أبراج السماء، شارة للشعب.

ادخلْ معي اليوم، يا أبتاه، إلى هذا البيت.
وسأعرض عليك رسائل شعبي وآلامه،
والإنسان المُطارَد فيه.
سأعرض عليك الآلام القديمة نفسها.

ولكيلا أسقطَ،
لكي أثبّت نفسي على الأرض،
وأستمر في النضال،
دع في قلبي نبيذ التشرد
وخبز عذوبتك الذي لا يستكين.

III

الزحف في أراضي تشيلي

وصلت إسبانيا إلى أقصى جنوب العالم،
والإسبان المتعجرفون اكتشفوا الثلج وهم يتذمرون.
بيو - بيو، النهر الوقور،
قال لإسبانيا: «توقفي»،
غابة أشجار المايتنز التي تتدلى خيوطها الخضراء
مثل رعشة المطر
قالت لإسبانيا: «لا تستمري»،
والسرو مارد الحدود الصامتة،

قال كلمته الراعدة.
ولكن الفاتح،
بالقبضة والمدية، وصل حتى أعماق وطني.
وإلى نهر «امبريال» الذي على ضفتيه
تفتّح قلبي بين الأعشاب،
دخل الإعصار في الصباح.
كان الجدول العريض،
جدول طيور مالك الحزين، يمضي
من الجزر باتجاه البحر المائج،
مفعماً، مثل كأس لا ينضب،
بين الحواف البلّورية القاتمة.
والطّلع نسج على ضفافه
سجادة من مآبر مضطربة.
ومن البحر أثارَ الهواءُ
مقاطع أغنية الربيع كلها.
شجرة البندق الأراوكانية
كانت ترفع المواقد والعناقيد
حيث ينزلق المطر
على تجمعات الطهارة.
كل شيء كان مختلطاً بالشذا،
مبللاً بنور أخضر ماطر
وكل أيْكَة بلونها المرّ
كانت غصناً عميقاً من الشتاء
أو شكلاً بحرياً غريباً
ما زال مليئاً بالندى الأقيانوسيِّ.

من الوهاد انتصبتْ
أبراجُ العصافير والريش
وريح شديدة صفرت في العزلة،
بينما في الأُلفة المبللة
بين الأعشاب المغضّنة،
أعشاب السَرْخَس العملاقة،
كانت أزهار التوبا - توبا تتفتح
كمسبحة من قُبلات صفراء.

IV

وانبثق الرجال

«التوكيون»[1] كانوا ينبتون.
ومن تلك الرطوبة السوداء،
من ذاك المطر المختمر
في كأس البراكين
خرجت الصدور الجليلة،
والسهام النباتية النقية،
وأسنان الحجارة الوحشية،
وأقدام الهراوات الحازمة،
ووحدة الماء الجليدية.

أراوكو كانت رحماً بارداً،

---

(1) التوكيون ، جمع توكي . وهو لقب كان يُطلق على زعماء الهنود الأراوكانيين .

صِيغَ من جراح،
لاكته الإهانة،
حَبِلَ بين الأشواك الخشنة،
خُدِشَ في نتوءات الجبال،
وحمته الأفاعي.

هكذا استخرجت الأرضُ الإنسانَ.

فنما حصناً.
وُلد من الدماء المغدورة.
وراكم غدائر شعره
مثل أسد «بوما» أحمر صغير
وعيونه التي كانت من حجر قاسٍ
كانت تلتمع في أعماق المادة
كبريق لا يخمد
خارج من مطاردة القنص.

V
توكي كاوبوليكان

وسط فروع خشب الزان السرّية
وعندما سَيِر شعبه نحو
الأسلحة الغازية،
سارت الشجرة،

ترعرع كاوبوليكان[1]، جذعاً وعاصفة،
سارت شجرة الوطن الصلبة.
ورأى الغزاة أوراق الشجر
تتحرك وسط الضباب الأخضر،
وبين الجذوع الثخينة وكسوة الأوراق
وتوعدات لا حصر لها،
رأوا الجذع الأرضي يصبح شعباً،
والجذور تخرج من باطن الأرض.

فعرفوا بأن اللحظة قد أزفت
في ساعة الحياة والموت.
أشجار أخرى أتت معه.
سلالة الأوراق الحمراء كلها،
وكل ضفائر الألم البريّ،
وكل عُقد الحقد التي في الخشب.
وانتصب كاوبوليكان، بوجه من لبلاب،
أمام الغازي التائه:
لم يكن الريشة الإمبراطورية الملونة،
لم يكن عرش نباتات لها ريح طِيب،
لم يكن عقد الكاهن اللامع،
لم يكن القفاز ولا الأمير المذهب،
لقد كان وجه الغابة،

---

١ كاوبوليكان ، زعيم أراوكاني . أعدم سنة ١٥٨٨ . وقد ناضل بضراوة ضد جيوش الغزو الإسباني ، ولكنه هُزم على يد الفاتح غارسيا هورتا دي ميندونا الذي أعدمه . وقد تغنى الشاعر الإسباني إرثيا ببطولات كاوبوليكان ومآثره في ملحمته الشهيرة "الأراوكانية" .

كان قناعاً من الأكاسيا المُخَربة،
كان صورة وجه مزقها المطر،
كان رأساً مغطى باللبلاب.
ومن كاوبوليكان التوكي
كانت النظرة الغامرة،
نظرة العالَم الجبليّ،
نظرة عيون الأرض التي لا تهدأ،
ووجنتا المارد أضحت جدراناً
تسلقتها البروق والجذور.

VI

الحرب الوطنية

أراوكانيا خنقت غناء
الوردة في الدّن، وقطعت
خيوط رداء العروس الفضية.
ونزل «ماتشي» العظيم من موقعه،
وفي الأنهار المبعثرة، في الطين،
وتحت العباءة الخشنة
عباءة الأراوكانيات المحاربات،
ولدت جلبة النواقيس الدفينة
وقفزت أم الحرب
فوق الحجارة الحلوة في الساقية،
وجمعت عائلة الصيادين،

والعريس المزارع قَبِّلَ أحجار المقلاع
قَبْلَ أن يُطيِّرها إلى الجرح.
ووراء وجه «توكي» الغابيِّ
حشدت أراوكو دفاعها:
عيوناً وحراباً، جموعاً
محتشدة بصمت وتوعد،
(جذوعاً لا تبيد)، وأيادٍ
قاتمة متكبرة، وقبضات متحدة.

وراء «توكي» الشامخ، كان الجبل،
وفي الجبل كانت أراوكو الحاشدة.
أراوكو، همسة الماء التائه.
أراوكو، الصمت القاتم.
وكان الرسول يجمع بيده المبتورة
قطرات أراوكو.

أراوكو كانت موجة الحرب
أراوكو، حرائق الليل
كل شيء كان يغلي ويفور
وراء «توكي» الجليل،
وعندما تقدم، أضحوا غماماً،
رمالاً، أدغالاً، أرضاً،
محارق جماعية، أعاصير،
رؤيا فوسفورية لأسود «البوما».

VII
الخازوق

لكن كاوبوليكان وصل إلى العذاب.
ودخل في موت الأشجار البطيء،
مغروساً على حربة التعذيب.

طوتْ أراوكو هجومها الأخضر،
وأحستْ بالقُشعْريرة في الظلال،
غرستْ رأسها في التراب،
وقبعت مع آلامها.

«توكي» كان نائماً في الموت.
جَلَبة حديد كانت تأتي
من المعسكر، وإكليل
من القهقهات الأجنبية،
وهناك في غابات الحزن والحِداد
كان الليل وحده يخفق.
لم يكن الألمَ، ولا نهشَ
البركان المتفتح في الأحشاء،
وإنما كان حلماً من أحلام الغابة فقط،
حلم الشجرة التي تنزف دماً.

في أحشاء وطني
توغلت الحربة القاتلة

مُجرحة الأراضي المقدسة.
نَزَفَ الدم الحارق
من صمت إلى صمت، ونزل
إلى حيث ترقد البذرة
بانتظار الربيع.
عميقاً نزل هذا الدم.
نحو الجذور نزل.
نحو الموتى نزل.
ونحو الذين سيولدون.

VIII

لاوتارو(١٥٥٠)

ولامس الدم طبقة كوارتز.
فنما الصخرُ حيث سقطت القطرة.
وهكذا ولد «لاوتارو» من الأرض.[١]

IX

تربية العاهل

كان «لاوتارو» سهماً نحيلاً.
مرناً وأزرق كان أبونا.

١ لاوتارو ،(١٥٣٥ ؟ ـ١٥٥٧) زعيم اراوكاني ، خاض معارك كثيرة ضد الغزاة الإسبان ، وانتصر سنة ١٥٥٤ على الفاتح الإسباني بيدرو دي بالديبيا الذي يقال إن الهنود الاراوكانيين ومعهم لاوتارو مثلوا به ، وأكلوا أجزاء من جسده . وقد هُزم لاوتارو ولقي حتفه في معركة مع الفاتح فرانثيسكو دي بيياغرا .

حياته الأولى كانت صمتاً فقط.
وصباه كان هيمنة.
وكان شبابه ريحاً موجهة.
لقد أعدّ نفسه مثل رمح طويل.
ودرب أقدامه وسط الشلالات.
ربى رأسه بين الأشواك.
نفذّ اختبارات الغواناكو[١].
عاش في الكهوف الثلجية.
ترصد طعام النسور.
انتزع أسرار الصخور.
أمسك بتويجات النار.
رضع من الربيع البارد.
وشوى نفسه في المضايق الجهنمية.
كان صياداً بين الطيور الجوارح.
واصطبغت يداه بالانتصارات.
قرأ اعتداءات الظلام.
وأسند انهيارات الكبريت.
فأصبح برقاً، نوراً مُباغِتاً.
أخذ بطء الخريف.
وعمل في الحراسات الخفية.
ونام مفترشاً النتوءات الصخرية.
وعرف كيف يوجّه السهام.
وشرب الدم البَرّيّ في الدروب.

---

١ الغواناكو ، نوع من الألبكة .

وانتزع كنز الأمواج.
أصبح تهديداً مسلطاً مثل إله متجهم.
أكل في كل مطبخ في بيوت شعبه.
تعلّم أبجدية البرق.
وتنشّق الرماد المتناثر.
وأحاط قلبه بجلود سوداء.

فك رموز خيط الدخان الحلزوني.
وبنى نفسه من نسيج صَموت.
وصار زيتاً مثل روح الزيتون.
صار بلّوراً شفافاً وقاسياً.
وتعلم ليصبح ريحاً عاصفة.
وقاتل حتى انطفأ الدم فيه.
عندئذ فقط صار جديراً بشعبه.

X

لاوتارو بين الغزاة

دخل إلى بيت «بالديبيا».
ورافقه مثل ضوء.
نام مغطى بالخناجر.
ورأى دمه مهدوراً،
وعيونه مسحوقة،
ونائماً في المذاود
راكم سلطاته.

لم تهتز له شعرة
وهو يراقب التعذيب:
كان ينظر إلى ما وراء الهواء
إلى سلالته المنفرطة.

تَرصدَ خطوات «بالديبيا»
سَمِعَ حلمه الدموي
يكبر في الليل المكفهر
مثل طابور لا يهدأ.
وحزَرَ تلك الأحلام.
كان بإمكانه أن يرفع لِحية
القائد النائم المذهبة،
وأن يقطع الحلم في الحلق،
ولكنه تعلم - وهو يحرس الظلال -
قوانين التوقيت الليلية.

انطلق في النهار مداعباً
الخيول ذات الجلود المبللة
التي مضت عميقاً في وطنه.
وعرف تلك الخيول. مضى مع الآلهة الخُرْسِ.
وعرف الدروع التي تلفها.
وكان شاهداً على المعارك،
وهي تدخل خطوة إثر خطوة
نحو النيران الأراوكانية.

XI

لاوتارو ضد القِنطَور[1]

عندئذ بدأ لاوتارو الهجوم موجة إثر موجة.
نَظمَ الظلال الأراوكانية:
من قبل كان الخنجر القشتالي يدخل
في صميم صدر الكتلة الحمراء.
أما اليوم، فإن المقاتلين مغروسون
تحت كل الأجنحة الغابيّة،
ومن صخرة إلى صخرة،
من مَخاضة في النهر إلى أخرى،
ينظرون من خلال أزهار الكوبيهوي،
يترصدون تحت الصخور.
وعندما أراد «بالديبيا» الرجوع.
كان الوقت قد فات.
وصل لاوتارو متشحاً بالبرق.
وطارد الغازي المغموم.
وشق طريقه بين التشابكات الرطبة،
تشابكات الشفق الجنوبي.
لقد وصل لاوتارو،
على وقع حوافر جياده الأسود
كان بالديبيا يفكر، بينما الإجهاد والموت
يقودان قواته على الأوراق اليابسة.

---

١ القنطور ، مسخ في الأساطير الإغريقية ، وهو عبارة عن كائن خرافي نصفه إنسان ونصفه فرس .

إن حراب لاوتارو تقترب.
بين الموتى وأوراق الشجر
مضى بالديبيا وكأنه في نفق.
في الدياجير سيصل لاوتارو.
وفكر بـ «اكستريمادورا»[1] الصخرية،
بالزيت المقدس، بالمطبخ،
وبالياسمين الذي خَلفَه فيما وراء البحار.
تَعَرفَ على صرخة لاوتارو.
تذكر النعاج، والضياع القاسية،
والجدرانَ البيضاء، وأمسيات اكسريمادورا.
وأتتْ ليلةُ لاوتارو.
أمراء جيشه ترنحوا سكارى
بالدم، في ليل طريق العودة ومطره.
وخفقت سهام لاوتارو.
ومن قبر إلى قبر تمايل القادة
النازفون.
ها قد أصبح صدر لاوتارو محاذياً لهم.
رأى بالديبيا النور يأتي، رأى الفجر،
وربما رأى الحياة، والبحر.
وكان لاوتارو.

---

١ اكستريمادورا : منطقة في إسبانيا ، وهي مسقط رأس الفاتح بيدرو دي بالديبيا .

XII
قلب بيدرو دي بالديبيا

حملنا بالديبيا تحت الشجرة.
صباح الخيوط الباردة المنسلّة من الشمس
كان زرقة ماطرة.
المجدّ كله، والرعد،
كان يرقد مضطرباً
على كومة من الفولاذ الجريح.
وكانت القرفة ترفع لغتها
وبريق الحُباحِب المبللة
يغطي هيبة جلالته.
أحضرنا قماشاً وإبريقاً فخارياً،
أنسجة خشنة كالضفائر الزوجية،
وجواهر مثل لوز القمر،
والطبول التي ملأت
الأرض الأراوكانية بنور جلودها.
ملأنا أواني العذوبة
ورقصنا ضاربين بأقدامنا كتل التراب
التي تكونت من رماد سلالتنا القاتمة.
بعدها صفعنا الوجه المعادي.
وبعدها قطعنا الرقبة الباسلة.
لكم كانت رائعة دماء الجلاد
التي اقتسمناها مثل رمانة،

وهي ما تزال نابضة بالحياة.
وبعدها ، غرسنا حربة في الصدر
وأسلمنا القلب المجنح مثل طائر
إلى الشجرة الأراوكانية.
فصعد خرير الدم حتى قمتها.

عندئذ من الأرض
التي كونتها أجسادنا ،
انطلق نشيد الحرب،
نشيد الشمس، والحصاد ، نحو البراكين العظيمة.
وعندها اقتسمنا القلب الدامي
وغرستُ أسناني في ذاك التويج
لأتمم طقوس الأرض:
«أعطني برودتك، أيها الغريب الأثيم.
أعطني شجاعتك، شجاعة النمر العظيم.
أعطني، من دمائك، الغضب.
أعطني موتك ليلاحقني
ويحمل الذعر إلى قومك.
أعطني الحرب التي جلبتها معك.
أعطني جوادك وعينيك.
أعطني الظلمة المنحرفة.
أعطني أم الذُرَة.
أعطني لسان الفرس.
أعطني الوطن بلا أشواك.
أعطني الهواء الذي تتنفسه

شجرةُ القرفة، أيها السيد المزخرف.»

XIII

الحرب الشاملة

وبعد، أيتها الأرض والمحيطات، أيتها المدن،
أيتها السفن والكتب، أنت تعرفين القصة.
فمن الأرض المتوحدة
مثل حجر مرتعش
امتلأت بأوراق الورد الزرقاء
أعماق الزمن.
ثلاثة قرون قاتلتْ
سُلالةُ السنديان المحاربة،
ثلاثمئة سنة، وشرارات أراوكو
سَكنتْ في الرماد
في الكهوف الإمبراطورية.
ثلاثة قرون وقمصان القائد
تهوي مثقلة بالجراح،
لثلاثمئة سنة هُجرتْ
المحاريث وخلايا النحل،
ثلاثمئة سنة وهم يجلدون
اسم كل غازٍ،
ثلاثة قرون مزقت
جلود النسور المعتدية،
ثلاثمئة سنة دَفَنَتْ،

مثل فم الأوقيانوس
سقوفاً وعظاماً ودروعاً،
وأبراجاً وأسماء مذهبة.
وإلى المهاميز النزقة
للقيثارات المزخرفة
وصل وقع حوافر الجياد
وعاصفة الرماد.
وعادت السفن إلى الأراضي
القاسية، فنمت سنابل،
وترعرعت عيون إسبانية
في مملكة المطر،
ولكن أراوكو أنزلت القرميد،
وطحنت الحجارة، وانقضّتْ
على الجدران والكروم،
على الإرادات والبذات.
انظرْ كيف يهوي إلى الأرض
أبناء الحقد الأفظاظ:
«بيللاغراس»، «ميندوثا»، «رينوسو»،
«ريس»، «موراليس»، «ألديريتيس»،
جميعهم تدحرجوا نحو الأعماق البيضاء،
أعماق أميركا الجليدية.
وفي ليل الزمن الجليل
سقط «امبريال»، وسقط «سنتياغو»،
سقط «بيللاريكا» على النهر،
إلى أن توقفت المملكة الطافية

مملكة نهر بيو - بيو[1]
فوق عصور الدم
وأقامت الحرية
على الرمال الدامية.

XIV
(فاصل)
المستوطنات تغطي أرضنا

(١)

عندما استراح السيف، وأبناء
إسبانيا القاسية، الذين مثل أشباح،
بَعثوا من الممالك والغابات، إلى العرش،
جبالاً من الورق عليها عواء،
بعثوها إلى المليك الغارق في التأمل:
وبعد أن عَبَرَت القصة من يد إلى يد
في أزقة «توليدو»،
وفي منعطفات «الوادي الكبير»،
انطلق من فم الموانئ
الفرع البائس
من الغزاة الأطياف،
وآخر الموتى وُضعوا

١ استطاع الهنود الاراوكانيون إجبار الفاتحين الإسبان على التراجع شمالاً إلى ما وراء نهر بيو - بيو . وبقيت المنطقة الواقعة جنوبي النهر تحت سيطرة الاراوكانيين ولم يتمكن الاسبان من احتلالها حتى استقلال تشيلي عن السيطرة الإسبانية في القرن التاسع عشر .

في التابوت، بطقوس
جرت في الكنائس المشادة بالدم،
وصل القانون إلى عالم الأنهار
وأتى التاجر حاملاً كيسه.

أظلم الامتداد الصباحي.
بزات ونسيج عناكب نَشرتِ
الظلام، والوسواس، ونار
الشيطان في المساكن.
شمعة واحدة فقط أنارت أميركا الفسيحة
الطافحة بالقمم والشهد،
ولقرون كان حديث الإنسان خافتاً،
سعل وهو يخبّ في الأزقة،
ورسم شارة الصليب وهو يطارد القروش.
لقد وصل «الكريوللي»[1] إلى دروب العالم،
ضامراً، يغسل السواقي،
يتنهد بحب بين الصلبان
يبحث عن طريق الحياة الخفيّ
تحت طاولة القداسة في الكنيسة.
والمدينة التي اختمرت في مَنيّ القار والشمع،
تحت الملاءات السوداء،
وتحت حلوق الشمع
صنعت أحياءها الجهنمية.

---

[1] الكريوللي: الأوربي المولود في أميركا.

أميركا، كأس شجرة الكابلي،
صارت شفقاً من قروح،
مَحْجَراً مغموراً بالظلال
وفي امتدادات البرودة القديمة
نما توقير الدودة.
وبنى الذهبُ فوق بثور الأزهار الكثيفة،
واللبلاب الصامت،
عمارات ظلال غارقة.

امرأة كانت تجمع القيح
وتشرب كأس هذا السائل
على شرف السماء كل يوم،
بينما الجوع يرقص في مناجم
المكسيك المذهبة،
وقلب البيرو الأنديزي
يبكي بعذوبة
من البرد في الأسمال.

في ظلال النهار الداجي
أقام التاجر مملكته
المضاءة بمحرقة فقط
فيها الهَرْطوقي، المعوج،
يصير رماداً،
ويتلقى نصيبه من يسوع.
وفي اليوم التالي بينما السيدات

يرتدين تنانيرهن الفضفاضة،
يتذكرن الجسد المجنون
الذي صفعته النار والتهمته،
يتفحص المأمور
البقعة الصغيرة التي خَلّفها المحروق:
دهناً ورماداً ودماً
تلعقه الكلاب.

XV
الاقطاعيات

(٢)

الأرض تناقلها الورثة
تداولوها بالذهب، وهم يجهلونها،
وأصبحت ملكاً للأشباح والأديرة،
إلى أن اقتسموا الجغرافيا الزرقاء كلها
وحولوها إلى إقطاعيات ودوائر لهم.
وفي الفراغ الميت كانت قروح
الخِلاسي والسوط،
و«التشابيتون»[١]، والنخاس.
«الكريوللي» كان شبحاً دامياً
يجمع الفتات،
حتى اقتنى منه مجتمِعاً

١ تشابيتون : الجندي الإسباني الذي يصل حديثاً إلى أميركا ، ويكون جاهلاً بأساليب محاربة الهنود

لقباً صغيراً
منقوشاً بحروف مذهبة.

وفي الكرنفال المظلم
كان يخرج متنكراً بزي «كونت»،
فخوراً، بين شحاذين آخرين،
بعصاه الفضية.

XVI

الملاكون الجدد

(٣)

وهكذا ركد الزمن في الخزان
الإنسان المقهور في المفترقات المقفرة،
حجر المقلاع،
مداد المحاكم،
ملأ بالأفواه المدينة الأمريكية المغلقة.
عندما صار كل شيء سلاماً ووئاماً،
ملجأ وولايةً، وعندما هرم «أريّانو»،
و«روخاس»، و«تابيا»، و«كاستيو»،
و«نونيث»، و«بيريث»، و«روساليس»،
و«لوبيث»، و«خوركيرا»، و«بيرموديث»،
آخر جنود قشتالة،
عندما هرموا وراء جدران المجلس،
وسقطوا أمواتاً تحت الوثائق التافهة،

مضوا مع قملهم إلى القبر
حيث نسجوا
حلم الأنفاق الإمبراطورية،
وعندما كان الفأر هو الخطر الوحيد
في الأراضي الدامية،
أطلَّ البَشْكنشي بكيسه،
و«اراثوريث» بنعله القنبيِّ،
و«فيرناندث لارين» ليبيع الشموع،
و«ألدوناتي» بأقمشته،
و«ايثاغيري» ملك الجوارب.

دخلوا كلهم مثل شعب جائع،
هاربين من صفعات الدركي.
وبسرعة، استبدلوا قميصاً بقميص،
فطردوا الغزاة
وبسطوا غزوهم
على متجر ما وراء البحار.
وعندها اقتنوا الكبرياء
اشتروها من السوق السوداء.
واستولوا على المنشآت والسياط والعبيد،
وعلى كتاب الصلوات والمخافر
والأغلال والأكواخ والمواخير،
وأسمَوا كل هذا:
الثقافة الغربية المقدسة.

XVII

كومونيو سوكورو (١٧٨١)

مانويلا بيلتران (عندما مزقت
بلاغات الطاغية، وصرخت:
«الموت للطغاة»)
بذرت بذوراً جديدة
في أرضنا.
حدث ذلك في مقاطعة غرناطة الجديدة،
في بلدة سوكورو[1].
الكومونيون زعزعوا حكومة الولاية
في الكسوف الرائد.

اتحدوا ضد دكاكين الاحتكار،
ضد الامتياز الملوث،
ورفعوا لائحة المطالب القانونية.
اتحدوا ومعهم الأسلحة والحجارة،
الميليشيا والنساء: الشعب،
وساروا، نظاماً وغضباً،

---

١ كومونيو سوكورو: انتفاضة شعبية عارمة جرت في بلدة سوكورو في كولومبيا. فقد عرفت هذه المدينة ظروفاً اقتصادية غاية في التردي، كان سببها الضرائب المتزايدة التي فرضها نائب ملك إسبانيا في كولومبيا مانويل أنطونيو فلور ومعاونوه. وفي ١٦ آذار ١٧٨١ مزقت امرأة تدعى مانويلا بيلتران، منشوراً معلقاً يعلن عن فرض ضرائب جديدة. وكانت هذه هي الشرارة التي أشعلت الانتفاضة. وانطلق الكومونيون في مسيرة إلى بوغوتا. وقد لاقت الانتفاضة نجاحاً في بدايتها، ولكن تم تطويقها فيما بعد، عندما قامت الحكومة بتقديم تنازلات مزيفة للكومونيين، وكانت للقس كابريرو آي غونغورا اليد الطولى في السيطرة على الانتفاضة وقمعها وإعدام قادتها.

نحو «بوغوتا» وأصالتها.
عندئذ نزل إليهم القسّ:
«ستنالون حقوقكم كلها،
باسم الرب أعدكم.»

واجتمع الشعب في الساحة.

وأقام القسّ
صلاة وقسماً.

كان يمثل السلام العادل،
«اخفضوا أسلحتكم. وليذهب
كل إلى بيته»، هكذا صدر حكمه.
وسلّم الكومونيون أسلحتهم.
وفي بوغوتا زفوا القسّ
محتفلين بخيانته،
وقَسَمه الكاذب في صلاة الخيانة،
وأنكروا الخبز والحقوق.
أعدموا القادة،
ووزعوا بين القرى
رؤوسهم المقطوعة لتوها،
بمباركة المتدين الأعلى
وبحفلة راقصة في قصر الحاكم.

أنتِ أيتها البذور الثقيلة الأولى،

المنثورة في الأقاليم،
ستبقين تماثيل عمياء،
تحتضن، في الليل المعادي،
ثورة السنابل.

XVIII

توباك آمارو (١٧٨١)

كوندور كانكي توباك آمارو،[1]
أيها السيد الحكيم، أيها الأب العادل،
رأيتَ الربيع الحزين
يصعد إلى «تونغاسكا»
ربيع الأدراج الأنديزية،
ومعه الملح والتعاسة،
الظلم والألم.

أيها السيد الإنكا، أيها الأب الزعيم،
كل شيء محفوظ في عينيك

---

١ توباك آمارو، (خوسيه غابرييل كوندور كانكي) زعيم من البيرو (١٧٤٠ ؟-١٧٨١) متحدر من هنود الإنكا. في ٤ تشرين الثاني ١٧٨٠ بدأ ثورة ضد الإسبان، واعتقل قائدهم أنطونيو دي ارياغا، وشنقه في مدينة تونغاسكا. وفي ١٦ تشرين الثاني ١٧٨٠ أعلن بيانه المتضمن إلغاء العبودية، والمعروف ببيان الحرية. وبعد سلسلة من عمليات التحرير الناجحة، وقع في الأسر في ١٦ نيسان ١٧٨١ إثر مكيدة دبرها خائن من أتباعه يدعى فرانثيسكو دي سانتا كروث. وقد عذب الإسبان توباك آمارو بوحشية ومثلوا به. فبعد أن قطعوا لسانه، مزقوا جسده بربطه إلى أربعة جياد من أطرافه، ثم قطعوا رأسه، وأحرقوا جثته. وقد أطلق على نفسه اسم سلفه الثائر الهندي توباك آمارو الذي أعدمه الإسبان سنة ١٥٧٩.

كأنه في صندوق متكلّس
بالحب والحزن.
الهندي أراك ظهره
حيث لسعات السياط الجديدة
تلمع فوق جراح أخرى مندملة
جراح عقوبات أخرى منطفئة،
وظَهراً إلى جانب ظَهر،
كوّنتَ القمة المهتزة
بشلالات من النحيب.
وكان نحيب ونحيب آخر.
إلى أن نظمّت حملة
الشعوب التي بلون الأرض،
والتقطتَ الدموع بكأسك
وقوّمت السبيل.
لقد وصل أبو الجبال،
وشق البارودُ دروباً،
إلى القرى البائسة
ليصل أبو المعركة.

ألقوا بالدثار على التراب،
واتحدت السكاكين القديمة،
ونادت الحلزونة البحرية
الأهلَ المتفرقين
ضد الحجر الدموي،
وضد العطالة المشؤومة،

ضد حديد القيود.
ولكنهم شقوا شعبك
وبعثوا الأخ ضد أخيه،
إلى أن هوت حجارة حصنك.
وقيدوا أطرافك المتعبة
إلى أربعة جياد جوامح
وقطّعوا
نور الصباح الذي لا يخمد.

توباك آمارو، أيتها الشمس المهزومة،
من مجدك الممزق
يرتفع نور خفي
كما الشمس فوق البحر.
إن قرى الطين النائية،
والأنوال الذبيحة،
وبيوت الرمل الرطبة
كلها تقول بصمت: «توباك»،
وتوباك يتربص في الأخدود منتظراً،
تقول بصمت: «توباك»،
وتوباك ينمو كالبذرة تحت التراب.

XIX

أميركا الثائرة

أرضنا، الأرض الفسيحة، أرض العزلات،

استوطنها الصخب، الأذرع، الأفواه.
صفير صامت أخذ بالالتهاب،
حاشداً الزهرة السرّية،
إلى أن اهتزت المروج
المغطاة بالمعادن وبوقع الخيول.
وكانت الحقيقة صلبة مثل محراث.

فشَقَت الأرض، ورَسّخَتِ الرغبة،
ونَثَرَتْ بذور دعايتها
فوُلدتْ في الربيع السرّي.
كانت زهرتها صامتة، وكان مرفوضاً
اجتماعها المضيء، وقُمعَتْ خميرتها الجماعية،
وحُوربَ تقبيل الرايات المخبأة،
ولكنها انشقتْ محطمة الجدران،
مزيحة السجون عن الأرض.
الشعب المكفهر كان كأسها،
فتلقى العصارة المرفوضة،
ونشرها بين الحدود البحرية،
ودقها في هاونات جوامح.
وخرج بالصفحات المطروقة
وبالربيع إلى الطريق.
ساعةً من الأمس، ساعة من الظهيرة،
ساعة من اليوم مرة أخرى، الساعة المنتظرة
بين اللحظة الميتة واللحظة الوليدة،
في عصر الكذب المدجج بالسلاح.

أيها الوطن، يا من وُلدت من الحطابين،
والأبناء الذين لم يُعمَّدوا، من النجارين،
وممن قَدِموا، مثل طائر غريب،
قطرة دم طيارة،
إنك تولد اليوم من جديد، صلباً
تولَد، من حيث ظن الخائن والسجان
أنك غارق إلى الأبد.

اليوم تولد من الشعب مثلما كنت.

اليوم تخرج من الفحم والندى.
وتصل اليوم لتهز الأبواب
بالأيدي المهانة، بأشلاءٍ
من الروح التي ما زالت على قيد الحياة،
بعناقيد نظرات لم يطفئها الموت،
بأدوات متنافرة
مهيأة تحت الأسمال.

XX

برناردو أوهيجينس ريكيلمي (١٨١٠)

للاحتفال بك يا أوهيجينس[1]

---

١ برناردو أوهيجينس ريكيلمي ٠ (١٧٧٦.١٨٤٢) بطل الاستقلال في تشيلي . سافر في شبابه إلى أوربا . وعاش فترة في لندن . وعندما عاد إلى وطنه قاد القتال ضد القوات الإسبانية ، ولكنه هُزم وفر إلى الأرجنتين ، حيث شارك مع الجنرال سان مارتين في تنظيم جيش التحرير الذي عرف باسم جيش الأنديز . وتابع النضال من أجل استقلال تشيلي إلى أن تم ذلك عام ١٨١٨ . ولكنه استقال من قيادة البلاد . وانتقل إلى البيرو حيث توفي .

يجب إنارة الصالة بضوء خفيف
ضوء الجنوب الخفيف في الخريف
مع تمايل الحَور اللانهائي.

أنت تشيلي، أنت الذي تجمع ما بين بطريرك وريفي،
أنت عباءة الرعاة في الأقاليم،
أنت طفل لم يعرف اسمه بعد،
طفل صارم وخجول في المدرسة،
وفتى حزين من الريف.

في سنتياغو كنت تتألم، وهم ينظرون
إلى بزتك السوداء الطويلة على مقاسك،
وعند مرور الجوق بك، كان لراية
الوطن التي صنعتها لنا،
رائحة الدرنات البرية الصباحية،
فوق صدرك الذي مثل نصب ريفي.

في شبابك، عوّدك أستاذك الشتاء
على المطر
وفي جامعة شوارع لندن
منحك الضباب والفقر ألقابهما
وأتى فقير أنيق، حريق حريتنا التائه،
وأعطاك نصائح نسرٍ حكيم
وأبحر بك في التاريخ.

«ما اسمك أيها السيد»، ويضحك
«سادة» سنتياغو:
يا ابن الحب في ليلة شتائية،
إن وضعك كمهجور
كونك في صلصال بَرّيّ،
من جدّيةٍ حاسمةٍ لبيت أو خشب
مشغول في الجنوب.
الزمن كفيل بتغيير كل شيء، كل شيء
سوى ملامحك.

أنت، يا أوهيجينيس، ساعة لا تتبدل
مثبت على لحظة واحدة في محيطك الساذج:
إنها لحظة تشيلي، اللحظة الوحيدة
التي تستمر في التوقيت الأحمر
للكرامة المقاتلة.

هكذا كنت لا تتبدل، سواء أكنت
بين أرائك الأبنوس وصبايا سنتياغو،
أمْ كنتَ محاصراً في رانكاغوا بالموت والبارود.
لقد كنت دائماً الصورة المتماسكة نفسها
صورة من ليس له أب وإنما لهُ وطن،
ومن ليس له حبيبة
سوى تلك الأرض المفعمة بالأزهار
التي تفتحها المدافع.

أراك في البيرو وأنت تكتب الرسائل.
ليس ثمة منفي مثلك، ولا نفي أكبر من نفيك.
إنك الوطن كله مُبعداً.

لقد أُضيئت تشيلي مثل صالون
عندما لم تكن فيها، وبتبذير
استبدل الأثرياء بانضباطك أيها الجندي الزاهد،
رقصةَ «الريغودون».
والوطن الذي كُسبَ بدمك
حُكم بدونك كما لو كان حفلة رقص
يتفرج عليها الشعب الجائع من الخارج.

لم يعد بمقدورك الدخول إلى الحفل
بعرق، ودم، وغبار معركة «رانكاغوا».
ذلك سيكون نشازاً
للسادة الضباط.
ولأنك ستُدخل معك غبار الدروب،
ورائحة العرق والجياد:
رائحة الوطن في ربيعه.

لستَ بقادر على حضور حفلة الرقص هذه.
لأن احتفالك كان قلعة انفجارات.
ورقصك المعفر هو القتال.
ونهاية حفلتك كانت رعشة الهزيمة،
والمستقبل المشؤوم

يقودك نحو «ميندوثا»، والوطن بين ذراعيك.

تَطلّع الآن في الخريطة، إلى أسفل،
إلى خاصرة تشيلي النحيلة
واحشد بين الثلوج الجنود الصغار،
والشبان الساهمين على الرمال،
الجنود الذين يسطعون ثم ينطفئون.

أطبق عينيك، نَمْ، احلم قليلاً،
حلمك الوحيد، الوحيد الذي يرتد
إلى قلبك: عَلَمٌ
بثلاثة ألوان في الجنوب،
وهطولُ المطر،
والشمس الريفية فوق أرضك،
وطلقاتُ الشعب المتمرد
وكلمتان أو ثلاث من كلماتك،
عندما يكون الكلام لازماً.
إذا كنت تحلم، فقد تحقق حلمك اليوم.
فاحلم، على الأقل، وأنت في القبر.
ولا تحاول تَعرُّفَ شيء جديد
لأنه كما في السابق
يرقص السادة في القصر،
بعد المعارك المظفرة،
بينما ينظر الوجه الجائع نفسه
من عتمة الشوارع.

لكننا ورثنا صلابتك،
وجنانك الراسخ الصامت،
وموقفك الأبوي الذي لا يلين،
وأنت، بين الاندفاع الذي يسد السبل،
اندفاع حراس القصور القدماء،
بين البزات الأنيقة الزرقاء والمذهبة،
أنت معنا اليوم،
أنت لنا،
يا أبا الشعب،
أيها الجندي الرابط الجأش.

XXI

سان مارتين (١٨١٠)

لقدْ مشيتُ كثيراً يا سان مارتين[١]،
تنقلتُ من مكان إلى آخر،

---

١ خوسيه دي سان مارتين ، (١٧٧٨-١٨٥٠) جنرال ورجل دولة أرجنتيني . محرر تشيلي والبيرو . انتقل مع أبويه إلى إسبانيا عندما كان في الثامنة من عمره . درس في المدرسة العسكرية في مدريد . وشارك في الحرب الإسبانية ضد نابليون . ثم انتقل إلى بوينس آيرس ، حيث أسس فرقة "لاوتارو" ونظم لواء الخيالة ، وبهذا اللواء أحرز أول انتصاراته ضد الإسبان في سان لورنزو سنة ١٨١٣ ، ثم أسس جيش الأنديز المؤلف من ٥٢٠٠ رجل ، وعبر بهذا الجيش جبال الأنديز في كانون الثاني ١٨١٧ ، واستطاع الدخول منتصراً على رأس الجيش المحرر إلى سنتياغو دي تشيلي . ثم نظم بمساعدة أوهيجينس حملة البيرو واستطاع دخول العاصمة ليما في التاسع من تموز ١٨٢١ ، وأعلن استقلال البيرو في الثامن والعشرين من الشهر نفسه .
تخلى سان مارتين عن القيادة لبطل تحرير أميركا الجنوبية سيمون بوليفار ، إثر لقائهما في غواياكيل . وسافر إلى فرنسا عام ١٨٢٢ ، ثم عاد من جديد إلى بوينس ايرس سنة ١٨٢٩ . ولكنه علم بالفوضى السائدة في وطنه ، فلم ينزل إلى البر . وإنما رجع إلى فرنسا . ومات فيها يوم ١٧ آب ١٨٥٠ .

واستخرجتُ بزتك، ومهمازيك،
وكنتُ اعرفُ وأنا أسير على الدروب
التي شُقتْ للعودة، عند أطراف الجبال،
في صفاء القضاء الذي ورثناه منك،
كنتُ أعرفُ أننا سنلتقي يوماً.

يصعب التمييز بين عُقد «الثيبو»[1]،
بين الجذور،
والإشارة إلى وجهك وسط الدروب،
وتمييز نظرتك بين العصافير،
والعثور على وجودك في الهواء.

أنت الأرض التي منحتَنا إياها،
أنت فرع أرز يعبق بأريجه،
ولا نعرف موقعه، ولا من أين تأتي رائحته،
رائحة الوطن، إلى المروج.
عَدَونا فوقك يا سان مارتين،
خرجنا حاملين الفجر لنجتاز جسدك،
وتنفسنا هكتارات من ظلك،
وأوقدنا ناراً على هيكلك.

أنت الأكثر امتداداً بين جميع الأبطال.

٢ الثيبة : جنس أشجار أمريكية ، تتميز بأزهارها الحمراء القانية .

آخرون مضوا من مائدة لمائدة،
من مفترق إلى زحام،
أما أنت فكنت مكوّناً من تخوم،
وبدأنا نرى جغرافيتك،
سهلك الأخير، أرضك.

وبينما الزمن يفتت، مثل ماء خالد،
كتلَ تراب الحقد،
والبقايا المشحوذة من المحرقة،
كنتَ تضم أراضي جديدة،
وكانت بذور جديدة من هدوئك تسكن الربى،
وتعطي الربيع اتساعاً أكبر.

الإنسان الذي يبني، يصير فيما بعد
دخان ما بناه،
لا شيء يُبعث من
من مجْمَرته المستنفدة،
ولكنه صنع وجوداً من فاقته،
وسقط عندما لم يعد لديه سوى الغبار.

أنت أرسيت في الموت اتساعاً أكبر.
كان موتك صمت الهُرْي.
انقضتْ حياتك، وحيوات أخرى،
فتفتحتْ أبواب، وارتفعت جدران
وخرجت السنبلة لتتبعثر حباتها.

آه يا سان مارتين، ثمة قادة
لهم بريق أكبر من بريقك،
يحملون أوسمة مطرزة بملح فسفوري،
وآخرون يتحدثون باندفاع شلال،
ولكن لا وجود لمثلك،
يا من ترتدي الأرض والعزلة، الثلج والأعشاب.
يا من نلتقي بك لدى العودة من النهر،
ونحييك بتحية فلاحية
كأهالي «توكومان»[1] الزاهرة،
وفي الدروب، نجتازك خبباً
على الخيول، ونحن نرفع
رداءك، أيها الأب المُعفَّر.

الشمس والقمر، والريح العظيمة
تُنضج اليوم أصولك، تكوينك البسيط:
فحقيقتك كانت
حقيقة الأرض، يا أيها العجين الرملي،
أيها الراسخ مثل الخبز،
أيها الشريحة الرقيقة من صلصال وحبوب،
يا سهول البامبا النقية.

هكذا أنت حتى اليوم، قمر وتقريب،

---

١ توكومان ، مدينة في الأرجنتين ، على سفوح الأنديز . أُنشئت سنة ١٥٦٥ ، وهي ذات شهرة تاريخية كبيرة ، ففيها عُقد المجلس التأسيسي العام الذي طالب في التاسع من تموز عام ١٨١٧ باستقلال الأقاليم المتحدة في أميركا الجنوبية .

محطة جنود، زوبعة،
حيث نمضي مقاتلين من جديد،
وسائرين بين الضياع والسهول،
لنُشيِّد حقيقتك الأرضية،
وننثر بذورك الرحيبة،
ونذري صفحات القمح.

ليكن هكذا،
ولا رافقتنا السلامة حتى ندخل
بعد المعارك، إلى جسدك
وترقد في امتداد سلامك المعطاء أجسادنا.

XXII

مينا (١٨١٧)

«مينا»[١]، يا من أتيتَ من المنحدرات الجبلية
مثل خيط ماء صلب.
إسبانيا النقية، إسبانيا الشفافة
هي التي ولدتك وسط الآلام، أيها الجموح،
يا ذا الصلابة المضيئة
مثل مياه الجبال الدافقة.

---

١ فرانثيسكو خابير مينا: (١٧٨٩-١٨١٧). قائد عسكري إسباني، ولد في نافارا. قاتل قوات نابليون التي غزت إسبانيا، وبعد الأنتصار عليها تحول إلى محاربة الملك فرناندو السابع. ثم انتقل إلى المكسيك للمشاركة في حرب الاستقلال هناك. وقد أُلقي القبض عليه بعد حملة كبيرة وأُعدم.

طويلاً عبر العصور والبلاد
كان صراع الظلام والضياء في مهادك،
وكانت المخالب الزاحفة
تذبح ضياء الشعب،
وكان مربوّ الصقور الهرمون،
يترصدون الخبز على شرفاتهم الكنائسية،
ويمنعون دخوله إلى نهر الفقراء.

ولكنك يا إسبانيا كنت دائماً تتركين
في البرج القاسي
ثغرة للجوهرة المتمردة وذُرّيّتها
لتشع بنورها المتحضر.

ليس عبثاً أن راية قشتالة
لها لون الريح الكومونية،
وليس عبثاً أن يركض نور «غارثيلاسو»[1] الأزرق
في محاجرك الغرانيتية،
وليس عبثاً أن يترك «غونغورا»[2]،
في قرطبة بين العناكب المترهبة،
أطباق اللؤلؤ للثلج.

---

١ سابستيان غارثيلاسو دي لابيغا ، (١٤٩٥-١٥٥٩) . عسكري إسباني . ولد في باداخوش/ إسبانيا . وبعد أن خدم ضمن قوات كورتس في المكسيك ، انتقل إلى البيرو . وقد لاحظ بحسه الإنساني المرهف ما يقاسيه الهنود على يد أبناء شعبه ، فانتقل إلى صفهم وتزوج أميرة من أميرات الإنكا .

٢ لويس دي غونغورا ، شاعر إسباني (١٥٦١-١٦٢٧) ولد في قرطبة . وهو شخصية استثنائية في الأدب الإسباني . لاقى كثيراً من المعاناة ، فقد سخر منه وهاجمه واضطهده معظم معاصريه . فعاش معظم حياته في العزلة .

من بين مخالبك الشهيرة
بقسوتها القديمة، يا إسبانيا
زعزع شعبك النقي جذور الألم،
وأهرق على بهائم الإقطاعية
دماء غزيرة لا تخمد
فالنور فيكِ، مثل الظلام، قديم.
ومُستهلَك بقروح مهلكة.
وإلى جانب سلام المعماري
المتقاطع مع أنفاس أشجار البلوط،
إلى جانب الينابيع المرصعة بالنجوم
حيث تلتمع على تاريخك شرائط ملونة وقصائد،
مثل زهرة قاتمة،
يعيش في منعطفات أدراجك الشاهين.

جوعاً وآلاماً كان سيْلكس[١].
رمالك الغابرة،
وجلبة صماء متشابكة
بجذور شعوبك،
قدمتْ لحرية العالم
بروقاً أبدية
من الأناشيد والنضال.

حفظت منخفضات «نافارا»

---

١ سيلكس ، ثاني أكسيد السليكون ، وهي ذرات بلورية مختلطة بالتراب تستخدم في صناعة الزجاج .

الشهاب الجديد.
فأخرج مينا من قاع الوهدة
عقد محاربيه.
ومن القرى المغدورة،
من الأقاليم الليلية
أخرج النار، وغذى المقاومة الحارقة،
وعَبَرَ ينابيع ثلجية،
وهاجم في المنعطفات السريعة،
وانبثق من المَضَايِق،
وظهر في المخابز.

دفنوه في السجون،
فعاد إلى رياح الجبال الشاهقة
ينبوعه العنيد
مائجاً مدوّياً.

إلى أميركا حملته رياح الحرية الإسبانية،
فعَبَرَ الغابات من جديد
وأخصب المروج
بقلبه الفياض.
في حربنا، على أرضنا
نزف قوامه البلّوريّ،
مناضلاً من أجل الحرية المبعدة
التي لا تتجزأ.
في المكسيك، قيدوا الماء

المنحدر من إسبانيا.
وبقيت شفافيته المتدفقة
ثابتة وصامتة.

XXIII

ميراندا[١] يموت في الضباب (١٨١٦)

إذا ما دخلتم مساءً إلى أوربا معتمرين قبعة عالية
في الحديقة الموشاة
بأكثر من خريف بجانب مرمر النافورة
بينما أوراق الذهب الرث
تتساقط في الإمبراطورية.
إذا ما قطعتِ البوابةُ صورةَ وجه
في ليل سان بطرسبورغ
اهتزت صنجات الزلاقة الجليدية
وكان ثمة أحد في العزلة البيضاء،
الخطوة نفسها والسؤال نفسه.
إذا ما خرجتَ من البوابة المزهرة

---

١ فرانثيسكو ميراندا : (١٧٥٠-١٨١٦) . جنرال فنزويلي ، وأحد أبرز المناضلين من أجل الانعتاق الأميركي . خدم في الجيش الإسباني . وفي عام ١٧٨٠ شارك في حرب استقلال الولايات المتحدة الأمريكية . سافر إلى لندن عام ١٧٨٥ ساعياً لكسب الدعم لقضية استقلال أميركا الإسبانية ، وبعد سنتين ذهب إلى باريس وقاتل في صفوف الثورة الفرنسية ، حيث نال رتبة ماريشال . وفي عام ١٨٠٦ قاد حملة بحرية لتحرير فنزويلا ، ولكنه أخفق وعاد إلى لندن . وما لبث أن رجع مرة أخرى إلى فنزويلا عام ١٨١٠ . وانضم إلى بوليفار . وفي إحدى المعارك ، وقع أسيراً في يد الجيش الإسباني ، ونُقل إلى مدينة قادش في إسبانيا ، حيث توفي في سجنها بعد أربع سنوات من الأسر .

بوابة أوربا فارساً، ظلاً، بزة،
ذكاء، علامة، حبلاً ذهبياً،
حرية، مساواة، فانظر إلى جبهته
بين المدافع المدوية
وإذا ما عَرفتْهُ سجادة الجزر
السجادة التي تستقبل المحيطات
وقالت له: تفضل حضرتك. فأنا أصدق.
كم من الإبحارات والضباب يلاحق
مسيرته خطوة خطوة.
إذا ما كان في كهوف المحافل المكتبية
أحد يحمل قفازاً، سيفاً مع خريطة
ومحفظة أوراق منتفخة مملوءة
بموت، بسفن، بهواء.
إذا ما تعالى في «ترينيداد» قرب الشاطئ
دخان معركة وأخرى، ثم البحر من جديد
ومرة أخرى سلالم «باي ستريت»
والجو الذي يستقبله بكثافة
كأحشاء تفاحة متماسكة
ومرة أخرى هذه اليد النبيلة، هذا القفاز
الأزرق المحارب في قاعة الانتظار
بعد دروب طويلة، وحروب وحدائق.
الهزيمة على شفتيه ملح آخر
ملح آخر، خَلّ آخر ملتهب.
إذا ما كان في «قادش» مقيداً إلى الجدار
بسلسلة ثخينة يفكر ببرودة رعب السيف

بالزمن وبالأسر.
إذا ما نزلتم إلى أقبية بين الفئران
وكانت حجارة المبنى قفلاً آخر
في صندوق المشنوق والوجه القديم
حيث ماتت غرقاً كلمة،
كلمة هي اسمنا، هي الأرض
التي أرادت خطواته الذهاب إليها
من أجل حرية ناره المرتجلة
إنهم ينزلونه بالحبال إلى الأرض المعادية الرطبة

لا أحد يصافح أحداً. برد شديد،
برد كبرد القبور في أوربا.

XXIV

خوسيه ميغيل كابريرا[١] (١٨١٠)

مرحلة

قلتَ حرية قبل أي شخص آخر،
حين كانت الهمسة تمضي من حجر إلى حجر،
متخفية في الأفنية، ذليلة.

---

١ خوسيه ميغيل كابريرا، (١٧٨٦-١٨٢٢). أحد أفراد أسرة تشيلية ساهمت مساهمة بارزة في النضال من أجل الاستقلال. أصبح أول رئيس لجمهورية تشيلي عام ١٨١١ واحتفظ بالسلطة حتى عام ١٨١٣، عندما شن عليه الملكيون هجوماً كبيراً وتمكنوا من هزيمته عام ١٨١٤، فاجتاز الحدود إلى الأرجنتين حيث نظم حرب عصابات فعالة ضد السلطة. أعدم رمياً بالرصاص في ميندوثا عام ١٨٢١. وكان شقيقاه خوان خوسيه ولويس قد أعدما عام ١٨١٨.

قلتَ حرية قبل أي شخص آخر.
حررتَ ابن العبد.
عندما كانت أشباح النخاسين
تبيعُ دماءً من بحار غريبة
حررت ابن العبد.

أنشأتَ أول مطبعة.
فوصل الحرفُ إلى الشعب المظلم،
وفتح الخبر السري الشِّفاه.
أنشأت أول مطبعة.
وأقمتَ في الدير مدرسة.
فتراجع العنكبوت الضخم
وركن جباة الضرائب الخانقة.
أنت الذي أقمت في الدير مدرسة.

كورال

اعْرفْ منزلتك الرفيعة،
أَيهَا السيد المتلألئ المجرب.
اعرفْ ما سقط لامعاً
في سرعتك فوق الوطن.
يا طيراناً برياً، يا قلباً أرجوانياً.

اعرف مفاتيحك الجوامح
وأنت تفتح مصاريع الليل.
أيها الفارس الأخضر، أيها الشهاب العاصف.

اعرفْ حُبّك بأيد مفعمة،
وَمصباحك ذا الضوء الدواريّ.
ياعنقوداً في دالية طافحة.
اعرف بهاءك الفوري،
وَقلبك الشارد، ونارك اليومية.

يا حديداً غضوباً، يا تويج زهرة نبيلة.
اعرف صاعقتك المتوعدة
تُطوِّح بقباب النذالة.
يا برج العاصفة، يا غصن الأكاسيا.
اعرف سيفك الحارس،
وَأساسك القوي النيزكيّ.
اعرف عَظمتك السريعة.
اِعرف موقفك الذي لا يساوم.

مرحلة

يمضي عبر البحار، بين اللغات،
والملابس، والطيور الأجنبية،
يأتي بسفنٍ مُحررِة،
يكتب ناراً، ينظِم غيوماً،
يستخرج شمساً وجنوداً،
يجتاز الضباب في «بالتيمور»
مستنزفاً ذاته من باب إلى باب،
تحيط به السُمعة والرجال،
وجميع الأمواج ترافقه.

وقريباً من بحر «مونتيفيديو»،
في حجرته القصيّة،
يفتتح مطبعة، تطبع طلقات الرصاص.
وباتجاه تشيلي ينبض سهم
إرادته الثائرة،
ويلتهب الغضب البلّوريّ
الذي يقوده، ويوجه غارة الإنقاذ
ممتطياً الخيول الإعصارية،
خيول احتضاره الجوامح،
وإخوته القتلى
يصرخون به من جدار الثأر.
ويصبغ دمهم مثل ومضة
بين جدران اللبن في «ميندوثا»
عرشه المأساوي الفارغ.
ويهز السلام الكوني،
سلامِ سهول البامبا، مثل دارة
من حُباحب جهنمية.
يجلد المدن
بصراخ القبائل.
ويغرس الرؤوس المسبية
على إعصار الرماح.
وتلمع عباءته المضيئة
وسط الدخان
ووسط موت الجياد.

أيها الشاب «بويردون»[١] لا ترو
عن كرْب ساعته الأخيرة التي تبعث الرعدة،
لا تعذبني
بليلة الفراق،
عندما أخذوه إلى «ميندوثا»
وكشفت عزلة الموت
عن عاج وجهه.

كورال

احفظه أيها الوطن في دثارك،
التقطْ هذا الحُبَّ النادر.

لا تدعه يتدحرج إلى أعماق
ظلماته التعيسة؛
بل ارفعْ هذا البريق إلى جبهتك،
ارفع هذا المصباح الذي لن يلفه النسيان،
اطو هذا العنان المحتدم،
نادِ هذا الرمش المرصّع بالنجوم،
احفَظ لفافةً خيوط الدم هذه
لتنسجَ قماش مجدك.
التقط أيها الوطن هذا الخَبب،
الضوء، والقطرة الجريح،
هذا البلّور المحتضر،

---

١ خوان مارتين دي بويردون : (١٧٧٦-١٨٥٠) جنرال وسياسي أرجنتيني .

هذا الخاتم البركاني.
اجرِ أيها الوطن واحمه،
اجرِ، أسرع، أسرع، أَسَرِع!

شتات

ساقوه إلى جدران ميندوثا،
إلى الشجرة القاسية، إلى شلال الدم المتفتح،
إلى العذاب المتوحد،
إلى برد النجمة النهائي.

يمضي في الدروب غير المنجزة،
عوسج وعُلّيق منزوع الأشواك،
وأشجار حور تطرح عليه ذهباً ميتاً،
محاطاً بكبريائه الذي لا طائل منه
وكأنه محاط بعباءة رثة
يصل إليها غبار الموت.

إنه يفكر بسلالته النازفة،
بالقمر الأولي فوق أشجار البلوط
ممزقة الطفولة،
بالمدرسة القشتالية والشعار
الأحمر الرجولي، شعار الميليشيا الإسبانية،
بقبيلته المغدورة، بلذة
الزواج بين أزهار البرتقال،
بالمنفى، والنضالات في العالم،

بـ « أوهيجينس » اللغز حامل الراية،
و« خابيره » التي لا تعرف شيئاً هناك
في حدائق سنتياغو النائية.
بينما تشتم ميندوثا أصله الأسود،
وتصفع زعامته المهزومة،
وهو بين الأحجار المقذوفة
يصعد نحو الموت.
ليس هناك إنسان
وصل إلى نهايته بهذه الدقة من الهجمات
الشرسة، بين الريح والبهائم،
حتى هذا الزقاق حيث نزف
جميعُ إخوته الذين من دمه.
كل درجة يرتقيها
على منصة الإعدام تضبط مصيره.
ما عاد أحد قادراً على متابعة الغضب.
الثأر والحُبّ أغلقا أبوابهما.
والدروب قيدت الشريد.
وعندما أطلقوا عليه النار
أطلّ الدمُ
من ثوبه كأمير للشعب،
إنه الدم الذي تعرفه الأرض المشؤومة،
الدم الذي وصل إلى حيث يجب الوصول،
إلى أرض المَعاصر العطشى
التي تنتظر
الأعناب المهزومة من موته.

تطلع بإمعان إلى ثلوج الوطن.
كل شيء كان ضباباً في المدى المدجج بالسلاح.
ورأى البنادق وحديدها
الذي جعل حبه المنهار يولد،
وأحس أنه بلا جذور، وأنه العابر
الضبابي، في المعركة المتوحدة،
وهوى معفراً بالتراب والدم
وكأنه يسقط بين ذراعي راية.

كورال

أيها الفارس السيئ الطالع، أيها الجوهرة المتقدة،
يا عوسجة مشتعلة في الوطن الثلجي.

ابْكينَهُ أيتها النساء،
حتى تبلل دموعكن الأرض،
الأرض التي أحبها، وَثَنه.
ابكوا يا جنود تشيلي الأشداء،
يا من ألفتم الجبال والأمواج،
فهذا الفراغ مثل نهر جليدي،
وهذه الميتة هي البحر الذي يلطمنا.
لا تسألوا لماذا، فلن يقول أحد
الحقيقة التي فتتها البارود.
لا تسألوا من كان، فليس هناك من يسلب
نمو الربيع،
وليس هناك من قتل زهرة الأخ الشقيق.

فلنخبئ الغضب والألم والدموع،
ولنملأ الفراغ الكئيب،
ولتتذكر المحرقة في الليل
ضوء النجوم الميتة.
وأنتِ يا أختاه، احتفظي بحقدك المقدس.
فانتصار الشعب يحتاج
إلى صوت رقتك المسحوقة.
ابسطوا الملاءات في غيابه
ليستطيع ـ في البرد وتحت التراب ـ
إسناد الوطن بصمته.
فقد كانت حياته أكثر من حياة.

بحث عن كماله وكأنه لهيب.
وكان الموت معه إلى أن تركه
كاملاً ومُستنفداً إلى الأبد.

ضد الشعر

ليخبئ الغار المتألم صفوة جوهره الشتويّ.
وإلى تاجه الشوكي فلنحمل الرمل المشع،
ولتَصنْ خيوط العرق الأراوكاني القمر الجنائزي،
ولتقرّ أوراق الزيزفون الشذية السلامَ في ضريحه،
والثلج المغتذي بمياه تشيلي الفسيحة القائمة،
ونباتاتُ أُحَبِّها، أوراقُ «التورنخيل»[1]، في فناجين من صلصال بريّ،

١ التورونخيل ، نبات بري تؤكل أوراقه أو تغلى في الماء وتشرب لتخفيف الآلام المعوية .

النباتات البرية التي أحبها القَنْطُورُ الأصفر،
والعناقيد السوداء المختمرة بخريف كهربي في الأرض،
والعيون المذهولة التي التمعت تحت قبلاته الأرضية.
فليرفع الوطن أطياره، وأجنحته الظالمة، وأجفانه الحمراء،
فليطر نحو الفارس الجريح صوت «الكيلتيهوي»[١] من الماء،
فلينزف «اللويكا»[٢] لطخته القرمزية الندية مقدِّماً بها ضريبته
إلى ذاك الذي يعطي طيرانه اتساعاً لليلِ الوطن الزفافي،
وليكلل الكندور المعلق في الأعالي الشاهقة بريشه الدامي
الصدر النائم، الشعلة الرابضة على أدراج الجبال،
وليحطم الجندي الوردة الغضبى المسحوقة في شقوق الجدار الثقيل،
وليقفز الفلاح على الجواد ذي السرج الأسود والفم المزبد،
وليرجع للقِن أمنه ذا الجذور، وشعار حِداده،
ولينصب الميكانيكي برجه الشاحب المنسوج من القصدير الليلي،
والشعب الذي يولَد في المهد المائل بالصفصاف وبيدي البطل،
الشعب الذي يصعد من طين المناجم الأسود ومن أفواه الكبريت،
هذا الشعب، فليرفع العذاب وحافظة رفاة الموتى وليغلف الذكرى العارية
بعظمته التي كسكة الحديد وبميزانه الأبدي، ميزان الحجارة والجراح
إلى أن تتفتح الأرض الشذية بأزهار «كوبيهوي» ندية وكتب مفتوحة،
للطفل الذي لا يُقهر، للوميض الشهير، للهادئ المرعب، وللجندي الفظ.
وليُحفظ اسمه في سُلطة الشعب المناضل القوية،

---

١ كيلتيهوي : جنس طيور تمتاز بطول قوائمها ، موطنها تشيلي .

٢ اللويكا : عصفور يشبه الزرزور ، يتصف بتغريده العذب وببقعة حمراء في صدره . موطنه تشيلي .

كالاسم الذي على السفينة يقاوم المعركةَ البحرية:
يدونه الوطن على القيدوم ويقبله الشعاع
لأن مادته الحرة والرقيقة والملتهبة كانت هكذا.

XXV

مانويل رودريغث[1]

سيدتي، يقولون حيث كانت أمي
يقولون.. قالوا،
إن الماء والريح، يقولون،
قد رَأيَا الفدائي.

الحياة
قد يكون قِساً،
يكون أو لا يكون،
قد يكون الريح
على الثلج فقط:
على الثلج، نعم،
أماه لا تنظري،
فها هو ذا قادم يعدو

١ مانويل رودريغث اندويثا : (١٧٨٥-١٨١٨) . أحد أبرز أبطال التحرير في تشيلي ، ومحارب عبقري . قاد حرب عصابات ناجحة وراء خطوط القوات الإسبانية ، فكان يكيل ضربات موجعة لهذه القوات ويختفي بسرعة ليعود ويضربها في موقع آخر ، مما سهل على جيش التحير الذي يقوده سان مارتين وأوهيجينس اجتياز جبال الأنديز من الأرجنتين وتحرير تشيلي من السيطرة الإسبانية عام ١٨١٨ .

مانويل رودريغث،
ها هو ذا الفدائي قادم
من المصب.

خارجاً من «ميليبيا»،
راكضاً عبر «تالاغانتي»،
عابراً من «سان فرناندو»،
مشرقاً في «بومايري».

الهوى
ماراً من «راكاغوا»،
ومن «سان روسيندو»، من «تشينا»،
من «ناثيمينتو»،
من «تشينيغوي»
من جميع الأنحاء يأتي
مانويل رودريغيث.
أعْطِيه هذه القرنفلة.
ولنذهب معه.

لينطفئ صوت الجيتار،
فالوطن في حِداد.
وأرضنا أظلمت.
لقد قتلوا الفدائي.

والموت
في «تيل ـ تيل» قتله
ظهره كان ينزف
على الدرب:
القتلة،   أجل، على الدرب.

من يصدق موته،
هو الذي كان دمنا،
وبهجتنا.

الأرض تبكيه.
فلنمض صامتين.

XXVI
أرتيغاس(*)

(١)

أرتيغاس[١]، كان يكبر في الأحراج وكانت خطوته
عاصفة لأن خبب الحجارة أو الناقوس كان ينمو في المروج
وتمكن من زعزعة قسوة الصحراء كأنه عاصفة متواترة،

(*) بالرغم من أن قصيدة "أرتيغاس" قد كتبت بعد عدة سنوات من نشر النشيد الشامل، ونُشرت في ديوان أغنية البحارة (دار نشر لوسادا ١٩٦٧)، فإن موضوعها يتناسب مع الفصل الرابع "المحررون". ولهذا السبب ضمنت في هذه الطبعة المنقحة من النشيد الشامل.

١ خوسيه خيرباسيو أرتيغاس، (١٧٦٤ـ ١٨٥٠) جنرال من أروغواي. بطل الاستقلال في بلاده.

وتمكن من مراكمة اللون الأزرق السماوي باسطاً الحوافر الرنانة،
إلى أن ولدت راية مضمخة بندى الأرغواي.

(٢)

أرغواي، أرغواي، أرغواي أغنيات النهر
عصافير التوريبال[1]، والتورتولا[2] ذات الصوت المجرح، وبرج الرعد الأرغوايّ
كلها كانت تستغيث بالصرخة السماوية التي تقول أرغواي في الريح
وإذا ما صدحت الشلالات وأعادت وقع حوافر الخيول المريرة
الماضية نحو الحدود ملتطقة آخر بذور هزيمتها الظافرة
يمتد إيقاع اسم العصفور النقي،
وضوء الكمان الذي يُعمد الوطن العنيف.

(٣)

آه يا أرتيغاس، يا جندي الحقل المتنامي، عندما كانت عباءتك تكفي كل الجيش،
عباءتك الموشاة بنجوم وبروج أنت تعرفها،
إلى أن أخذ الدم يُفسد الفجر ويفتديه،
واستيقظ رجالك المرتحلون مثقلين بفروع النهار المعفرة.
آه أيها الأب الوفي للطريق، يا قائداً موجهاً، يا قَنْطورس العجاج!

---

١ توريبال ، طائر أمريكي مكسو بريش أصفر ، إلا جناحيه وذيله فريشهما أسود .
٢ تورتولا ، طائر أمريكي يشبه الحمام ولكنه أصغر منه حجماً بقليل .

(٤)

لقد انقضت أيام قرنٍ وتلتها الساعات بعد نفيك
وراء الغابة المعششة بألف عنكبوت حديدي،
وراء الصمت حيث لا تسقط سوى الثمار العفنة في المستنقعات،
الأوراق، المطر المتحرر من قيوده، موسيقى البومة،
خطوات أبناء أرغواي الحفاة وهم يدخلون ويخرجون في شمس الظل،
ضفيرة السوط، الأغلال، الأجساد التي قرضتها الجِعْلان:
وقفل رهيب فُرِضَ ليُبعد لون الغابة،
والشفق الداكن أقفل بأحزمته
عيني ارتيغاس الباحثتين في محنته عن نور أرغواي.

(٥)

«مهنة شاقة هو المنفى»، هكذا كتب شقيق روحي ذاك،
وهكذا أسدلت استراحة أميركا مثل جفن مظلم
على أنظار أرتيغاس، فارس القشعريرة
المظلوم في النظرة البلّورية الثابتة، نظرة طاغية،
في مملكة خاوية.

(٦)

وطنك، أميركا، كانت ترتعش بآلام التكفير:
«آرييس»، «ألفياريس»، «كاريراس»، كانوا يهرعون عراة
إلى التضحية:
يموتون، يولدون، يسقطون، عيون الأعمى تقتل، صوت الأبكم
يتكلم. والموتى وجدوا أخيراً حزباً،

أخيراً عرفوا عصبتهم النبيلة في الممات.
وعرف جميع أولئك النازفون أنهم ينتمون
إلى الصف نفسه؛ فليس في قلب الأرض خصوم.

(٧)

أروغواي هي كلمة العصفور، أو لغة الماء،
هي صوت شلال، هي آلام الزجاج،
أرغواي هي تنفس الثمر في الربيع الشذيّ،
هي القبلة النهرية للغابات والقناع الأزرق للأطلسي.
أرغواي هي الملابس المنشورة في ذهب يوم عاصف،
هي الخبز على مائدة أميركا، ونقاء الخبز على المائدة.

(٨)

وإذا كان بابلو نيرودا، مؤرخُ كلِّ الأشياء، مديناً لك يا أرغواي بهذا الغناء،
هذا الغناء، هذه الحكاية، لب السنبلة هذا، أرتيغاس هذا،
فإني لم أتهرب من واجباتي ولم أقبل بشكوك المُعاند:
لقد انتظرتُ ساعة هادئة، ترصدتُ ساعة قلقة،
جمعتُ نباتات النهر،
أغرقتُ رأسي في رمالك وفي فضة الملوك القدماء،
وفي صداقة أبنائك النقية، في أسواقك المضطربة،
ونقّيتُ نفسي حتى شعرت بأني مدين لرائحتك وحبك.
وربما كان الحفيف الذي منحني إياه حبك ورائحتك مكتوباً
في هذه الكلمات القاتمة التي تركتها في ذكرى قائدك الساطع.

XXVII

غواياكيل (١٨٢٢)[١]

عندما دخل سان مارتين، شيء ليلي
لا يُدْرك باللمْس، ظِلٌ، جلدٌ،
دخلَ القاعة.
وكان بوليفار ينتظر.
شمّ بوليفار القادم.
كان أثيرياً، سريعاً، معدنياً،
كله سَبَقٌ وخبرة طيران،
كيانه يهتز من أعماقه هناك،
في الحجرة المتوقفة
في ظلمة التاريخ.

كان آتياً من القمة المترددة،
من الأجواء الكوكبية،
جيشه يمضي قُدماً
مُحطماً الليل والأبعاد،
إنه قَائدُ جسدٍ لامرئي،
قائد الثلج الذي يتبعه.

---

١ غواياكيل : مدينة في الإكوادور ، تقوم على الخليج الذي يحمل الاسم نفسه على المحيط الهادي ، وهي أهم ميناء في البلاد .

وفي هذه المدينة جرى عام ١٨٢٢ اللقاء الشهير بين بطلي التحرير سيمون بوليفار وسان مارتين ، والقصيدة تدور حول هذا الحدث التاريخي الذي كان الغرض منه توحيد جيوش التحرير . وقد بقيت تفاصيل ما دار في ذلك اللقاء مجهولة حيث أن الاجتماع اقتصر على القائدين .

ارتعش المصباح، واحتجزَ
البابُ وراء سان مارتين الليلَ، ونباحه،
.. وهمسة مصب نهر فاترة.
وشقت الكلمات صراطاً
يمضي بهما ويعود.
وكان الجسدان يتكلمان،
يرفضان، يختبئان،
يفقدان الاتصال، ويهربان.

كان سان مارتين يحمل معه الجنوب
كيس أرقام رمادية،
ووحدة المطايا التي لا تتعب،
والخيول التي تهدّ الأرض
وتُلحقها بحصونها الرملية.
ودخل معه
بَغّالو تشيلي الخشنون،
جيش حديدي بطيء،
والفراغ التحضيري،
ورايات الألقاب
التي هرمت في سهول البامبا.

عندما تكلم سقط الكلام من جسد إلى جسد
في الصمت، في الهوة العميقة.
لم تكن كلمات، وإنما كانت الانبعاث
العميق للأراضي المتخاصمة،

والحجر البشري الذي يلامس
معدناً آخر صعب المنال.
وعادت الكلمات إلى مواقعها.
كلٌ منهما، يرى راياته
أمام ناظريه.
أحدهما: الزمن مع الازهار المُبْهِرة،
الآخر: العَوَزُ الماضي،
وانشقاقات الجيش.

إلى جانب بوليفار كانت يد بيضاء
تنتظره، تودعه،
تُراكمُ حافزه المتقد،
وتفرش الكتان في المخدع.
وكان سان مارتين وفياً لمرجه.
كان حلمه وثبة،
وشبكة أحزمة ومخاطر.
وكانت حريته سهلاً موحداً.
وانتصاره كان انتظام المواسم.

وكان بوليفار يشيد حلماً
ومدى مجهولاً، وناراً
أبدية الاتقاد،
عزلة شديدة، جعلته أسيراً،
مستسلماً لجوهره.
سقطت الكلمات والصمت.

وفُتح البابُ مرة أخرى، وبدأ الليل الأمريكي
كله من جديد، والنهر العريض،
نهر آلاف الشفاه، خفق لثانيةٍ.
ورجع سان مارتين من تلك الليلة
نحو الوحدة، نحو القمح.
واستمر بوليفار وحيداً.

XXVIII
سوكري

«سوكري»[1] في الجبال العالية، يملأ
بروفيل الجبال الأصفر،
ويسقط «هيدالغو»[2]، ويلتقط «موريلوس»[3]
الصوت، ورعشة الناقوس المبثوثة في الأرض وفي الدم.
ويجتاز «بايز»[4] الدروب
موزعاً هواء محرراً،

---

١ أنطونيو خوسيه دي سوكري، (١٧٩٥-١٨٣٠). جنرال وسياسي فنزويلي. قاتل إلى جانب ميراندا، ثم صار من أبرز نواب بوليفار. حرر الإكوادور بعد انتصاره في معركة بيتشينتي عام ١٨٤٤، والبيرو بعد معركة اياكوتشو عام ١٨٢٤. وقد منحه بوليفار رتبة الماريشال الأعظم. وصار رئيساً لجمهورية بوليفيا منذ عام ١٨٢٦ حتى ١٨٢٨. قُتل غيلة في جبال بيرويكوس عندما كان مسافراً من بوغوتا إلى كيتو.

٢ ميغيل هيدالغو، (١٧٥٣-١٨١١) رجل دين وبطل الاستقلال في المكسيك. قاد جيشاً من الهنود الفقراء عام ١٨١٠ وحقق عدداً من الانتصارات على الإسبان، ولكنه وقع في يدهم، وأُعدم رمياً بالرصاص.

٣ خوسيه ماريا موريلوس أي بافون: (١٧٦٥-١٨١٥) راهب وطني مكسيكي. قاد حركة الاستقلال بعد مصرع هيدالغو، وانتصر على الإسبان في عدة حملات عسكرية. دعا إلى أول مؤتمر وطني مكسيكي عام ١٨١٣، ولكنه وقع أسيراً في إحدى المعارك وأُعدم رمياً بالرصاص.

٤ خوسيه أنطونيو بايز: (١٧٩٠-١٨٧٣). قائد عسكري فنزويلي. أحد المقربين من سيمون بوليفار، وكان قد برز بعد انتصاره الساحق في عدد من المعارك. وعندما انفصلت فنزويلا عن كولومبيا العظمى، أُنتخب أول رئيس لها عام ١٨٣٠، ثم انتخب فترتين لاحقتين للرئاسة قبل أن يتوفى في نيويورك بالولايات المتحدة.

ويسقط الندى في «كونديناماركا»[1]
فوق اخوّة الجراح،
ويثور الشعب هائجاً
من النبضة حتى الخلية
السرّيّة، وينبثق عالم
من وداع وخبب جياد،
وتولد في كل لحظة راية جديدة
مثل زهرة سباقة:
رايات صُنعت من مناديل دامية
وكتبٍ حرة،
رايات سُحلت على تراب
الدروب، رايات مزقتها
الجياد، ونشرتها
الرعود والبروق.

الرايات

رایاتنا في ذلك الزمن
الشذيّ، المطرزة لتوها،
المولودة لتوها، راياتنا السرية
مثل حُبَ عميق، انتصبتْ فجأة
بقوة في وجه الريح الزرقاء
ريح البارود المحبوب.

أميركا، أيها المهد الفسيح، يا فضاء النجوم،

١ كوندينامارکا : مدينة في كولومبيا .

أيتها الرمانة الناضجة،
فجأة
امتلأت جغرافيتك بالنحل،
وبالهمسات التي توجهها جدران الطين
والحجارة، ومن يد إلى يد،
امتلأ الشارع بالأثواب
وصار مثل قرص شَهد يعج بالحركة.

وفي ليل الرصاص
كان الرقص يلمع في العيون،
والأزهار تصعد إلى القمصان
مثل برتقالة،
قبلات وداع،
قبلات طحين،
الحُبّ يحزم قبلات،
والحرب تغني بقيثارتها
عبر الدروب.

XXIX
كاسترو ألبيس

دل برازيل(*)

(*) كانت قصيدة "كاسترو ألبيس دل برازيل" تُنشر في السابق ضمن مجموعة «شعر ونثر لا يجمعه كتاب» في الأعمال الكاملة للشاعر. وقد أوردناها الآن في فصل "المحررون" من النشيد الشامل، لأنه الموضع المناسب لموضوعها.

لمن غنيت يا كاسترو ألبيس دل برازيل؟[1]
هل غنيت للزهرة؟ أم للماء
الذي يهمس روعته بكلمات إلى الصخور؟
أم أنك غنيت لعيني ووجه
من أحببتها آنذاك؟ أم للربيع؟

- أجل، ولكن أوراق تلك الزهرة كانت دون ندى،
وذاك الماء الأسود كان بلا كلمات،
وتلك العيون هي التي رأت الموت،
ووراء الحب كانت الآلام ما تزال تتقد،
وكان الربيع مضرجاً بالدم.

- غنيتُ للعبيد الذين كانوا في السفينة
مثل عنقود قاتم على شجرة الغضب،
سافروا، وفي الميناء نزفت السفينة
تاركة لنا ثِقَل الدم المنهوب.

غنيتُ في تلك الأيام ضد الجحيم،
ضد ألسنة الجشع المشحوذة،
ضد الذهب المغمس في الآلام،
ضد اليد التي تمسك السوط،
ضد مديري الظلمات.

- في جذور كل زهرة كان يرقد رجل ميت.

---

١ أنطونيو كاسترو البيس، (١٨٤٧-١٨٧١). شاعر برازيلي، ناضل بأشعاره الرومنسية ضد نظام العبودية.

الضوء والليل والسماء كانت كلها مغطاة بالنحيب،
وكانت العيون تبتعد عن الأيدي المجروحة
وكان صوتي وحده يملأ الصمت.

- لقد أردتُ أن ننقذ الإنسان،
لقد آمنتُ بأن الطريق يمر عبر الإنسان،
وأن المصير لا بد أن يخرج من هناك.
فغنيتُ لأولئك الذين لا صوت لهم.
ودقّ صوتي الأبواب التي كانت ما تزال مغلقة
لتدخل منها الحرية بالنضال.

كاسترو ألبيس دل برازيل،
اليوم وقد عاد كتابك النقي ليولد
من أجل الأرض الحرة،
دعني، أنا الشاعر ابن أميركا البائسة،
أتوج رأسك بغار الشعب.
لقد اتحد صوتك مع الصوت الإنساني الخالد والشامخ.
فلقد غنيت بروعة.
غنيتَ كما يجب أن يكون الغناء.

XXX

توسان لوفيرتير

هايتي، من عذوبتها المتشابكة،
تستخرج أزهاراً مثيرة للشجون،

وعدالةَ جنائن، وأبنية رفعة،
ويهدل البحر فيها مثل جدّ أسود
بوقاره الهرم الذي من جلد وفضاء.
ويعقد توسان لوفيرتير[1]
السيادة النباتية،
والجلال المقيد،
وصوت الطبول الأصم،
ويهاجم، يسدّ الدروب، يصعد،
يأمر، يطرد، يتحدى
مثل ملك طبيعي،
إلى أن يقع في الشرك المظلم
ويحملونه عبر البحار
مسحولاً ومعفراً
ومثل عودة سلالته،
يُلقى به إلى الموت السرّي
موت أقبية السفن.
ولكن الكروم تلتهب في الجزيرة،
وتتكلم الغصون المختبئة،
متناقلة الآمال،
وتبرز جدران الحصن.
الحرية هي غايتك،
أيها الأخ الزنجي، احفظ

---

١ توسان لوفيرتير: (١٨٠٣.١٧٤٣). عبد زنجي من هايتي. قاد ثورة العبيد في سانتو دمنغو. وأصبح زعيماً للبلاد بعد انتصار الثورة. ولكن فرنسا عادت وغزت الجزيرة من جديد، فوقع في الأسر ونُقل إلى فرنسا، حيث مات. وتعتبر الثورة التي قادها أول حركة تحرر ذات مضمون اجتماعي في أميركا اللاتينية.

الآلام في ذاكرتك
وليحرس أبطال الماضي
زبدك السحري.

XXXI
مورازان (١٨٤٢)

طويل هو الليل ومورازان[1] يحرس.
أهو اليوم، الأمس، الغد؟ أنتِ تعرفين.

أيتها الشريط الأوسط، يا أميركا الضيقة
لقد راحت لطمات البحرين الزرقاء
تكوّن، وترتفع
سلاسل الجبال والريش الزمردي:
لتصنع أرضك، ووحدتك، أيتها الربة النحيلة،
يا من ولدتِ في الزبد البحري.

لقد عاثَ فيك الأبناءُ والديدان،
وتمطت فوقك الوحوش الضارية
وأرقتْ نومكِ كماشةٌ،

١ فرانثيسكو مورازان ، (١٧٩٢-١٨٤٢) جنرال وسياسي من هندوراس ، بطل الدعوة لإقامة اتحاد يجمع بلدان أميركا الوسطى . كان رئيساً لدولة هندوراس في عامي ١٧٢٧-١٨٢٨ ، وفي عام ١٨٢٩ غزا غواتيمالا ، ثم ترأس فيدرالية أميركا الوسطى منذ ١٨٣٠ حتى ١٨٤٠ ، وبسط سلطته على السلفادور في عامي ١٨٣٩-١٨٤٠ وبعد هزيمته أمام تمرد كاريرا ، دعاه أنصاره إلى كوستا ريكا ليكون رئيساً لها عام ١٨٤٢ . وفي العام نفسه أعدم رمياً بالرصاص في سان خوسيه عاصمة كوستا ريكا .

وضرجتك بدمك طعنات خنجر،
بينما كانت رايتُكِ تتمزق.

طويل هو الليل ومورازان يحرس.

ها هو ذا النمر آت يرفع فأساً.
ها هم أولاء آتون لالتهام أحشائك.
أتون لاقتسام النجم.
آتون،
يا أميركا الصغيرة الشذية،
ليعلقوكِ على الصليب، ليسلخوك،
ليدفنوا معدن رايتك.

طويل هو الليل ومورازان يحرس.

الغزاة ملؤوا بيتك.
واقتسموك مثل ثمرة ميتة،
وختم آخرون على ظهرك
بأسنان سلالة دموية،
ونهبك آخرون في الموانئ
وهم يشحنون دماً فوق آلامك.
أهو اليوم، الأمس، الغد؟ أنت تعرفين.
إن الشمس تشرق يا إخوتي (ومورازان يحرس)

XXXII
رحلة عبر ليل خواريث

إذا ما نزعنا الطبقة الأرضية
الحميمة يا خواريث[1]، ومادة الأعماق،
وإذا ما لمسنا ـ ونحن نحفر ـ
معدن الجمهوريات العميق،
فإن هذه الوحدة ستكون قوامك،
وطيبتك المعصومة من الألم،
ويدك القاسية.
إن من ينظر إلى ملابسك،
إلى احتفالك البسيط، إلى صمتك،
إلى وجهك المصاغ من تراب أمريكي،
لن يفهم شيئاً إذا لم يكن من هنا،
إذا لم يكن قد ولد في هذه السهول،
في صلصال عزلتنا الجبلي.
يتكلمون إليك وهم يلمحون مَحْجَراً.
يعبرونك مثلما يعبرون نهراً،
ويمدون يدهم مثلما يمدونها إلى شجرة،
إلى دالية،

١ بينيتو خواريث: (١٨٠٦-١٨٧٢) سياسي مكسيكي، كان حاكماً لمقاطعة اواخاكا، ثم أصبح رئيساً للمجلس الأعلى عام ١٨٥٧، وبعد حركة "زولوغا" اللادستورية انسحب إلى مدينة فيراكروث، حيث مارس رئاسة الحكومة الليبرالية في مواجهة المحافظين. وخلال حرب السنوات الثلاث (١٨٥٨-١٨٦١) دافع عن الشرعية الجمهورية ووضع قوانين الإصلاح. وبعد انتصار الليبراليين دخل إلى مدينة مكسيكيو وأقام حكومته، ولكنه غادر العاصمة عام ١٨٦٣ ليقود النضال ضد التدخل الفرنسي وضد الإمبراطور ماكسيميليانو. وبعد سقوط الإمبراطور انتخب خواريث رئيساً للجمهورية منذ عام ١٨٦٧ وحتى ١٨٧٢

إلى طريق أرضي مظلم.

أما بالنسبة لنا فأنت خبز وصخر،
أنت فرن، ونتاج السلالة القاتمة.
فوجهك ولد في طيننا.
وجلالك هو جلال منطقتي الثلجية،
وعيناك مصنع الفَخّار الدفين.

آخرون يملكون الذرة،
وقطرة البريق الكهربائي،
والجمرة المتقدة:
أما أنت
فإنك الجدار المصنوع من دمنا،
واستقامتك الصارمة
تخرج من جيولوجيتنا القاسية.

ليس لديك ما تقوله للهواء،
للريح الذهبية القادمة من بعيد،
فلتقله الأرضُ الغارقة في التأمل،
والكلس، والمعدن، والخميرة.

لقد زرتُ جدران «كيرايتارو»[1]،
ولامستُ كل بروز في الرابية،

[1] كيريتارو: مدينة مكسيكية، جرى فيها إعدام ماكسيميليانو دي هابسبورغ الذي نصّبه الفرنسيون إمبراطوراً على المكسيك.

والبعد، والأثلام، وفوهة البركان،
والصبار ذا الفروع الشوكية:
لم يبق أحد هناك، لقد ذهب الشبح،
لم يبق أحد نائماً في القسوة:
هناك النور فقط، وإبر الحَرَج،
وحضور نقي،
حضورك يا خواريث،
حضور سلامك الليلي العادل،
الحاسم، الحديدي، المرصع بالنجوم.

XXXIII

الريح فوق لينكولن

ريح الجنوب تنزلق أحياناً
على ضريح لينكولن[1] حاملة
أصوات وقذى مدن وأشجار
لا شيء يحدث في ضريحه، الحروف لا تتحرك
والمرمر يصبح ناعماً مع بطء القرون
فالفارس القديم ما عاد حياً
ولم يعد للثقب في قميصه القديم من أثر.
لقد اختلطت خيوط الزمن مع الغبار البشري.
أية حياة مثالية ملتزمة، تقول سيدة هرمة

---

١ ابراهام لينكولن : سياسي أميركي شمالي (١٨٠٩.١٨٦٥) . انتخب رئيساً للولايات المتحدة الأمريكية عام ١٨٦٠ . ثم أعيد انتخابه عام ١٨٦٤ . وقد اغتاله أحد دعاة التميز العنصري المتعصبين بعد انتصار الشمال في الحرب الأهلية الأمريكية .

من فرجينيا، مدرسة تنشد
وأكثر من مدرسة تنشد وهي تفكر بأمور أخرى.
ولكن ريح الجنوب، وهي روح الأرض والدروب،
تتوقف أحياناً عند الضريح.
شفافيته جريدة حديثة،
وتأتي ضغائن صماء، وحسرات مثل تلك،
والحلم الثابت المنتصر يقبع
تحت الأقدام الملوثة بالوحل التي مرت
تغني وتجر أثقالاً من الإجهاد والدم،
ففي هذا الصباح يعود الحقد إلى المرمر،
حقد الجنوب الأبيض يعود إلى العجوز النائم
بينما الزنوج وحدهم مع الرب في الكنيسة،
مع الرب كما يؤمنون به في الساحات.
وفي القطارات،
ثمة للعالم بعض الإعلانات
التي تقتسم السماء، والماء، والهواء.
أية حياة مثالية، تقول
الآنسة الرقيقة، وفي جورجيا يقتلون بالهراوى
فتى زنجياً كل أسبوع
بينما بول روبيسون[1] يغني مثل الأرض
مثل بدء البحر والحياة
يغني عن القسوة الوحشية وعن إعلانات
الكوكا ـ كولا، يغني للأخوّة

---

١ بول روبيسون، (١٨٩٩.١٩٧٦) مغن وفنان ومناضل زنجي من الولايات المتحدة، وهو من كبار المناضلين في سبيل حقوق الزنوج ومن أجل الحرية والسلام. لوحق بسبب أفكاره في فترة المكارثية.

من عالم إلى عالم بين العقوبات
يغني للأبناء الجدد، وليسمع الإنسان
وتُفلت اليد القاسية سوطها،
اليد التي يحاربها لينكولن.
اليد التي تنهض مثل أفعى بيضاء.
والريح
تمر الريح على الضريح محملة
بأحاديث، وبقايا قَسَم، وشيء
يبكي على المرمر مثل مطر ناعم،
مطر آلام قديمة، آلام منسية دفينة.
فقد قتلتْ كلان[1] «همجياً» بعد مطاردته،
علقوا الزنجي المسكين الذي كان يصرخ، وأحرقوه
حياً، ثقبوا جسده بالرصاص،
وهم وراء أقنعتهم لا يعرفون شيئاً،
هكذا يظن أولئك «الروتاريون»[2] الناجحون،
وما هم سوى جلادين جبناء،
وجزاري فضلات المال،
يعودون رافعين صليب «قابيل»
ليغسلوا أيديهم وليصلوا قداس الأحد
ثم يهتفون إلى مجلس الشيوخ ليقصّوا مآثرهم الخيرة.
من كل هذا لا يعرف الميت في «ايلينويس» شيئاً
لأن ريح هذه الأيام تتحدث بلغة عبودية

١ كلان : عصابة الكوكلس كلان ، منظمة إرهابية عنصرية تشكلت في الولايات المتحدة ، وكانت تقتل الزنوج بحرقهم أحياء .
٢ روتاريون : منتمون إلى "روتاري كلوب" ، وهي جمعية لرجال الأعمال ، تأسست في شيكاغو عام ١٩٠٥ .

لغة حقد وسلاسل.
ولم يعد تحت الصفائح من وجود للرجل،
إنه غبار انتصار مفتت
انتصار مقوض بعد فوز ميت:
ليس قميص الرجل هو الذي اهترأ وحسب،
وليس الثقب القاتل هو الذي يقتلنا فقط،
وإنما الربيع المتكرِّر، والزمان
الذي يقضم المنتصر بنشيده الجبان.
لقد ماتت قيم الأمس، وشاعت من جديد
رايات الأثيم الحانقة.
ثمة من يغني إلى جانب النصب،
إنه كورال تلميذات صغيرات، أصوات لم تنضج بعد
تصعد دون أن تلامس الغبار الخارجي
وتمر دون أن تنزل إلى الحطاب النائم،
إلى الانتصار الميت بين هالات التوقير،
بينما ريح الجنوب القديمة الساخرة، تبتسم.

XXXIV

مارتي (١٨٩٠)

كوبا، يا زهرة مُزْبدة، أيتها السوسنة
القرمزية الفوّارة، أيتها الياسمينة،
لكم هو شاق العثور، تحت الشباك المزهرة،
على فحمك القاتم الشهيد،
والتجاعيد القديمة التي خلّفها الموت،

والقروح المغطاة بالزبد.

ولكن فيكِ، مثل هندسة
ثلج منفوش، ناصعة،
حيث تتفتح آخر قشورك،
يرقد مارتي[1] مثل شجرة لوز نقية.

إنه في أعماق الهواء الدّوارة،
إنه في المركز الأزرق للأرض،
ويلتمع مثل قطرة ماء
نقاؤه الناعم مثل بذرة.

الليل الذي يكتنفه من زجاج.
النحيب والألم يصيران فجأة قطرات شرسة
تخترق الأرض لتصل إلى سور
الصفاء اللانهائي الراقد.

ويُنزلُ الشعب جذوره
عبرَ الليل أحياناً،
لتلامس الماء الساكن في دثاره المُخبأ.

---

١ خوسيه مارتي ، (١٨٥٢ـ١٨٩٥) شاعر وكاتب ومحام كوبي . ولد في هافانا . يعتبر بطل الاستقلال في وطنه . سُجن بسبب نشاطاته الثورية ونفي إلى إسبانيا عام ١٨٧١ ، وانتقل منها إلى المكسيك عام ١٨٧٥ ، ثم إلى غواتيمالا ، ومنها إلى بلاده . سافر من جديد بعد ذلك ليجول في عدد من بلدان أميركا اللاتينية ، ثم إلى نيويورك ، حيث أسس الحزب الثوري الكوبي عام ١٨٩٢ ، مات يوم ١٣ كانون الثاني ١٨٩٥ . بعد أن أصيب بجراح قاتلة في معركة "دوس ريوس" .

وأحياناً يمر الحقد النزق
يدوس المسطحات المزروعة
فيسقط ميتٌ في كأس الشعب.

وأحياناً، يعود السوط المدفون
ليصفر في هواء القبة
وتسقط إلى الأرض مثل ورقة الزهرة،
قطرة دم، وتنحدر إلى الميت.
ويصل كل شيء إلى البريق الطاهر.

الهزات الصغيرة تدق
أبواب المختبئ الزجاجية.

وكل دمعة تلامس تياره.

كل نار تهز كيانه.
وهكذا من المعقل الرابض
من البذرة الوافرة المختفية
يخرج مناضلو الجزيرة.
يأتون من نبع محدد.
يولدون من مسقط الماء البلّوري.

XXXV
بالماسيدا التشيلي (١٨٩١)

وصل مستر نورث قادماً من لندن.
إنه أحد سادة النيترات.
عمل من قبل فترة في البامبا
كعامل مياوم،
ولكنه وقف على الأمر، فذهبَ،
وها هو ذا يعود الآن،
محملاً بالجنيهات الإسترلينية.
ومعه جوادان عربيان أصيلان
وعربة بخارية صغيرة
من الذهب الخالص. إنها هدايا
للرئيس المدعو
خوسيه مانويل بالماسيدا[1]

« You are very claver Mr. North »[2]

يدخل «روبين داريو»[3] هذا البيت،

---

١ خوسيه مانويل بالماسيدا (١٨٣٨ ـ١٨٩١) سياسي تشيلي . انتخب رئيساً للجمهورية عام ١٨٨٦ ، وبقي في الحكم حتى عام ١٨٩١ ، عندما اضطر للانتحار بعد تمرد قام به بعض العسكريين بمساعدة من الشركات الإنكليزية التي كانت تستثمر ملح البارود والنحاس والثروات الباطنية التشيلية الأخرى . حقق بالماسيدا خلال رئاسته إصلاحات هامة ، أبرزها نشر التعليم وتأميم صناعة استخراج الثروات المعدنية ، مما أثار الشركات الاحتكارية البريطانية ضده ، فلجأت إلى تدبير الانقلاب الذي أودى بحياته .

٢ تتكرر هذه الجملة عدة مرات في القصيدة باللغة الإنكليزية ، ومعناها : "إنك بارع جداً يا مستر نورث" .

٣روبين داريو : شاعر وكاتب نيكاراغوي (١٨٦٧ـ١٩١٦) . وهو أول شاعر أمريكي لاتيني استطاع إدخال تطوير جذي إلى الشعر الناطق بالإسبانية وذلك بإخراجه من القوالب الرومنسية الكلاسيكية القديمة وتأسيس ماعرف بالحداثة الشعرية .Modernismo

يدخل هذه الرئاسة عندما يشاء.
حيث تنتظره زجاجة الكونياك.

ويصعد الشاب المكلل بضباب الأنهار،
الذي نفذت إليه الأصوات
يصعد السلالم الواسعة
التي سيصعب على مستر نورث صعودها.
لقد رجع الرئيس منذ قليل
من شمال ملح البارود الكئيب،
وهناك أعلن: «هذه الأرض، هذه الثروة
ستكون لتشيلي، وهذه المادة البيضاء
ستتحول إلى مدارس، إلى شوارع،
إلى خبز لشعبي.»
وها هو ذا الآن بين أوراقه، في القصر،
بقامته الرقيقة، بنظرته النافذة،
يتطلع إلى صحارى ملح البارود.

محياه النبيل لا يبتسم.

رأسه ذو الوجاهة الشاحبة،
كرأس ميت تاريخي،
كرأس أحد أجداد الوطن القدماء.

كل كيانه تفحّص وقور.

ثمة شيء، مثل هبة ريح باردة،
يعكر هدوءه، وحركته المتأملة.

رفضَ جوادي مستر نورث وآلته الذهبية.
وردها دون أن يراها،
إلى صاحبها، الغرينغو القوي.
وحرك يديه قليلاً بحركته الأبيّة:
«لاأستطيع الآن منحك هذه الامتيازات
يا مستر نورث،
لا أستطيع ربط وطني
بمصير الـ "سيتي"[1] الغامض».

وداوم مستر نورث في الـ «كلوب».
مائة ويسكي تمضي إلى مائدته،
مائة وليمة للمحامين،
للنواب، وشمبانيا
للتقليديين.
وهرع العملاء إلى الشمال.
وراحت الخيوط تأتي وتعود.
والليرات الإسترلينية الناعمة
تنسج مثل عناكب ذهبية
نسيجاً إنكليزياً أصيلاً،
لتفصّل لشعبي،
بزة من الدم، والبارود، والبؤس.

---

١ السيتي : تسمية تطلق على مركز مدينة لندن ، وهو الوسط المالي والتجاري في المدينة .

"You are very claver Mr. North"

وراح الظل يحاصر بالماسيدا.

وعندما أزف اليوم راحوا يشتمونه،
وأخذ الأرستقراطيون يستهزئون منه
وينبحون عليه في البرلمان،
ينتقدونه بشدة ويفترون عليه.
لقد أعلنوا الحرب، وكسبوها.
ولكن ذلك لا يكفي: يجب لوي
عنق التاريخ.
الكروم الطيبة «ذُبحت كالأضاحي»،
وملأ الخمر الليل المشؤوم.
ومضى الشبان المتأنقون
يؤشرون على الأبواب
لتأتي شرذمة من الأشقياء
وتهاجم البيوت، وتقذف بأجهزة
البيانو من الشرفات.
إنها نزهة أرستقراطية
قوامها الجثث التي ملأت السواقي
والشمبانيا الفرنسية التي تسيل في «الكلوب».

« You are vary claver Mr. North »

فتحت السفارة الأرجنتينية

أبوابها للرئيس.

في هذا المساء كان يكتب
بيده الرقيقة وهو رابط الجأش مثلما كان دائماً،
وقد أخذ الظل ينفذ إلى عينيه الواسعتين
كفراشة قاتمة،
منهكة الأعماق
وكان جلال جبهته
يخرج من العالم الموحش،
عالم حجرته الصغيرة،
ويضيء الليل البهيم.
إنه يكتب اسمه المشع،
ومقاطع طويلة
عن مذهبه المغدور.
إنه يمسك المسدس في يده.

تطلعَ عبر النافذة
نحو آخر قطعة من الوطن يراها،
وفكر في جسد تشيلي الطويل المترامي،
المظلم
كصفحة ليلية.
إنه يسافر، ودون أن يرى، تمر عيناه بسرعة،
كأنه وراء زجاج قطار،
بالحقول السريعة، والدساكر،
والأبراج، والآلام والأسمال.

لقد راوده حلم محدد،
أراد أن يغير وجه البلاد الممزق،
وأن يذودَ عن
جسد الشعب المستنزف.

لقد فات الأوان،
إنه يسمع أصوات طلقات متفرقة،
والصرخات الظافرة،
والهجمات الوحشية، وعواء «الأرستقراطيين»،
إنه يسمع الهمسة الأخيرة
والسكون العميق،
ويدخل معه، منحنياً، إلى عالم الموت.

XXXVI

إلى أميليانو زاباتا[1] مع موسيقى لـ «تاتا ناتشو»

عندما اشتدت الآلام على الأرض،
وصارت حقول الأشواك المخربة
هي ثروة الفلاحين،
وسادت، كما في الزمن الغابر، اللحى
الاحتفالية الجشعة، والسياط،
عندئذ، انتفضت زهرة ونار...

١ اميليانو زاباتا: (١٨٣٣-١٩١٩). قائد الثورة الفلاحية المكسيكية وواضع قوانين الإصلاح الزراعي. أعلن عام ١٩١١ عن "خطة ايالا" وهي عبارة عن برنامج للثورة أهم ما جاء فيه المطالبة بتوزيع الأرض على الفلاحين. وقد قُتل زاباتا في مكيدة مدبرة عام ١٩١٩.

أيتها الشملة أنا ذاهب
إلى العاصمة[1]

وانتصبت في الفجر الانتقالي
الأرض التي زعزعتها المُدى،
وهوى قن جحورها المريرة
مثل كوز ذرة ينفرط
على الوحشة الدُوارية.

لأطلب من السيد
الذي بعث من يستدعيني.

زاباتا صار عندها أرضاً وفجراً.
وفي الأفق كله بدت
حشود بذرته المسلحة.
وفي هجمة مياه وتخوم
أتى ينبوع «كواهيلا» الحديدي،
وأحجار «سونورا» النجمية:
كلها أتت إلى خطوته المتقدمة،
إلى عاصفته الزراعية ذات الحدوات.

إذا ما ذهب من القرية
فقريباً جداً سيعود

---

١ هذه الفقرة وجميع الفقرات المكتوبة بخط متميز بين مقاطع القصيدة هي أبيات متفرقة من أغنية شعبية مكسيكية.

وزع الخبز والأرض:
وأنا معك.
إني أتخلى عن أهدابي السماوية
إني ذاهب يا زاباتا مع ندى
الخيالة المبكرة
في طلقة نارية من بين أشواك الصبار

حتى البيوت ذات الجدران الوردية.
... شرائط جميلة لشعركِ

فلا تبكِ على رجلك...
القمر ينَام على المطَايا.
والموت المتراكم والمُوزَع
يربض مع جنود زاباتا.
والحلم يُخبئ مصيره
في معاقل الليل الثقيل،
يخبئ سهله الكئيب المُحْتَضِن.
والمحرقة تجمع الهواء المسهد:
شحماً، عرقاً، وغباراً ليلياً.

... أيتها النملة أنا ذاهب
لأنساكِ...

طالبنا بوطنٍ للمهان
سكينك تُقَسِّم الميراث،

والرصاص والخيول تُرعب
لحية الجلاد
والأرض تُوَزع بالبندقية.
لا تنتظر أيها الفلاح المعفر،
فبعد عرقك النور المكتمل،
السماء الموزعة في ركبتيك.
هيا انهض وامتط جوادك وانطلق مع زاباتا.

... أردت إحضارها معي
لكنها رفضتْ...

أيتها المكسيك، أيتها الفلاحة الجموح،
أيتها الأرض المحبوبة المقتسمة بين المظلمين:
من سيوف الذرة خرج رجالك
المضمخون بالعرق صوب الشمس.
وأنا، من ثلج الجنوب آت لأغنيك.
فدعيني أحبُ في قَدَرك
وأمتلئُ ببارودكِ وترابك.

... إذا كان لا بد من البكاء
فلماذا نعود...

XXXVII
ساندينو

وعندما دفنوا في أرضنا
الصلبان المحترفة التي استُهلِكتْ دون جدوى،
وصل الدولار ذو الأسنان العدوانية
ليقضم الأراضي،
في حنجرة أميركا الرعوية.
أمسك «بنما» بزرد قاس،
وغرس أنيابه في الأرض الطازجة،
لطخها بالوحل، بالويسكي، بالدم،
ونصّب رئيساً ببزة رسمية:
«كن معنا السيد
سيد كل يوم.»
بعد ذلك، أتى الفولاذ،
وقَسمت القناةُ أماكن الإقامة:
هنا الأسياد، وهناك العبيد.

ثم هرعوا نحو نيكاراغوا.

نزلوا وهم يرتدون الأبيض،
ويقذفون بالدولارات والرصاص.
ولكن، ظهر، هناك قائد
وقال: «لا، لن تضع هنا

امتيازاتك، وزجاجاتك. »
وعدوه بمنصب رئيس، بقفاز
ووشاح ثلاثي، وحذاء لامع
جديد.
فخلع ساندينو[1] نعليه،
وغاص في المستنقعات المعكرة،
وجعل وشاح الحرية
المبلل في الغابات ثلاثياً
وطلقة بطلقة
رد على «المتحضرين».

الغيظ الأميركي الشمالي
كان بلا حدود:
سفراء مفوضون أقنعوا العالم
بأن نيكاراغوا هي حبهم،
وأنه لا بد للنظام
من الوصول يوماً
إلى أعماقها الحالمة.

علّق ساندينو الدخلاءَ.
وأبطالُ الوول ستريت،
أكلتهم المستنقعاتُ،
والبرقُ الخاطف قتلهم،

---

١ أوغوستو سيسر ساندينو :(١٨٩٥.١٩٣٤) جنرال ووطني نيكاراغوي ، قاد الثورة ضد الاحتلال الأمريكي الشمالي لبلاده ما بين عامي ١٩٢٧ و١٩٣٣ ، و قُتل غدراً على يد عميل نيكاراغوي يدعى انستاسيو سوموزا .

وأكثر من منجل حصدهم،
وأنشوطة مثل أفعى
أيقظتهم في الليل،
وعُلّقوا على شجرة
وحملتهم ببطء
الجوارح الزرقاء
والنباتات المتسلقة الشرهة.

كان ساندينو في الصمت،
في ساحة الشعب، في كل مكان
كان ساندينو،
يقتل الأمريكيين الشماليين،
ويقاصُّ الغزاة.
وعندما أتى الطيران،
وهجوم الجيوش
المدرعة، ودمار قوى السحق،
أصبح ساندينو وفدائيوه،
مثل طيف الغابة،
أصبح شجرة ملتفة على نفسها،
أو سلحفاة نائمة
أو جدولاً ينساب.
ولكن الشجرة، السلحفاة، الجداول،
كانت هي الموت المنتقم،
وكانت أنظمة الغابة،
وآثار عنكبوت فانية.

(في عام ١٩٤٨
كان في اليونان،
محارب، من فرقة إسبارطة،
كان إناء نور يهاجمه
مرتزقة الدولار.
ومن الجبال كان المحارب يطلق ناره
على أخطبوطات شيكاغو،
ومثل ساندينو، بطل
نيكاراغوا، أطلقوا عليه اسم:
«قاطع الطريق في الجبال»)

وعندما لم تستطع النار
والدماء والدولارات أن تحطم
برج ساندينو الشامخ،
وافق محاربو وول ستريت على السلام،
ودعوا الفدائي ليحتفل معهم بذلك،

وقام خائن اشتروه حديثاً
فأطلق عليه نيران غدارته.
اسم الخائن «سوموزا»[1]. وما زال حتى اليوم
يتربع على عرش نيكاراغوا:

---

١ انستاسيو سوموزا، (١٨٩٦-١٩٥٦) جنرال نيكاراغوي، اغتال القائد الوطني ساندينو. وكافأه الأمريكيون بتنصيبه رئيساً على البلاد. وبعد مقتله عام ١٩٥٦ تسلم السلطة ابنه لويس الذي حكم البلاد حتى وفاته عام ١٩٦٧، فورث الرئاسة عنه شقيقه انستاسيو الذي استمر في الحكم إلى أن أطاحت به الثورة الساندينية عام ١٩٧٩. وقد تصرف آل سوموزا بالبلاد خلال حكمهم كما لو كانت إقطاعية من أملاكهم.

الدولارات الثلاثون تضاعفت
وتضخمت في كرشه.

هذه هي قصة ساندينو،
قائد نيكاراغوا،
التَجسيد المُلهم
لترابنا المغدور،
لترابنا المُجزأ، المغتصب،
المعذب، المنهوب.

XXXVIII

نحو ريكابارين[1]

(١)

الأرض، معادن الأرض، السناء
المتماسك، السلام الحديدي
الذي قد يصير حربة، مصباحاً
أو خاتماً،
المادة النقية،
حركة الزمن، تحية
الأرض العارية.

المعدن كان مثل نجمة

---

١ لويس اميليو ريكابارين ، (١٨٧٦.١٩٢٤) عامل طباعة ومناضل عمالي تشيلي . بعد سنوات من النضال النقابي . أسس الحزب الاشتراكي العمالي عام ١٩١٢ . وهو الحزب الذي أصبح يحمل منذ عام ١٩٢٢ اسم الحزب الشيوعي التشيلي .

غارقة مدفونة.
وبضربات الكوكب
خُبئ الضوء، غراماً بعد غرام
وغطّت المحيطَ
طبقةٌ خَشنةٌ، وطينٌ، ورمالٌ.

ولكنني أحببت أملاحك، سطحك الظاهر،
مزاريبك، أهدابك، قامتك.

في قيراط النقاء الصلب
غنتْ يدي: وفي أغنية الزفاف الرعوية،
أغنية الزمرد جاء ذكرك،
وفي فجوة الحديد وضعت وجهي يوماً
إلى أن انبعثتُ هوةً، مقاومةً، تَراكماً.

ولكني ما كنت أعرف شيئاً.
أما الحديد والفحم وأملاح فكانت تعرف.

كل تويج زهرة ذهبية انتزع بالدم.
وكل معدن له جنديّة.

(٢)

النحاس

أنا ذهبتُ إلى أرض النحاس، إلى تشوكيكاماتا[١].

١ تشوكيكاماتا : منطقة في تشيلي ، فيها أكبر مناجم النحاس وأقربها إلى سطح الأرض في العالم .

كان الوقتُ مساءً في الجبال.
والهواءُ مثلَ كأس
باردة، ذات شفافية جافة.
لقد عشتُ قبلاً في مراكب كثيرة،
ولكن، في ليل الصحراء
كان المنجم الضخم يتألق
مثل مركب يسد السبل
مع ندى تلك المرتفعات
الليلية المبهر

أطبقتُ عينيَّ: كان النعاس والليل
يمدان أجنحتهما الغليظة نحوي
مثل طير عملاق.
وبين رجةٍ ورجة،
وبينما السيارة تتراقص،
كانت النجمة الزائفة،
الكوكب الثاقب، مثل حربة،
تقذفني بشهاب متجمد
من نار باردة، من وعيد.

(٣)

الليل في تشوكيكاماتا

كان الليل قد تقدم، ليل عميق،
مثل جوف ناقوس فارغ.
وأمام عينيَّ رأيتُ الجدران التي لا تهدأ،

والنحاس المفتت في الهرم.
لقد كان أخضرَ اللون دمُ هذه الأرض.

عالية حتى الكواكب المضمخة
كانت التراكمات الليلية الخضراء.
وقطرة قطرة بدأ يتشكل بقوة الإنسان
حليب الفيروز،
فجر الصخر،
وراح يشع في المدى،
في أرض النجوم المفتوحة
أرض الليل الرملي كلها.

خطوة خطوة رافقني الظل عندئذ
وقادني
من يدي نحو النقابة.
كان شهر تموز
في تشيلي، في الفصل البارد.
وإلى جانب خطواتي، كانت أيام كثيرة
(أو قرون) (أو مجرد شهور
من النحاس، من الحجارة والحجارة والحجارة،
يعني، من جحيم الزمن:
من الأزل المستند
إلى يدٍ كبريتورية)،
كانت تمضي خطوات وأقدام أخرى
لم تعرف سوى النحاس.

كان حشداً يقطر عرقاً،
كانوا جوعاً وأسمالاً ووحشة،
أولئك الذين يحفرون المناجم
ولم أر في تلك الليلة
استعراض جراحهم التي لا تعد ولا تحصى
إلى جانب المنجم القاسي.

فقد كنت عندها واحداً من هذه الآلام.

فقرات النحاس كانت مبللة،
ومكشوفة بضربات العَرق
تحت الضوء اللانهائي، ضوء هواء الأنديز.
حيث حفر الإنسان دهاليز
وأروقة مسرح خاوٍ،
للتنقيب عن العظام المنجمية،
عظام التماثيل المدفونة منذ قرون.
ولكن الجوهر الصلب،
والصخر في قوامه، وانتصار
النحاس فرَتْ مخلفة فوهة
بركان منتظم، وكأن ذلك التمثال،
تلك النجمة الخضراء،
قد انتزع من صدر إله معدني
ليترك فتحة شاحبة محفورة في الأعلى.

(٤)

التشيليون
هذا كله كانته يدك.

يدك كانت ظفر المواطن المنجمي،
و«المهان» المغلوب على أمره،
ظفر الصنف البشري المُدوس،
والرجل الضعيف ذا الأسمال.
يدك كانت الجغرافيا:
وهي التي حفرت فوهة بركان الديجور الأخضر هذه،
وأسست كوكباً من حجارة أوقيانوسية.

يدك التي مضت بين الورش
مستخدمة الرفوش المكسرة
وباثة البارود في كل مكان
مثل بيوض دجاجة باعثة على الصمم.

إنها فوهة بركان بعيدة الغور:
حتى أن عمقها يظهر للعيان
من القمر المكتمل
إنها فوهة حفرتها الأيدي
يد شخص يدعى «رودريغز» وآخر يدعى «كراسكو»،
يد شخص يدعى «دياز أتوريتا»،
أو «اباركا»، أو «غومز سينادو»،
يد تشيليٍّ ما، اسمه «ألف».

كل هذا الاتساع، حفره
التشيلي، ظفراً بعد ظفر،
ويوماً بعد يوم، وخريفاً بعد خريف،
بقوة يده، بسرعة،
في جو المرتفعات الخامد،
أخذه من الصلصال،
وأقره بين المناطق.

(٥)

البطل
ليس الصعود الهائج للأصابع الكثيرة وحسب،
وليس الرفش وحده،
أو الذراع، أو الورك،
أو ثقل الإنسان كله ونشاطه:
وإنما الآلام أيضاً، والتردد، والغضب
هي التي حفرت سنتمترات المرتفع الكلسي
بحثاً عن أوردة النجمة الخضراء،
وعن نهايات النيازك
الدفينة المشعة.

من الإنسان المُستنزَف في هوته
وُلدت الأملاح الدموية.
لأن «رينالدو» العدواني،
يبحث عن الحجارة،
و«سيبولبيدا» اللامحدود، ابنك،

وابن أخت عمتك «ادوفيخيس رِخاس»،
البطل الملتهب، هو الذي يقوّض
الجبل المعدني.

وهكذا كان أن تعرّفتُ،
ودخلتُ كما لو كنت أدخل إلى أصول
الأعماق الرحمية،
دخلت في الأرض والحياة، وراحت تهزمني:
إلى أن اختزلتني في إنسان، في ماء
دموع نوازل رسوبية،
في دماء فقبرة متورطة،
في عَرقٍ يقطر على التراب.

(٦)

مهن

في أوقات أخرى، ونحن في «لافيرت» النائية،
دخلنا إلى «تاراباكا»،
من «اكيكي» الزرقاء المنسية[١]،
عبر التخوم الرملية.

وعرضَ علي «إلياس» رفوش الحفارين،
كل إصبع من أصابع الإنسان
ترك أثره على عصا الرفش الخشبية:

---

١ لافيرت، تاراباكا، اكيكي، مناطق منجمية في تشيلي.

لقد حفر احتكاك الأنامل الخشبَ،
لقد صهر ضغط تلك الأكف
صَوان الرفوش،
وهكذا شقوا الممرات
بين التراب والصخور، بين المعادن والأكاسيد،
بهذه الأظفار المعذبة،
وهذه الأحزمة المسودة
في الأيدي التي تحطم كوكباً،
وترفع الأملاح حتى السماء،
قائلة، كما في الحكاية،
كما في القصة السماوية:
«اليوم هو أول أيام الأرض.»

وهكذا صعد ذاك الذي لم يثره أحد من قبل
(قبل يوم النشوء ذاك)،
صعد فوق النموذج الأولي للرفش،
ارتفع فوق قشور الجحيم،
وسيطر عليها بيده
الخشنة المتوقدة،
فاتحاً أوراق الأرض،
وتبدى بقميصه الأزرق،
ذاك القائد ذو الأسنان البيضاء،
فاتح ملح البارود.

(٧)

الصحراء

جاءت ظهيرة الرمال الكبرى القاسية
العالم عارٍ،
فسيح، قاحل ونظيف
حتى آخر الحدود الرملية:
أنصتْ إلى الصوت الصادر
عن الملح الحيّ، وحيداً في الملاّحات:
الشمس تحطم بلّوراتها في الاتساع الخاوي
والأرض تحتضرُ مع الحشرجة الجافة
والمخنوقة للملح الذي يئن.

(٨)

(الليلي)

تعال إلى محيط الصحراء،
إلى الليل الفضائي العميق في البامبا،
إلى الطوق الليلي، إلى الفضاء والكواكب،
حيث منطقة أشجار "التاماروغو"[١] تجتني
كل الصمت التائه في الزمان.

ألف عام من الصمت في كأس من كلس أزرق،
من بُعدٍ، ومن قمر،
تصنع جغرافية الليل العارية

---

١ تاماروغو : شجرة شبيهة بالخروب ، تنمو في منطقة سهوب البامبا .

إني أُحبّك يا أرضاً صافية،
مثلما أحببَتُ أشياء كثيرة متناقضة:
الوردةَ، والشارع، والوفرةَ والطقس.

إني أُحبّك يا أُخت الأقيانوس الطاهرة.
هذه المدرسَة الخاوية كانت صعبة بالنسبة لي
لأن الإنسان، والجدار، والنبتة كانوا غائبين،
فلم أستند إلى شيء.

كنتُ وحيداً
والحياة كانت سهلاً وعزلة.
وكان هذا هو صدر العالم الرجولي.
فأحببت نظام شكلك المستقيم،
ودقّة فراغك الشاسع.

(٩)

القفر

في القفر كان الإنسان يحيا،
يعض التراب، متلاشياً.
لقد مضيت فوراً إلى جُحْرٍ،
وأدخلت يدي بين القمل،
وسرت بين خطوط السكة الحديد
حتى الصباح الكئيب، ونمتُ على ألواح الخشب القاسية،
نزلتُ من العمل في المساء،
واكتويت بالبخار واليود،

ضغطتُ على يد الرجل،
وتحدثت إلى المرأة البائسة،
دخلتُ أبواباً بين الدجاج،
وبين الأسمال، وسط رائحة
الفقر الكاوي.

وعندما جمعتُ كل هذه الآلام،
عندما التقطت كل هذا الدم
في طاسة الروح،
رأيت رجلاً قادماً من الفضاء النقي
في أراضي البامبا الفسيحة.
رجل مجبول من تلك الرمال،
وجه ثابت ومتسع،
بزة على الجسد العريض،
وعينان نصف مغمضتين
كمصباحين لا سبيل إلى إخمادهما.

«ريكابارين» كان اسمه.

XXXIX
ريكابارين

كان اسمه ريكابارين.

دمث، جسيم، رحيب،

نظرة صافية، جبهة ثابتة،
هدوءه الفسيح يغطي،
مثل الرمال الكثيرة،
مواطن القوة فيه.
تطلعوا إلى سهوب البامبا الأمريكية
(أنهار متشعبة، ثلوج ناصعة،
شروخ حديدية)
إلى بيولوجيا تشيلي المحطمة،
مثل أغصان مقتلعة، مثل ذراع
بعثرتْ فقرات أصابعها
حركة العواصف.

فوق المناطق العضلية
مناطق المعادن والنيترات،
فوق العَظَمة الرياضية
عظمة النحاس المستخرج حديثاً،
يحيا الساكن الصغير
متكوماً في الفوضى،
بعَقْدٍ مُسْتعجَل،
مليء بأطفال رثين
ممددين في صحارى
السطح المالح.

إنه التشيليّ المُستنزَف
بالبطالة أو الموت.

إنه التشيلي الصلب
الباقي على قيد الحياة بصعوبة في الأعماق
أو المكفن بالأملاح.

إلى هناك وصل قائد الشعب هذا،
حاملاً منشوره.
وأمسك بالمعزُول المُهان
الذي يلف بأغطيته الممزقة
أولاده الجائعين،
ويذعن للمظالم
الدموية، وقال له:
«ضُمَّ صوتك إلى صوت آخر»،
«مدَّ يدك إلى يد أخرى.»
ومضى في أرجاء ملح البارود
المشؤومة، وملأ البامبا
بمكانته الأبوية،
وفي المخبأ السري
رأته جميع المناجم.
أتى كل «ديك» مضروب.
أتت كل حسرة من الحسرات،
ودخلوا مثل أشباح
بأصوات شاحبة منهارة،
وخرجوا من بين يديه
بوقار جديد.
لقد عُرِفَ في كل أنحاء البامبا.

ومضى في الوطن بأسره
يصهر الشعب، ويرفع
القلوب الكسيرة.
دخلتْ منشوراته المطبوعة حديثاً
إلى أنفاق مناجم الفحم،
وصعدتْ إلى النحاس،
وقبّلَ الشعبُ أعمدةَ الصحف
التي حملت للمرة الأولى
صوت المظلومين.

نَظمَ العزلات.
وحمل الكتب والأناشيد
حتى جدران الرعب،
ضَم الشكوى إلى الشكوى،
فأصبح للعبد الذي بلا اسم وبلا فم،
وللآلام المديدة،
أصبح لها اسم، صار اسمُها شعباً،
بروليتاريا، نقابةً،
صار لها كيان وموقف.

وهذا الساكن المتحول
الذي تكون في خضم المعركة،
هذا الجهاز الباسل،
هذا المشروع الذي لا يلين،
هذا المعدن الراسخ،

هذا المُوحد للآلام،
هذا الحصن للإنسان،
هذا الطريق إلى الغد،
هذا الجبل الذي بلا نهاية،
هذا الربيع المزهر،
سلاح الفقراء هذا،
خرجَ من تلك الآلام،
خرج من أعمق أعماق الوطن،
من أقسى وأصلب وأنبل ما في الوطن،
ومن أكثر ما فيه خلوداً
وسُمي الحزب.
الحزب
الشيوعي.
هكذا صار اسمه.
كان الصراع عظيماً.
وانقضَ سادة الذهب عليه كطيور الرخمة.
وحاربوه بالافتراءات:
«هذا الحزب الشيوعي
تدفع له البيرو،
تدفع له بوليفيا، وجهات أجنبية.»
وانقضوا على المطابع،
المقتناة قطرة قطرة
من عَرقِ المناضلين،
هاجموها، حطموها،
أحرقوها، وبعثروا

حروف الشعب المطبعية.
لاحقوا ريكابارين.
منعوه من الدخول ومن المرور.
ولكنه جمع بذرته
في وهاد الصحراء
وراح يذود عن معقله.

عندئذ، أراق رجال الأعمال
الأمريكيون والإنجليز، وعملاؤهم
من محامين، وشيوخ،
ونواب، ورؤساء،
أراقوا الدماء على الرمال،
وحاصروا، وقيدوا،
واغتالوا أبناء جلدتنا،
قوة تشيلي العميقة
وتركوا على جانبي الدروب
في صحراء البامبا الفسيحة الصفراء،
صلباناً لعمال رموهم بالرصاص،
وجثثاً مكدسة
في ثنايا الرمال.

ومرة في «إكيكي»، على الشاطئ،
جمعوا الرجال الذين طالبوا
بالمدارس والخبز.
حاصروهم هناك

في فناء واسع، وأعدّوهم
للموت.
أطلقوا النار
من رشاشاتهم الصافرة،
ومن بنادقهم المعدة سلفاً،
على حشد العمال النيام المكدسين.
وسال الدم كنهر
ليغمر رمال إكيكي الشاحبة،
وهناك ما تزال الدماء الشهيدة
تسطع عبر السنين
مثل تويج زهرة لا يخمد.
ولكن المقاومة لم تمت.
والنور الذي نظمته يدا
ريكابارين، والرايات الحمراء
انطلقت إلى المدن وإلى الأثلام،
ودارت مع عجلات سكة الحديد،
واعتلت قواعد الأسمنت المسلح،
واكتسحت الشوارع، والساحات، والضياع،
والمصانع المختنقة بالغبار،
والقروح التي يغطيها الربيع:
وغنت للنصر وناضلت له
في وحدة الزمن المشرق.

كم من الوقت مضى منذ ذلك الحين.
وكم من الدماء سالت على الدماء،

وكم من النضالات هبت على الأرض.
ساعات من الفتوح الرائعة،
وانتصارات مكتسبة قطرة بعد قطرة،
وشوارع مهانة، مهزومة،
ومناطق مظلمة كالأنفاق،
وخيانات بدت وكأنها
تقطع الحياة بحدها،
وقَمع مسلح بالحقد

ومتوج عسكرياً.

كلها بدت وكأنها تُغرق الأرض.

ولكن النضال استمر.

رسالة (١٩٣٩)
في هذه الأيام يا ريكابارين،
أيام الاضطهاد والمطاردة،
في مرارة إخوتي المبعدين،
الذين يحاربهم الطاغية،
في هذه الأيام، والحقد يلف الوطن،
الذي جرحه الاستبداد،
أتذكرُ نضالك الرهيب
في السجون،
أتذكرُ خطواتك الأولى، ووحدتك

التي كوحدة برج شامخ
وأتذكرك وأنت خارج من القفر،
عندما أتاك رجل ثم آخر
ليشكلوا معاً عجينة
للخبز البائس المحمي
بوحدة الشعب الجليل.

أبو تشيلي

ريكابارين، يا ابن تشيلي،
يا أبا تشيلي، يا أبانا،
في بنائك، في خطك
المتصلب من الأرض والمعاناة
تولد قوة الأيام
الآتية الظافرة.

أنت الوطن، السهل، الشعب،
التراب، الطين، المدرسة، البيت،
الانتفاضة، القبضة، الاقتحام،
النظام، الاستعراض، الهجوم، القمح،
النضال، الرفعة، المقاومة.

تحت أنظارك يا ريكابارين
نقسم بأن ننظف جراح
البتر في الوطن.

نقسم بأن نجعل الحرية
ترفع رايتها العارية
على الرمال المهانة.

نقسم بأن نكمل طريقك
حتى انتصار الشعب.

XL

برستيس البرازيلي

أيتها البرازيل الجليلة، لكم أنا راغب
في الاستلقاء في حضنك،
ولف نفسي بأوراقك العملاقة،
في تطور نباتي، في فتات
الزمن الحي: لأترصَّدك،
أيتها البرازيل، من الأنهار
الكهنوتية التي تغذيك،
ولأرقص على السطوح
تحت ضوء القمر النهري، وأُقَسم نفسي
بين أراضيك المهجورة
وأرى الحيوانات الغليظة المحاطة
بطيور معدنية بيضاء
تولد خارجة من الوحل.

---

١ لويس كارلوس برستيس : قائد ثوري . وبطل وطني برازيلي ولد عام ١٨٩٨ . وخاض نضالاً أسطورياً لتحرير شعبه . يمكن الاطلاع على تفاصيل سيرته في رواية "فارس الأمل" للروائي البرازيلي جورج آمادو .

كم من الأفكار تمنحينني.
أودُ الدخول مجدداً عبر alfandega[1]
والخروج إلى الحارات، لأشم
رائحة طقوسك الغريبة، ثم لأنزل إلى مراكزك المزدحمة،
إلى قلبك المعطاء.

ولكني لا أستطيع.

ذات مرة في «باهيا»،
أعطتني نساء الحي البائس،
الذي كان سوقاً للنخاسة،
(حيث تعيش اليوم العبودية الجديدة، والجوع،
والأسمال، والحالة المؤلمة،
كلها تعيش كما في السابق على الأرض نفسها)،
أعطينني بضع زهرات ورسالة،
بضع كلمات رقيقة وبضع زهرات.

لا أستطيع أن أبتعد بصوتي عن المتألمين.
وأعرفُ ما تمنحني إياه
ضفافك الطبيعية
من حقيقة غير مرئية.
وأعرفُ أن الزهرة السريّة
وحشود الفراشات الهائمة،

---

١ alfandega : كلمة برتغالية تعني "الجمارك" أو مراكز الدخول والخروج على الحدود .

وكل الخمائر المُخصبة
للحياة والغابات
تنتظرني مع نظريتها
ذات الرطوبة التي لا تنفد.

ولكنني لا أستطيع، لا أستطيع
سوى أن أستخرج مرة أخرى من صمتك
صوت الشعب،
وأرفعه مثل الريشة
الأكثر التماعاً في الغابة،
وأضعه بجانبي، أقيده
إلى أن يغني من شفتي.

لهذا أرى برستيس وهو يسير
نحو الحرية، نحو الأبواب
التي تبدو مغلقة فيكِ أيتها البرازيل،
الأبواب التي تبدو مُسَمرة إلى الألم، ولا سبيل إلى النفوذ منها.
أرى برستيس، وطابوره الظافر
برغم الجوع، يخترق الغابة،
نحو بوليفيا، يطارده الطاغية
ذو العينين الشاحبتين.
أراه وهو يعود إلى شعبه
ويقرع ناقوسه النضالي
فيسجنونه، ويُسلمون رفيقته

إلى جلاد ألمانيا البُنّي[1]

(أيها الشاعر، يا من تبحث في كتابك
عن الآلام الإغريقية القديمة،
عن الآلهة المقيدين
باللعنات القديمة،
يا من تركض بأهدابك المائلة
وراء الآلام المخترعة،
ولا ترى أمام بيتك بالذات
المحيطات التي تصفع
صدر الشعب الأسود.)
تحت التعذيب ولدت ابنتها.
أما هي، فقد اختفت
تحت حد الفأس، أو في حجرة الغاز،
أو ابتلعتها مستنقعات الجستابو
القاتلة.
آه، أيها المعذب
آه، أيها السجين! آه، أيتها الآلام
الفظيعة المفصولة
عن قائدنا الجريح!
(أيها الشاعر، اشطب من كتابك

---

١ الإشارة هنا إلى المناضلة "أولغا بيناريو برستيس" ، زوجة برستيس ورفيقة نضاله ، فقد اعتقلتها الشرطة البرازيلية وسلمتها إلى جهاز الجيستابو النازي لكونها من أصل ألماني . وكانت حبلى ، فوضعت طفلتها في السجن ، ثم اختفت في المعتقلات النازية الرهيبة .

أخبار «بروميثيو»[١] وقيوده.
فليس للأسطورة القديمة
مثل هذه العَظَمة الكاوية،
ليس فيها هذه المأساوية المرعبة.)

إحدى عشرة سنة سجنوا برستيس
وراء قضبان الحديد،
في صمت الموت،
دون أن يجرؤوا على اغتياله.

لا أخبار عنه لشعبه
فالطغاة يمحون اسم برستيس
في عالمهم الأسود.

إحدى عشرة سنة واسمه مكمم.
عاش اسمه مثل شجرة
وسط شعبه،
موقراً، مُنْتَظَراً.

إلى أن أتت الحرية
بحثاً عنه في سجنه،
وخرج مجدداً إلى النور،

---

١ بروميثيوس: إله النار عند الإغريق. والإشارة هنا إلى الأسطورة التي تقول إن زفس غضب من بروميثيوس، فأمر بأن يُسمر على جبل القفقاس، فيقتات عقاب من كبده. وكلما أكل منها تجددت. وتقول الأسطورة إن هرقل هو الذي حرر بروميثيوس من العذاب.

محبوباً، ظافراً، حليماً
مجرداً من كل الأحقاد
التي صبّوها فوق رأسه.

أذكر أنني كنت معه
عام ١٩٤٥، في ساو باولو.
(رشيق وثابت الجأش،
وشاحب كالعاج

المدفون في الخزان،
رقيق كنقاء الهواء في العزلات،
نقي كالكبرياء
المحفوظ في الألم.)
وتحدث يومها، للمرة الأولى،
إلى شعبه، في باكايمبو.
مدرج الستاد الرياضي الضخم كان ينبض
بمئة ألف قلب أحمر
تنتظر رؤيته، ملامسته.
ووصل في موجة من الغناء والحنان لا سبيل إلى وصفها،
مئة ألف منديل لوحت في الهواء
مثل غابة ترحيب.
وتطلع بعينيه العميقتين
وهو إلى جانبي،
عندما رحت أقول:

XLI

قلتُ في «باكايمبو»[1]

(البرازيل ١٩٤٥)

كم من الأشياء أود قولها اليوم، أيها البرازيليون،
كم من القصص، من النضالات، من الانتكاسات، من الانتصارات
حملتها طوال سنوات في قلبي لأقولها لكم،
كم من الأفكار وكم من التحيات.
تحية من ثلوج الأنديز،
تحية من المحيط الهادي، وكلمات قالها لي
لدى مروري العمال، والمنجميون، والبناؤون،
وأهالي وطني البعيد كلهم.
ما الذي قاله لي الثلج، والغيمة، والراية؟
أي سرّ قاله لي البحار؟
ما الذي قالته الطفلة الصغيرة وهي تقدم لي حزمة سنابل؟

كلهم حمّلوني رسالة، وكانت الرسالة:
تحية إلى برستيس.
قالوا لي: ابحثْ عنه في الغابة أو في النهر.
أُدخل المعتقلات، وابحث عن زنزانته، وناده.
وإذا لم يسمحوا لك بالحديث معه، فتأمله حتى تتعب

---

١ باكايمبو ؛ الاستاد الرياضي الكبير في سان باولو . ولهذه القصيدة أهمية خاصة عند الشاعر ، فقد ألقاها أمام حشد مؤلف من أكثر من مئة ألف شخص ، احتشدوا في الستاد الضخم لتحية برستيس بعد خروجه من المعتقل . وقد ألقى نيرودا القصيدة بلغته الإسبانية أمام الجمهور البرازيلي الناطق بالبرتغالية ، ووجد تجاوباً وتواصلاً أذهلاه .

وارو لنا غداً ما رأيت.

كم أنا فخور اليوم برؤيته محاطاً
ببحر من القلوب الظافرة.
وسأمضي إلى تشيلي لأقول: لقد حييته
في هواء رايات شعبه الحرة.

أذكرُ في باريس، ومنذ سنوات، أني تحدثتُ
في الليل إلى حشود غفيرة،
كنتُ هناك لأجمع المساعدات
لإسبانيا الجمهورية، للشعب في نضاله.
وكانت إسبانيا مليئة بالأنقاض والأمجاد.
واستمع الفرنسيون إلى ندائي واجمين.
طلبتُ منهم المساعدات باسم كل ما له وجود
وقلت لهم: إن هؤلاء الأبطال الجدد،
هؤلاء الذين يناضلون ويموتون في سبانيا،

أمثال موديستو، ليستر، باسيوناريا،
ولوركا،
هم أحفاد أبطال أميركا،
هم أخوة بوليفار، أوهيجينس، سان مارتين، وبرستيس.
وما إن نطقت باسم برستيس
حتى انتشر مثل عبق عظيم
في هواء فرنسا: باريس حيته
وتطلع العمال المسنون بعيونهم المخضلة

نحو أعماق البرازيل، ونحو إسبانيا.

سأروي لكم حكاية قصيرة أخرى.

قريباً من مناجم الفحم، المتوغلة صوب البحر
في تشيلي، في ميناء تالكاهوانو البارد،
وصلتْ يوماً، منذ زمن بعيد، باخرة شحن سوفيتية.
(ولم تكن لتشيلي حينئذ علاقات
مع اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية.
ولهذا، منعت الشرطة الغبية
البحارة الروس من النزول إلى البر،
والتشيليين من الصعود إلى السفينة.)
وعندما حلّ الليل
أتى عمال المناجم بالمئات، من المناجم الكبرى.
رجال، نساء، أطفال،
أتوا من التلال وهم يحملون
مصابيح المناجم الصغيرة،
واستمروا طوال الليل يضيئون مصابيحهم
ويطفئونها
تحية للسفينة القادمة من الموانئ السوفيتية.

تلك الليلة المظلمة امتلأت بالنجوم:
بنجوم بشرية، بمصابيح الشعب.

واليوم أيضاً من جميع أنحاء بلادنا الأمريكية،

من المكسيك الحرة، من البيرو الظامئة،
من كوبا، من الأرجنتين العامرة،
ومن الأرغواي، مأوى الإخوة المطارَدين،
الشعب يحييك يا برستيس بمصابيحه الصغيرة
التي تسطع فيها آمال الإنسان السامية.
ولذا بعثوا بي عبر الأثير الأميركي،
لأراك وأقص عليهم
كيف أنت، وما الذي يقوله قائدهم
بعد صمت سنوات قاسية في العزلة والظل.

سأقولُ لهم بأنك لا تحمل حقداً.
وأن ما تريده هو الحياة لوطنك.
وأن تنمو الحرية في أعماق البرازيل
مثل شجرة خالدة.

أريد أن أروي لكِ أيتها البرازيل أموراً كثيرة صامتة،
حملتُها هذه السنوات بين جلدي وروحي،
عن الدم، والآلام، والانتصارات،
الأمور التي على الشعراء والشعب قولها:
ولكني سأفعل في مرة أخرى، في يوم آخر.

أما اليوم فأطلب منكم صمتاً عظيماً كصمت البراكين والأنهار
أطلب صمتاً عظيماً كصمت الأرض والرجولة.

أطلب الصمت من أميركا، ابتداء من الثلج حتى البامبا.

صمتاً! فالكلمة لقائد الشعب!

صمتاً! فالبرازيل ستتكلم اليوم بلسانه!
صمتاً!

XLII
الطغاة من جديد

اليوم، من جديد،
تمتد حفلة الصيد عبر البرازيل،
الجشع البارد يطارده،
جشع تجار العبيد.
في وول ستريت أصدروا أمراً
إلى أفلاكهم الخنازير
بأن يغرزوا أنيابهم
في جراح الشعب،
وبدأت حفلة الصيد
في تشيلي، في البرازيل، وفي جميع أرجاء
بلداننا الأمريكية التي عاث فيها
التجار والجلادون خراباً.

لقد طَمسَ شعبي آثار طريقي،
وأخفى أشعاري بأكفه،
وحماني من الموت.
وفي البرازيل،

تُغلقُ بوابة الشعب اللانهائية مرة أخرى
الدروب الموصلة إلى برستيس
الذي وقف من جديد ليناهض الحاكم الآثم.

أيتها البرازيل،
تمنياتي لربانك المعذب بالنجاة،
أيتها البرازيل،
تمنياتي ألا تضطري غداً
إلى التقاط ذكراه
لتكوين صورته من نتفٍ غائمة،
لتنصبيها من صخور قاسية،
قبل أن تمكنيه من التمتع
في صميم قلبك بالحرية التي ما زالت
قادرة على غزوك أيتها البرازيل.

XLIII
سيأتي اليوم

أيها المُحَرِّرون في هذا الغسق الأمريكي،
في ظلمة الغد المهجورة،
إني أسلمكم القائمة اللانهائية
لشعوبنا،
وبهجة كل ساعة في النضال.

أيها الفرسان الزرق،

يا من سقطتم في أعماق الزمن،
أيها الجنود،
يا من تشرق الشمس من راياتكم المطرزة لتوها،
يا جنود اليوم، أيها الشيوعيون،
يا من ورثتم النضال
من التيارات المعدنية،
اصغوا إلى صوتي
الذي وُلد في مناطق الجليد،
والذي يعلو
في موقد الأيام
لمجرد واجبي في حبكم:
فنحن من الأرض نفسها
من الشعب المطارَد نفسه، نخوض النضال نفسه
الذي يزنر خاصرة وطننا.. أميركا.
هل رأيتم
كهف الأخ المظلم في الأماسي؟
هل نفذتم
إلى حياته الكئيبة؟
يا لهذا القلب المفتت،
قلب الشعب المخذول الغارق!

ثمة من تسلّم السلام الذي أحله البطل،
وأخفاه في القبو،
ثمة من سرق ثمار المحصول الدامي
واقتسم الجغرافيا

مقيماً حدوداً عدائية بيننا،
ومناطق ظلال عمياء معزولة.

فلنلتقط من الأرض
نبض الألم المختلط، والعزلات، وقمح الأراضي المفتتة:
فثمة شيء يزهر تحت الرايات:
والصوت القديم ينادينا من جديد.

فلننزل إلى الجذور المنجمية،
إلى المعدن المقفر،
ولنلامس نضال الإنسان في الأرض،
عبر العذاب الذي يجرح
الأيدي المكرسة للنور.

لا تتخلوا عن اليوم الذي يسلمكم إياه
القتلى الذين ناضلوا. فكل سنبلة
تولد من حبة مزروعة في الأرض،
وهكذا الشعب الذي لا يُعَد، مثل القمح،
يوحد جذوره، ويراكم سنابله
ثم في العاصفة التي ستحطم السلاسل
يصعد إلى ضوء الكون.

الفصل الخامس

الرمل المغدور

ربما ، ربما يكون النسيان على الأرض مثل عباءة .
ربما هو يطوّر النمو ويغذي الحياة ،
(قد يكون) ، مثل الذُبال القاتم في الغابة.

ربما ، ربما يكون الإنسان مثل حدّاد
يصنع الحذوة ، بضربات الحديد على الحديد ،
دون أن يلج إلى مدن الفحم العمياء ،
دون أن يطبق نظرته ، وينزل إلى الأعماق
إلى الغمر ، إلى المياه ، إلى المعادن ، إلى الكوارث.
ربما ،
ولكن طبقي غير هذا ، وغذائي مختلف:
عيناي لم تأتيا لقضم النسيان:
وشفتاي تتفتحان عبر كل الأزمان ،
فكل الأزمان ـ وليس جزءاً من الأزمان فقط ـ
استهلكت يديّ.
ولذا سأحدثك عن هذه الآلام التي رغبتُ في إبعادها ،
وسأجبرك على العيش مرة أخرى في أتونها ،
لا لنقف كما نتوقف في محطة ، عند السفر ،
وليس أيضاً لنضرب جباهنا بالأرض ،
ولا لنملأ قلوبنا بماء الملح ،
وإنما لنسير مزودين بالمعرفة ،

ولنلمس الصراط الصحيح
بتصميم مشحون، إلى ما لانهاية، بهدفنا،
ولتكون الشدّة شرطاً للسعادة،
فهكذا نصبحَ قوة لا تُهزَم.

I
الجلادون

أيتها العظاءة، يا أميركا الملتفة
على النمو النباتي، وعلى السارية
المنتصبة في المستنقع:
أنت أرضعت أبناءً أفظاظاً
بحليب أفعى سامة،
مُهود حارقة احتضنتهم
ووحول صفراء غطت
هذه السلالة من القتلة الدمويين.
القطّ والعقربة زنيا
في الوطن الغابيّ
فكان هؤلاء.

هرب الضُوْءُ من غصن إلى غصن،
ولكن النائم لم يستيقظ.

اللحاف كانت له رائحة القصب،
وكانت المناجل تدور
على أكثر أماكن القيلولة توحداً،

وعلى قُنْزُعة الريش الخفيفة
في «الكنتينات»، بصق
العامل المأجور الذي بلا حذاء
استقلالَهُ الكاذب.

الدكتور فرانثيا[1]
نهر «بارانا»[2] في المناطق المتشابكة،
الرطبة، النابضة بأنهار أخرى
حيث شبكة الماء: «يابيبري»،
«أكاراي»، «أغوري»[3]، هذه الدرر التوائم
الملونة بـ «الكيبراتشو»[4]، والمحاطة بقمم
أشجار «الكوبال» الكثيفة[5]،
تجري نحو الملاءة الأطلسية
ساحبة معها
هذيان «الناثاريت»[6] البنفسجي،
وجذور أشجار «الكوروباي»[7] في حلمها الرملي.

---

١ خوسيه غاسبار رودريغث دي فرانثيا، (١٧٦٦ . ١٨٤٠) محام وسياسي ما باراغواي . كان معجباً بروسو وفولتير وبالثورة الفرنسية . بعد الاستقلال أصبح الناطق باسم المجلس الأعلى الذي حكم البلاد خلال عامي ١٨١١ و ١٨١٢ . وفي عام ١٨١٤ استولى على السلطة وأطلق على نفسه لقب "الدكتاتور الأعلى للجمهورية" . وفي عام ١٨١٦ عدل هذا اللقب ليصبح "الدكتاتور الأعلى مدى الحياة لجمهورية باراغواي" . حقق بعض الإصلاحات ولا سيما في المجال الإداري وفي تنمية الصناعة الوطنية . ولكنه عزل البلاد تماماً ، وفرض جواً من القمع الرهيب ، وانتقم بشراسة من خصومه السياسيين .

٢ بارانا، نهر في أميركا الجنوبيية . ينبع من الأراضي البرازيلية ، ويمر في الأرجنتين ليصل إلى باراغواي ، حيث يصب في نهر ريو دي بلاتا .

٣ يابيبري وأكاراي وأغوري : أنهار صغيرة تصب في نهر بارانا أو تتفرع منه .

٤ كيبراتشو : نبات ينمو في أميركا الجنوبية ، تستخرج منه مادة لدباغة الجلود .

٥الكوبال : من أشجار المناطق الاستوائية ، يستخرج منها سائل يستخدم في صناعة الورنيش .

٦ ناثاريت : جنس أشجار أمريكية ، يستخرج منها سائل أصفر اللون يستخدم في صنع الدهان .

٧ الكوروباي : شجرة أمريكية تستخدم قشورها في الدباغة .

من الوحل الساخن، من جذوع
التماسيح الشرهة،
وسط الطاعون البريّ
عَبرَ الدكتور «رودريغث دي فرانثيا»
نحو كرسي باراغواي.
وعاش بين الكوى
في بناء من حجارة وردية
مثل نصب وسخ وقيصري
مغطى بنسج عنكبوت ذاهل.

عَظَمة متوحدة في الصالون
المليء بالمرايا، وخيال
أسود فوق قطيفة حمراء
وفئران مرتعدة في الليل.
نصب مزيف، وأكاديمية فاسدة،
ولاأدْرية
يسنها ملك أجْذَم، محاط
بامتدادات حقول المتة
شارباً أرقاماً أفلاطونية
في أنشوطة المشنوقين،
معدداً زوايا النجوم،
آخذاً مقاييس الرموز الفلكية،
مترصداً مساء باراغواي البرتقالي
بساعة في احتضارِ
المرميِّ بالرصاص من نافذته،

وبيدٍ على مصراع الشفق المكبل.

الدراسات على الطاولة،
والعينان على مهماز القبة الزرقاء،
على زجاج الهندسة
المنقلب،
بينما الدماء المَعَويّة،
دماء الرجل المقتول بأعقاب البنادق
تسيل على الأدراج
وتمتصها أسراب خضراء
من الذباب المتلألئ:
أغلق بارغواي وكأنها عش لجلالته،
وكبل الحدود بالطين والتعذيب.
وعندما يمر شبحه في الشوارع،
يصطف الهنود
وعيونهم إلى الجدران:
فينزلق ظله مخلّفاً
جدارين من قشعريرة.

لما أتى الموت لمقابلة الدكتور فرانثيا،
وجده أبكم، بلا حراك،
مربوطاً إلى نفسه،
وحيداً في وكره، مقيداً
بحبال الشلل،
ومات وحيداً، دون أن يدخل أحد

إلى حجرته: فليس هناك من يجرؤ
على قرع باب السيد.

ومقيداً بثعابينه،
مطلقاً بذاءاته، محموماً في نخاعه،
كان يحتضر ويموت ضائعاً
في عزلة القصر،
بينما الليل المهيمن
مثل كاتدرائية، يلتهم
تيجان الأعمدة البائسة
الملطخة بالعذاب.

روساس[1] (١٨٤٩ـ١٨٢٩)
ما أصعب الرؤية عبر الأرض
(ليس عبر الزمن، الذي يرفع كأسه الشفاف
مضيئاً خلاصة الظل العالية)،
ولكن الأرض الزاخرة بالطحين والحقد،
الكهف المتصلب بالموتى والمعادن،
لا تسمح لي بالرؤية في الأسفل، في الأعماق
حيث العزلة المتقاطعة تصدّني.

---

١ خوان مانويل اورتيزي دي روساس ، (١٧٩٣ ـ ١٨٧٧) جنرال وسياسي أرجنتيني ، ولد في بوينس ايرس . تسلم زعامة الحزب الليبرالي بعد موت مانويل دوريغو . ثم تمكن من الوصول إلى منصب حاكم ولاية بوينس ايرس بن عامي ١٨٢٩ـ١٨٣٢ . بعد انقضاء هذه الفترة في الحكم ، شن حملة إبادة ضد الهنود . أنتخب حاكماً من جديد عام ١٨٣٥ ، فأقام دكتاتورية صارمة معتمداً على العنف والإرهاب حتى عام ١٨٥٢ عندما أطاحت به حركة قادها خوستو خوسيه دي اوركيثا ، فهرب إلى إنكلترا ، ومات فيها .

ولكني سأتكلم معهم، مع معشري، مع الذين
هربوا يوماً إلى رايتي، عندما كان النقاء
نجمة بلّورية في نسيجها.

«سارمينتو»، «بالبيردي»، «اورو»، «دل كاريل»[1]:
إن وطني الطاهر - الذي انتُهِك فيما بعد -
قد خبأ لكم
نور كربه المعدني
وبين الفقراء والطين الفلاحي
راحت الأفكار المنفية
تُنسج مع المعادن القاسية،
وإبر سُكر الكروم.

وزعتهم تشيلي في معقلها،
وأعطتهم الملح من ميدانها البحري،
ونثرت البذور المنفية.

في أثناء ذلك كانت الجياد تعدو في السهوب.
وانكسرت الحلقة فوق فتائل
الشَعر السماوي،
وعضت سهول البامبا حذوات
البهائم المضمخة الجامحة.

---

١ أدباء وكتاب ارجنتينيون عارضوا دكتاتورية روساس.

خناجر، وقهقهات مستبدين
فوق الألم. قمر متوج
بقُنْزُعة من ظل لا يوصف
يمضي من نهر إلى نهر فوق البياض!

أيتها الأرجنتين المنهوبة بأعقاب البنادق
في بخار الفجر، المُعَاقبة
حتى النزف والجنون، الخاوية
التي يمتطيها أسياد متعجرفون!

جعلتِ من نفسك موكب كروم حمراء،
وكنتِ قناعاً، وزلزالاً مختوماً،
واستبدلوك في الهواء
بيدٍ مأساويةٍ من شمع.
وفي إحدى الليالي خرجتْ منكِ ممرات،
وصفائح حجرية مسودة، وأدراج
غاص فيها الصوت، وغاصتْ صلبان الكرنفال،
مع الموتى والمهرجين،
وسقط صمت أهداب
على عيون الليل كلها.

أين فرّ قمحكِ المزبد؟
ثمركِ الرشيق، وفمكِ الواسع،
وكل ما يتحرك بأوتاركِ
ليغني،

وجلدك المهتز في الطبل العظيم،
وفي النجمة النائية،
صمتت كلها تحت العزلة المتأرجحة
للزهرة الحبيسة.

في حافتك، في شريط الثلج المُقتَسم
التقط الصمت الليلي الذي يصل
ممتطياً بحراً دوارياً،
التقط عالماً، امتداداً، ونقاءً قوياً،
وموجة إثر موجة كان الماء العاري يروي،
والريح الرمادية المتماوجة تحرر الرمال،
وكان الليل يجرحنا بنحيبه القاحل.

ولكن الشعب والقمح عُجنا معاً: وعندئذ
استوى الرأس الأرضي، وتسرحت
خيوط الضوء الدفينة،
وعالج الاحتضار الأبواب المشرعة،
التي عاثت فيها الريح وأتربة الطريق،
وراحت تنتصب، واحدة بعد أخرى،
الأمجاد الدفينة، المدارس،
العبقريات، الوجوه المغطاة بالغبار
إلى أن كوّنت وحدات نجمية،
ونُصْبَ نورٍ، ومروجاً نقية.

إكوادور

«تونغوراغوا»[1] تطلق زيتاً أحمر،
ويسكب «سانغاي»[2] فوق الثلوج
عسلاً ملتهباً،
وترمي «امبابورا»[3]، قمة كنائسك الثلجية،
بأسماك ونباتات، وفروع قاسية
من المدى اللانهائي الذي لا سبيل إليه،
ونحو الفلوات، قمر
نحاسي، بناء هش،
تُسقطه جراحك التي كالعروق
على «انتيسانا»[4]،
وفي وحشة «بوماتشاكا» المجعدة،
في وقار «بامباماركا» الكبريتي،
ثمة بركان وقمر، برد وكوارتز،
ألسنة لهيب جليدية، حركة
كوارث،
إرث من الأبخرة والأعاصير.

اكوادور، اكوادور، أيتها الذيل البنفسجي
لنيزك غائب،
في تقزح القرى التي تغطيك

---

١ تونغوراغوا : منطقة زراعية هامة في الإكوادور .
٢ سانغاي ، بركان في جبال الأنديز الاكوادورية .
٣ امبابورا ، إحدى قمم جبال الأنديز في الإكوادور .
٤ انتيسانا ، بركان في الإكوادور ، في سلسلة الجبال الشرقية ، يقع على ارتفاع ٤٠٧٥ متر .

ببشرة ثمار لا نهائية،
يدور الموت بقمعه،
وتلتهب الحمى في الضياع الفقيرة،
ويصير الجوع محراثاً
فظ الأسنان في الأرض،
ويصفع الإحسان
صدرك بمسوح وأديرة،
مثل داء مضمخ
باختمارات الدموع.

غارسيا مورينو

من هناك خرج الطاغية.
«غارسيا مورينو»[1] كان اسمه
ابن آوى بقفازات،
خفاشاً مريضاً يتوارى وراء القداسة،
يلتقط الرماد والآلام
في قبعته الحريرية
ويغرس أظفاره
في دم الأنهار الإكوادورية.

بقدميه الصغيرتين المحشورتين
في نعلين صقيلين،
يرسم شارة الصليب ويتسمّع

---

١ غابرييل غارسيا مورينو ، (١٨٢١ ـ ١٨٧٥) سياسي اكوادوري . ولد في غواياكيل . حكم البلاد حكماً دكتاتورياً قاسياً منذ عام ١٨٦١ ، وقد قتل عام ١٨٧٥ .

على سجاجيد المذبح،
بينما أطراف ثيابه غاطسة
في الماء المقدس،
ويرقص وسط الجريمة وهو يسحب
جثثاً رُميت بالرصاص لتوها،
يمزق صدور القتلى،
يستعرض عظامهم
طائراً فوق التوابيت،
مرتدياً ريشاً كمسوح المُنجمين.

في قرى الهنود،
يسيل الدم بلا اتجاه،
ثمة خوف في كل الدروب والظلال
(تحت النواقيس خوف
يرن ويخرج صوب الليل)،
وتُثقل على «كيتو»[1] جدران
الأديرة السميكة،
مستقيمة، ثابتة، مختومة.
كل شيء نائم بين زخارف
الذهب الصدئ في الطُنُف،
الملائكة تنام معلقة
على مشاجبها القدسية،
كل شيء ينام مثل نسيج مقدس،

[1] كيتو: عاصمة الإكوادور.

كل شيء يتألم
تحت الليل الغشائي.
ولكن القسوة لا تنام.
قسوة الشارب الأبيض
تتمشى بقفاز ومخالب
وتعلق قلوباً قائمة
على حاجز السلطة المعدني.
إلى أن يدخل الضوء يوماً
مثل خنجر إلى القصر
ويفتح السترة ليُغمد شهاباً
في الصدر الورع.

هكذا خرج غارسيا مورينو
مرة أخرى من القصر، طائراً
ليتفقد المدافن،
كان جنائزياً بمبالغة،
ولكنه تدحرج هذه المرة
إلى أعماق المجازر، واحتُجِزَ
مع الضحايا التي بلا أسماء،
في رطوبة مستودع الجثث.

سحرة أميركا

يا أميركا الوسطى، يا موطئاً للبوم،
أيتها المُشحمة بعَرَقٍ حمضيٍّ،
قبل أن أدخل إلى ياسمينك المحروق

اعتبريني حبلاً لمركبك،
جناحاً لأخشابك التي يعركها
الزبد المزدوج،
ضمخيني بأريج الطلع الفاتن
وريش كأسك،
وبحواف مياهك المزهرة،
وبخطوط عشك المتموِّجة.

ولكن السحرة يقتلون فيك معادن
الانبعاث، ويوصدون الأبواب
ويفرضون الظلام
على مسكن الطيور المُبْهِرة.

استرادا

ربما يأتي «استرادا»[1]، ضئيلاً،
ففي بزة التشريفات التي يرتدي
يوجد قزم قديم.
وبين عطسة وأخرى تختمر
جدران غواتيمالا
وترتوي دونما توقف
بالبول والدموع.

---

١ مانويل استرادا كابريرا ، (١٨٥٧ ـ ١٩٢٣) سياسي غواتيمالي ، حكم البلاد حكماً دكتاتورياً بين عامي ١٨٩٨ ـ ١٩٢٠ . أزيح من السلطة بعد حركة ١٩٢٠ .

أوبيكو

أو ربما هو «أوبيكو»[1] في الدروب،
يجتاز المعتقلات
على دراجة نارية، بارداً
مثل حجر، صورةً
لسلطة الخوف.

غوميث

«غوميث»[2]، مستنقع الرمال المتحركة في فنزويلا،
يُغرق ببطء، وجوهاً
وعبقريات في بركانه.
الإنسان يسقط ليلاً فيه
محركاً ذراعيه، مغطياً وجهه
من الصفعات الوحشية،
وتبتلعه المستنقعات،
ويغطس في كهوف تحت الأرض،
أو يظهر في الدروب
وهو يحفر مكبلاً بالحديد،
إلى أن يموت ممزقاً،
مختفياً، ضائعاً.

---

١ خورخي أوبيكو، (١٨٧٨ ـ ١٩٤٦) دكتاتور غواتيمالي، استولى على السلطة عام ١٩٣١، وأطاحت به حركة شعبية عام ١٩٤٤.

٢ خوان فيثنتي غوميث، (١٨٥٧ ـ ١٩٣٥) دكتاتور فنزويلي.

ماتشادو

«ماتشادو»[1] في كوبا،
سَاقَ جزيرته بالآلات،
استورد آلات تعذيب
صُنعت في الولايات المتحدة.
وصفرت الرشاشات
لتردي الرياض،
ورحيق كوبا البحري،
والطالب المصاب بجرح طفيف
أُلقي به إلى البحر
فأكملت أسماك القرش
مهمةَ السيد الفاضل.
حتى مكسيكيو امتدت يد القاتل،
وسقط «ميبا»[2] مثل رامي القرص
مضرجاً فوق شارع الجريمة
بينما الجزيرة تلتهب، زرقاء،
مغطاة بأوراق اليانصيب،
ومرهونة بالسكر.

١ خيراردو ماتشادو آي موراليس، (١٨٧١ ـ ١٩٣٩) دكتاتور كوبي، حكم البلاد منذ عام ١٩٢٥ حتى ١٩٣٢ عندما أطاحت به حركة انقلابية قادها باتيستا. مات في المنفى.

٢ خوليو أنطونيو ميبا، (١٩٠٣ ـ ١٩٢٩) مناضل وطني كوبي بارز. اغتاله عملاء الدكتاتور ماتشادو في المكسيك.

ميلغاريخو[1]

بوليفيا تموت وراء أسوارها
مثل زهرة نادرة:
يمتطي صهوتها
الجنرالات المهزومون
ويمزقون السماء برصاص مسدساتهم.
قناع «ميلغاريخو»،
الوحش المخمور، زبد
المعادن المغدورة،
لحية مشينة، لحية مريعة
على الجبال الغاضبة،
لحية مسحولة في الهذيان،
لحية محملة بدم مخثر،
لحية عُثر عليها في كوابيس العفونة،
لحية شاردة
عَدَتْ في مرابع المواشي،
وسَرَتْ في الصالونات
بينما الهندي يجتاز مع حمولته
آخر طبقات الأكسجين
يخب في ممرات الفقر
المستنزفة.

---

١ مريانو ميلغاريخو : (١٨١٨ ـ ١٨٧١) جنرال بوليفي ، استولى على الحكم عام ١٨٦٤ ، وأطاحت به حركة انقلابية عام ١٨٧٠ ، فهرب إلى البيرو ، حيث مات مقتولاً .

بوليفيا (٢٢آذار ١٨٦٥)

لقد انتصر «بيلزو»[1] . الوقت ليلاً، والساحة تلتهب
بالطلقات الأخيرة. غبار جاف
ورقص كئيب يصعدان إلى الأعالي
والبارود الفظيع المبلل حديثاً.
لقد سقط ميلغاريخو، ورأسه
يضرب بالحد المنجمي
للقمة الدامية، والخيوط الذهبية
والسترة الموشاة بالذهب
والقميص الممزق والمبلل بالعرق الخبيث،
كلها ملقاة إلى جانب روث الحصان
وعظام المرمي بالرصاص مؤخراً.
بيلزو في القصر الآن، بين القفازات
والملابس العسكرية، يتلقى الابتسامات،
ويوزع مقدرات الشعب المظلم
في القمة الكحولية،
«المحاسيب» الجدد يتزلفون
في الصالونات المغلقة،
وأضواء الثريات والمصابيح
تسقط على القطيفة المشعثة
بفعل بعض الطلقات النارية.

وبين الحشود

---

١ مانويل ايسيدو بيلزو ، (١٨٠٨ . ١٨٦٥) جنرال بوليفي . استولى على السلطة عام ١٨٤٨ ، وفرض سلطته على البلاد حتى عام ١٨٥٥ . وقد اغتاله الجنرال ميلغاريخو بعد أن حاول القيام بتمرد ضده .

يمضي ميلغاريخو، شبحاً عاصفاً
لا يكاد يُمَكِّنه الحقدُ من الوقوف.
يستمع إلى الإطراء الذي كان له
الجمهرة الصماء، الصرخة
الممزقة، ويرى نار المحرقة
تعلو على الجبال، ونافذة
المنتصر الجدي.
حياته (جزء
من قوة عمياء ومُغَنّاة مفلتة
على فوهات البراكين والتلال،
معفران بالكحول القمري
حلمَ عظمةٍ حيث تسكب
البزات على الأراضي الآمنة
بسيوف كرتونية، ولكن ثمة جراح
تلطخ ساحات القرى،
بموت حقيقي وبمذبوحين،
تاركة وراءها الكورال المُقنّع
وخطابات صاحب الغبطة،
رَوْث الخيول، الحرير، الدم
والموتى الذين أتى دَوْرهم، محطمين، متصلبين
وقد اخترقتهم
طلقات رماة البنادق السريعين)
قد هوت في أعمق أعماق الغبار،
في الازدراء والفراغ،
ربما إلى موت غارق بالمهانة،

ولكنه من الهزيمة،
مثل ثور إمبراطوري، يستخرج أنياباً،
يحفر الرمال المعدنية
ويدفع المسخ البوليفي
خطواته البهيمية المترددة
ماضياً نحو صالات الذهب الصاخب.
ويمر بين الحشود قاطعاً
جمهرة بلا اسم، ويصعد
بثقل إلى العرش المتداول،
ويهاجم الزعيم المنتصر.
فيتدحرج بيلزو،
وتتلوث الثياب البيضاء المنشاة،
يتهشم الزجاج الذي يسقط
نازفاً نوره السائل
ويثقب الصدر إلى الأبد،
بينما المهاجم المُتوحد
البوفالو المضرج بالحريق
يسند قامته إلى الشرفة،
صارخاً: «لقد مات بيلزو»، «من يحيا؟»،
«أجيبوا». ومن الساحة،
صرخة تراب مبحوحة،
صرخة رعب وهلع سوداء، تجيب: «يحيا،
أجل، ميلغاريخو، يحيا ميلغاريخو»،
جمهور الميت نفسه،
الجمهور الذي احتفل بالجثة النازفة

على أدراج القصر: «يحيا»،
يصرخ المتبجح الضخم الذي يغطي
الشرفة كلها برداء ملوث،
بطين معسكر ودم قذر.

مارتينث (١٩٣٢)

مارتينث[1]، طبيب السلفادور المشعوذ
يوزع
قناني الأدوية المتعددة الألوان،
التي يتقبلها الوزراء
بالسجود والخضوع.
هذا المشعوذ النباتي
يقدم الوصفات في القصر
بينما الجوع الهائج
يعوي في حقول القصب.
ويتخذ مارتينث قراراً:
وفي بضعة أيام
يتعفن عشرون ألف فلاح، قتلى
في القرى التي أمر مارتينث بإحراقها
تنفيذاً لقرار النظافة الصحية.

---

١ ماكسيليانو هيرنندث مارتينث: (١٨٨٢ . ١٩٦٦) جنرال سلفادوري . استولى على الرئاسة عام ١٩٣١، واستمر في الحكم حتى ١٩٤٤ عندما أطاح به إضراب عام . وكان مستبداً مصاباً بجنون العظمة، فقد ادعى الفلسفة، واخترع ساعة سحرية يعلقها فوق الطعام كي تُعْلِمه، حسب درجة ميلان عقربها، عما إذا كان الطعام مسموماً أم لا . وحاول مرة أن يقضي على انتشار وباء الحمى القرمزية بتغطية الأنوار العامة في البلاد بورق أحمر . ولكن جنونه هذا تجسد بصورة وحشية في عام ١٩٣٢ عندما أمر قواته العسكرية بالتصدي لانتفاضة فلاحية، فقتلت ١٢ ألف فلاح .

ويعود في القصر من جديد
إلى أدويته، ويتلقى
التهاني السريعة
من سفير الولايات المتحدة،
الذي يقول: «لقد أضحت الثقافة الغربية الآن
آمنة، وكذلك المسيحية الغربية
والأعمال التجارية الرابحة أيضاً،
وامتيازات الموز
والرقابة الجمركية.»

ويشربان معاً كأساً كبيرة
من الشمبانيا، بينما المطر
يهطل ساخناً على
مجمعات العظام المتعفنة.

الأباطرة

«تروخيو»، «سوموزا»، «كارياس»،
ما زالوا حتى اليوم، حتى هذا الشهر المرير،
أيلول من عام ١٩٤٨،
مازالوا، مع «مورينيّغو» (أو ناتاليشيو)
في باراغواي، ضباعاً نهمة
لتاريخنا، قوارض للرايات
التي أحرزناها
بدماء غزيرة ونيران وفيرة،
غارقين في مستنقع مشاريعهم،

هؤلاء المُتلفون الجهنميون،
هؤلاء الأباَطرة المُباعون ألف مرة
والبائعون، المأجورون
لذئاب نيويورك.
إنهم مكائن فيها جوع للدولار،
ملطخة بتضحيات
شعوبها المعذبة،
إنهم تجار فاجرون
يتاجرون بالخبز والهواء الأمريكي،
إنهم مستنقعات سفاحة، وقطيع
من القوادين المستبدين،
لا قانون لهم سوى التعذيب
والجوع العاصف بالشعب.

يا أصحاب درجات الدكتوراة «الفخرية»
من كولومبيا يونيفرستي،
يا من تضعون الرداء الجامعي فوق الأنياب
وفوق السكين، يا ضواري
Waldorf Artoria السارحة
يا ضواري الحجرات اللعينة
حيث تتعفن الأعمار
الأبدية للسجين.
يا نسوراً صغيرة يستقبلها
المستر «ترومان»، وتعود محملة
بالساعات، ومزينة بنياشين Loyalty

يا من تستنزفون الأوطان،
هناك واحد فقط
يفوقكم شراً، واحد فقط
أنجبه وطني يوماً
ليكون سبب الشقاء لشعبي.

II
الأوليغارشية

لا، لم تكن الرايات قد جفتْ،
ولم يكن الجنود قد ناموا
عندما أبدلتْ الحريةُ ثوبها
وتحولت إلى متجر:
فمن الأراضي التي زُرعتْ لتوها
خرجت سُلالةٌ، زمرة
من الأثرياء الجدد، ومعهم شعار،
وشرطة وسجون.

رسموا خطاً أسود:
«نحن هنا،
نحن أصحاب مطاحن المكسيك،
و "أشراف" تشيلي،
ومتأنقو الجوكي كلوب في بوينس ايرس،
واستقلاليو أروغواي المطاطيون،
ومتأنقو الإكوادور،

والسادة الإكليروس في كل مكان»

«وهناك أنتم، المحطمون، والمولدون،
صعاليك المكسيك،
والرعاة المتكومون في الزرائب،
والمخذولون ذوو الأسمال،
المقملون، الأوغاد،
المهدمون، التعساء،
القذرون، الكسالى.. الشعب.»

كل شيء شُيّد فوق هذا الخط.
وعمّد المطران هذا الجدار
وتوعد باللعنات المحرقة
للمتمرد الذي يتجاهل
جدار أصله.
وأحرقوا بيد الجلاد
كتب «بيلباو»[1].
ووقف الشرطي
ليحرس السور،
وكلما اقترب أحد الجائعين من المرمر المقدس
ضربوه بالهراوة على رأسه
أو «رشوه» بصدقة من الصندوق الزراعي
أو عينوه، بالركل والرفس، جندياً.

---

١ فرانثيسكو بيلباو، (١٨٢٢ ـ ١٨٦٥). كاتب وعالم اجتماع تشيلي. لوحق لأفكاره الليبرالية، عاش متخفياً ومات في بوينس ايرس.

وأحسوا بأنهم مطمئنون وآمنون.
الشعب مضى في الدروب والأرياف
ليعيش مكدساً، دون نوافذ،
دون أرض، دون قميص،
دون مدرسة دون خبز.

وجالَ في أمريكتنا شبح
تغذى بالفتات، شبح جاهل،
هائم، متشابه على امتداد بلداننا،
خارج من السجون الطينية،
أفّاقٌ هارب، يطارده
ابن وطنه المرهوب، صاحب البزات،
والأوامر والأوشحة.

في المكسيك أنتجوا له
عرق سيزال[1]، وفي تشيلي
نبيذ ليتريادو البنفسجي اللون،
سمموه، فتتوا روحه نتفة إثر نتفة،
منعوا عنه الكتاب والضوء،
إلى أن راح يهوي في التراب،
غاطساً في الحَجْر السلبيّ،
وعندما لم تجر له طقوس دفن:

---

١ عرق سيزال ، مشروب كحولي مكسيكي رخيص يقطر من نبات السيزال .

كان يدفن
بحشره عارياً بين جيف أخرى
لا أسماء لها.

امتداد قانون المحاباة

هم نصّبوا أنفسهم "وطنيين".
وتوشحوا بالأوسمة في النوادي.
وراحوا يكتبون التاريخ.
البرلمانات امتلأت
بالأُبهة، ثم اقتسموا
بعد ذلك الأرض، والقانون،
وأفضل الأحياء، والهواء،
والجامعة، والأحذية.

مبادرتهم العظيمة كانت
بناء الدولة على هذه الطريقة،
طريقة الدجل الصارم.
وناقشوا الموضوع كالعادة،
بوقار ومآدب،
أولاً في التجمعات الفلاحية،
برفقة العسكر والمحامين.
وبعدها قدّموا إلى الكونغرس
القانون الأعلى، القانون الشهير،
الموقر، الذي لا يُمس
قانون المحاباة.

ونجح القانون:

المائدة الطيبة للغني.
والفضلات للفقير.

المال للأغنياء.
والعمل للفقراء.

البيت الكبير الأغنياء.
والكوخ للفقراء.

القانون للص الكبير.
والسجن لمن يسرق الخبز.

وباريس، باريس للسادة.
والفقير إلى المنجم، إلى الصحراء.

وتحدث السنيور «رودريغيث دي لا كروتا»
في المجلس
بصوت عذب متأنق:
«إن هذا القانون سيقر، أخيراً،
المراتب الإجبارية،
ومنها خصوصاً
المبادئ المسيحية.
لقد كان

ضرورياً كما الماء.
والشيوعيون وحدهم، القادمون
من الجحيم، كما تعلمون،
يريدون الطعن بهذا القانون،
قانون القمع، القانون الحكيم، الصارم.
ولكن هذه المعارضة الآسيوية
التي يأتيها هؤلاء المتخلفون،
سيكون سهلاً وقفها:
جميعهم إلى السجن،
إلى معسكرات الاعتقال،
وهكذا نبقى وحدنا
نحن الأشراف المختارون
والوسطاء اللطفاء
في الحزب الراديكالي.»

وانطلق التصفيق
من المقاعد الأرستقراطية:
يا للبلاغة، يا للروحانية،
يا له من فيلسوف، يا للنبوغ!
وهرع كلّ منهم ليملأ جيوبه
في تجارته:
أحدهم احتكر الحليب،
وآخر راح يغش الأسلاك،
وثالث يسرق في صناعة السكر
وكلهم يصرخون بأعلى صوتهم:

نحن وطنيون،
وعند احتكارهم الوطنية،
رجعوا أيضاً
إلى قانون المحاباة.

انتخابات في تشيمبارونغو (١٩٤٧)

في تشيمبارونغو، في تشيلي، ذهبتُ
منذ فترة إلى انتخابات برلمانية.
رأيتُ كيف كان يجري اختيار
قواعد الوطن.
في الحادية عشرة صباحاً
وصلت العربات من القرى
مكتظة بالفلاحين المحاصصين.
كان شتاء،
وكان أقنان تشيمبارونغو المبللون،
القذرون، الجائعون، الحفاة،
ينزلون من العربات.
متجهمين، أحرقتهم الشموس، يلبسون الأسمال،
وهم محشورون، ومَسُوقون
بيد كلّ واحد منهم قسيمة.
مُراقَبون، يزدحمون حين يعودون
ليقبضوا الأجر،
ثم يسوقونهم من جديد
في العربات
وهم متراصون كالجياد.

بعد ذلك
يرمون لهم لحماً ونبيذاً
إلى أن يتركوهم
مهانين ومنسيين كالبهائم.
وسمعت فيما بعد خطبة النائب
المنتخب على هذا النحو:
«نحن الوطنيون المسيحيون،
نحن حماة النظام،
نحن أبناء الروح.»
وكان كرشه يهتز
وصوته الأجش كصوت بقرة
يتعثر بأصوات خرافية
مثل خرطوم الماموث
في الكهوف المظلمة.

القشدة

أيها المضحكون، يا أرستقراطيي
قارتنا الأمريكية المزيفين،
أيتها الثدييات المطلية بالمرمر للتو،
أيها الشبان العقيمون،
أيتها الجحاش المتزنة،
أيها المُثْرون الخبثاء،
يا أبطال الترنح سكراً في النادي،
يا لصوص البنوك والبورصة،
أيها المتصنعون، المتكلفون، المستظرفون،

يا نمور السفارة المتأنقين،
أيتها الفتيات النبيلات الشاحبات،
أيتها الأزهار الضارة،
يا نتاج الكهوف المعطرة،
أيتها النباتات الطفيلية مصاصة الدماء،
يا روثاً وعَرقاً،
يا لبلاباً خانقاً،
يا قيود الشعابين الإقطاعية.

عندما كانت المروج تهتز
تحت وقع جياد «بوليفار»
أو «اوهيجينس» (الجنود الفقراء،
الشعب المجلود، الأبطال الحفاة)،
كنتم أنتم تكَوِّنون صفوف الملك،
والجُبَّ الإكليروسيَّ،
صفوف خونة الرايات.
ولكن ما إن انتصرت الريح المتكبرة،
ريح الشعب حامل الحراب،
حتى برزتم وأنتم تنصبون أسلاكاً حول الأرض،
تقيمون سياجات،
تكدسون مناطق وكائنات،
وتوزعون الشرطة والاحتكارات.

وعاد الشعب من الحروب،
ليغرق في المناجم، وفي أعماق

الحظائر المظلمة،
وليسقط في الأخاديد الصخرية،
ويدير المصانع المشحمة،
متناسلاً في بيوت الفقر المشتركة،
في الغرف المزدحمة
مع كائنات أخرى.

وغرق بالنبيذ إلى أن فقد ذاته،
وعاش مهجوراً، تهاجمه
جيوش من القمل
ومصاصي الدماء، محاطاً
بأسوار ومخافر،
دون خبز، دون موسيقى،
منهاراً في العزلة المشوشة
حيث خلّف له «ارفيو»،
جيتاراً لروحه وحسب،
جيتاراً مغطى
بالشرائط والمِزَق
يصدح فوق الشعوب
مثل طائر الفقر.

الشعراء السماويون

ما الذي فعلتموه أيها «الجيديون»[1]

---

١ الجيديون ، نسبة إلى الكاتب الفرنسي المعروف اندريه جيد (١٨٦٩ . ١٩٥١) .

يا مدعي الثقافة، أيها «الريلكيون»[1]
يا دعاة الشعوذة والأسرار،
يا سحرة الوجودية الزائفين،
يا برقوقاً سوريالياً مشتعلاً في قبرٍ،
أيها المتأوربون
يا جثثاً تسعى وراء كل بدعة،
يا ديدان الجبن الرأسمالي الشاحبة،
ما الذي قدمتموه لمملكة الآلام،
ما الذي فعلتموه لهذا الكائن البشري المظلم،
لهذه الوداعة المركولة بالأقدام،
ولهذا الرأس المغروس
في الوحل، ولجوهر
هذه الحيوات الفظة الموطوءة بالنعال؟
لم تفعلوا شيئاً سوى الهرب:
بعتم أكواماً من الغثاء،
بحثتم عن جياد سماوية،
ونباتات رعدية، وأظفار مكسَّرة،
عن «الجمال النقي»، و«الرُقيْة»،
أعمال مساكين مرتعدين
لتتفادوا العيون، لتجعلوا الأمر يختلط
على حدقات العيون، لتستمروا في الحياة
على صحن الفضلات القذرة
الذي يرميه الأسياد إليكم،

---

١ ريلكيون : نسبة إلى الشاعر النمساوي راينر ماريا ريلكه (١٨٧٥ . ١٩٢٦) .

دون رؤية الحجر المحتضر،
ودون الدفاع، أو الهجوم،
كنتم مكفوفي البصر
أكثر من أكاليل المقبرة،
عندما يهطل المطر
على أزهار القبور الجامدة المتعفنة.

المُستَغلون

هكذا اُنتُهِمتْ،
وانتهكت، وأُخضعت، وجُرحتْ، ونُهبت،
حياتك يا أميركا الشابة.

بدءاً من هاويات الغضب
حيث داس الحاكم على رفاتٍ
وابتساماتٍ دُفنت حديثاً،
حتى الأقنعةُ الأبوية
التي يضعها السادة ذوو الشَوَارب
ممن ترأسوا المائدة
مانحين الحضورَ مباركتهم،
ومخفين وجوههم الحقيقية
المكتنزة بالقتامة،
وبالشهوات المظلمة
والتجاويف الجشعة:
حيوانات باردة من قوارض المدينة،
نمور رهيبة،

آكلة اللحم البشري،
واختصاصيون في صيد
الشعب الغارق في الظلام،
المركون في الزوايا،
في الأقبية الأرضية.

المتحذلقون
بين أبخرة فضلات المواشي
أو في سلة المهملات، أو في حانة الكوكتيل
عاش النتاج الأزرق، زهرة
التعفن البشري المتغطرس.

«المتحذلق» في تشيلي يدعى:
«راؤول ألدوناتيبو»[١]
(غازي المجلات
بأيدي الآخرين،
بالأيدي التي قتلت هنوداً)،
النقيب "تَكَلُّف"، الميجر "تجارة"،
الذي يشتري حروفاً
ويُثَمِّن متأدباً،
يشتري سيفاً ويعتقد بأنه صار جندياً،
ولكنه لا يستطيع أن يشتري نقاء
ويبصق حينئذ كأفعى.

---

١ راؤول ألدوناتيبو، ضابط في الجيش التشيلي. عمل رئيساً لتحرير مجلة "زيك . زاك"

مسكينة أنت يا أميركا
أيتها المَبيعة في أسواق الدم،
على يد الجِفَن المطمورة
التي تنبثق في الصالون
في سنتياغو، أو في ميناس خيراس
متصنعة «الأناقة»،
تلك الأنياب «الحيية» المتصنعة،
تلك الحشرات الطفيلية،
عصي غولف اللحد تلك.
مسكينة أنت يا أميركا،
أيتها المُقنعة بمتأنقين مؤقتين،
بمزيفي الوجوه،
بينما الريح السوداء، في القاع،
تجرح القلب المهدم
ويتدحرج بطل الفحم
نحو خشخاشة الفقراء،
يجرّه الطاعون،
يلفه الظلام،
تاركاً سبعة أولاد جياع
سيُلقى بهم إلى الدروب.

أصحاب المحسوبية

في قطعة الجُبْن البنفسجية الثخينة،
جُبْن الدكتاتورية،
يبرز دودة آخر: إنه المَحْسوب.

إنه النذل المُستأجَر
لامتداح الأيدي القذرة.
إنه خطيب أو صحافي.
يستيقظ فجأة في القصر،
ويمضغ بحماس
براز صاحب السمو،
وينهمك طويلاً في البحث والدراسة
حول حركاته، معكراً
المياه وصائداً أسماكه
في البحيرات المتقحّة.
فلنطلق عليه اسم داريو بوبليت[١]،
أو جورج ديلانو «كوك»[٢].
(لا فرق، يمكن تسميته
بطريقة أخرى، فقد وُجِدَ
عندما افترى «ماتشادو» على «ميبا»[٣]،
بعد أن اغتاله.)

ولا بد أن بوبليت
قد كتب هناك عن «الأعداء السفلة»
«أعداء بيركلس[٤] هافانا.»

---

١ داريو بوبليت ، صحافي تشيلي ، بنى أمجاده على امتداح الدكتاتور غونثالث بيديلا ، وكان مديراً لجريدة "لاناثيون" طوال فترة حكم بيديلا

٢ جورج ديلانو ، صحافي يميني تشيلي ، كان يرسم الكاريكاتير ويوقعه باسم "كوك"

٣ راجع القصيدة التي بعنوان "ماتشادو" .

٤ بيركلس ، (٤٩٥ـ٤٢٩ ق .م) أكبر رجال الدولة في اثينا . تزعم الحزب الديمقراطي وأدار شؤون المدينة أكثر من ربع قرن . شجع الآداب والفنون . وبلغت اثينا في عهده عصرها الذهبي .

وبعد ذلك كان بوبليت يُقبّل
نعل تروخيّو[١]
وركاب مورينيغو[٢]،
وشرج غابرييل غونثالث[٣]

بالأمس كان هكذا، وما إن خرج
من بين المغمورين، حتى استُؤجِر
ليمارس الكذب،
وليتستر على الإعدامات والسلب،
وها هو ذا اليوم، يرفع قلمه النذل
فوق التعذيب في «بيساغوا»[٤]،
فوق آلام
آلاف الرجال والنساء.

لقد وجد الطغاة دائماً
في جغرافيتنا السوداء المُعَذَبة
متشدقاً يخوض في الوحل

١ رافائيل ليون تروخيو: (١٨١٩ ـ ١٩٦١) جنرال وسياسي من الدومينيكان. حكم البلاد حكماً دكتاتورياً في فترتين، الأولى ما بين عامي ١٩٣٠ ـ ١٩٣٨، والثانية من عام ١٩٤٢ حتى عام ١٩٥٢.

٢ هيخينو مورينيغو: جنرال وسياسي من باراغواي. حكم البلاد كدكتاتور عام ١٩٤٠، وأزيح عن الحكم عام ١٩٤٨.

٣ غابرييل غونثالث بيديلا: سياسي تشيلي، تسلم رئاسة الجمهورية في الفترة ما بين ١٩٤٦ ـ ١٩٥٢. وقد وصل إلى السلطة بمساعدة أحزاب اليسار، وكان نيرودا ذاته مديراً لحملته الانتخابية. ولكنه ما إن وصل إلى السلطة حتى انقلب ضد هذه الأحزاب بتحريض من واشنطن، فاعتقل المناضلين اليساريين والقادة النقابيين، وطارد نيرودا الذي تمكن من الهرب إلى الأرجنتين، ثم إلى باريس. ويروي الشاعر عملية هروبه في عدة فصول من النشيد الشامل، وخصوصاً في فصل "الطريد".

٤ بيساغوا: معسكر اعتقال رهيب في تشيلي.

ليوزع الأكاذيب
ويقول: الشجاع،
الباني، الجمهوري العظيم
الذي يحكمنا، ثم ينزلق
بين الحبر المتعهر
بأظفاره السوداء،
أظفار اللص.
وعندما يرى أن قطعة الجُبن قد استُهلكت
وأن الطاغية قد هوى إلى الجحيم،
يختفي «بوبليت»،
وديلانو «كوك» يتلاشى،
ويعود الدودة إلى البَعْر،
منتظراً دوران العجلة المشؤومة
التي تطيح بطغاة وتأتي بغيرهم،
ليظهر مبتسماً
ومعه خطبة جديدة
كتبها للطاغية الذي برز.

من أجل كل هذا أيها الشعب،
ابحثْ عن هذا الدودة قبل أي كان،
حطمْ روحه
وليكن سائله الرجراج،
وقوامه اللزج القاتم
هو الكتابة الأخيرة،
ليكن الوداع لحبر

سنمحوه عن الأرض.

محامو الدولار

أيها الجحيم الأميركي، يا خبزنا
المغمس بالدم،
ثمة لسان آخر بين ألسنة نيرانك الخائنة:
إنه المحامي الكريوللي[1]
محامي الشركة الأجنبية.

إنه من يثبّت أصفاد
العبودية في وطنه،
ويسير مستخفاً
مع نسل المديرين
متطلعاً بترفع
إلى راياتنا الرثة.

عندما تصل من نيويورك
طلائع الإمبرياليين:
المهندسون، المساحون،
الحاسبون، الخبراء،
ويمسحون ما في الأراضي المفتوحة:
قصدير، بترول، موز،
نيترات، نحاس، منغنيز،

---

١ كريوللي ، تسمية تطلق على من يولد في أميركا لأبوين أوربيين .

سكر، حديد، كاوتشوك، أراض،
يتقدمهم قزم كريه،
بابتسامة صفراء،
يقدم بلطف نصائحه
للغزاة الجدد:

ليس ضرورياً أن تدفعوا كثيراً هكذا
لهؤلاء الأهالي،
لأن رفع هذه الأجور، أيها السادة،
سيعرقل العمل. ليس مواتياً.
هؤلاء العامة، هؤلاء الهنود
لا يعرفون سوى إنفاق هذه النقود كلها
في الخمر.
لا، بالله عليكم.
إنهم بدائيون، لا يفضلون الحيوانات
إلا قليلاً، فأنا أعرفهم جيداً.
لا تدفعوا لهم كثيراً هكذا.

يتبنونه.
يُلبسونه زي البوابين.
فيلبس ثياباً كثياب الغرينغو،
ويبصق مثل الغرينغو. ثم يرقص
مثل الغرينغو... ويصعد.

يمتلك سيارة، ويسكي، صحافة،

يختارونه قاضياً وبرلمانياً،
يوشحونه بالأوسمة، إنه وزير،
وكلمته مسموعة عند الحكومة.

إنه يعرف القابلين للارتشاء.
إنه يعرف المرتشين.
إنه يلحس، يرشو، يزين،
يداهن، يبتسم، يهدد.
وهكذا يُفرغون عبر الموانئ
جمهورياتنا النازفة.

ستسألون،
أين يسكن هذا الفيروس،
هذا المحامي،
خميرة الفضلات هذا،
هذا القملة الدموية القاسية،
المتخم بدمنا؟
إنه يسكن المناطق المدارية
المنخفضة، يسكن البرازيل.
لكن مسكنه كذلك
في الحزام الأوسط لأميركا.

تجدونه في أعالي تشوكيكاماتا
المحفورة.
حيث تعبق رائحة الثروة

يصعد الجبال، يعبر الوهاد،
حاملاً وصفات قانونه
لسرقة أرضنا.
ستجدونه في بويرتو ليمون،
في ثيوداد تروخيو، في اكيكي،
في كاراكاس، ومراكايبو،
في انتوفاغاستا، في هندوراس،
يسجن أخانا،
يتهم مواطنه،
يطرد عمالاً، يفتح
أبواب القضاة والملاكين،
يشتري صحافة، ويوجه
الشرطة، والهراوات، والبنادق
ضد عائلته المنسية.

يتبجح، مرتدياً
السموكينغ، في حفلات الاستقبال،
واضعاً أحجار الأساس للتماثيل
متشدقاً: *أيها السادة،*
الوطن قبل الحياة،
لأنه أمنا، أرضنا،
سندافع عن الأمن، سنشيد
معتقلات جديدة، سجوناً جديدة.

ثم يموت مجيداً، "الوطني"،

السيناتور، الشريف، الرفيع،
المُقلد بوشاح من البابا،
الجهبذ، الناجح، الخجول،
بينما سلالة موتانا
المفجعة، موتانا الذين غرسوا
أيديهم في النحاس، الذين
حفروا الأرض العميقة القاسية،
يموتون محطمين ومنسيين،
ويوضعون على عجل
في الصناديق المأتمية:
الاسم، رقم على الصليب
تصفعه الريح، لتقتل
حتى الرقم،
رقم الأبطال.

الدبلوماسيون (١٩٤٨)
إذا أنت ولدت أحمق في رومانيا
فإنك تواصل حياتك كأحمق،
وإذا كنتَ أحمق في «افينيون»
فإن نوعيتك معروفة
لكل أحجار فرنسا القديمة،
ولصبية المدارس والمزارع المشاكسين.
ولكنك إذا ما ولدت أحمق في تشيلي
فسيعينونك في الحال سفيراً.

أطلق على نفسك اسم الأحمق فلان،
الأحمق خواكين فرنانديث مثلاً[1]،
الأحمق فلان ابن فلان، وإذا كان ممكناً
فاترك لحية مشذبة.
وهذا هو كل ما يطلبونه منك
لكي «تشرع في المباحثات».
وبعد ذلك تُعدّ تقريراً، أيها الدعي،
حول حفل تقديم أوراق اعتمادك الاستعراضي،
فتقول: الخ، العربة الفخمة،
الخ، سعادته، الخ،
عبارات، الخ، أريحية.

اتخذ صوتاً أجوف
كرنة صوت البقرة الحامية.
وتزين بالأوشحة
مع مبعوث «تروخييو»،
واحتفظ بمظهر الـ garconniere
برصانة («حضرتك تعلم،
فوائد هذه الأمور
في اتفاقيات الحدود»)،
واستشهد مع بعض التصرف
بافتتاحية الصحيفة الدكتاتورية
التي قرأتها أمس الأول

---

١ خواكين فرنانديث ، وزير خارجية تشيلي في حكومة الدكتاتور غونثالث بيديلا .

وأنت تتناول الفطور: إنه تقرير".

اختلط مع «نبلاء»
ذلك «المجتمع»، مع حمقى
تلك البلاد، واقتنِ كل الفضيات
التي تستطيع شراءها،
وتحدث في المناسبات
إلى جانب الجياد البرونزية،
قائلاً: احم، الروابط،
الخ، احم، الخ،
احم، الأصول،
الخ، العِرق، احم، النقي،
المقدسات، احم، الخ.
وكن مطمئناً، مطمئناً:
فأنت دبلوماسي
تشيلي عظيم،
أنت أحمق مدهش
وموشح بالنياشين.

بيوت الدعارة
من الازدهار وُلد بيت الدعارة،
مرافقاً راية
أوراق النقد المكدسة:
ماخور محترم
لرأس المال، عنبر لسفينة

زمني هذه.
إنها مواخير ميكانيكية
في شعر بوينس ايرس المستعار،
لحم طازج
مُستورَد من بؤس
المدن والأرياف النائية،
حيث النقود ترصدت
خطوات دن الصلصال
وسجنت النباتات المتسلقة.
قوادون ريفيون، يجولون ليلاً،
في الشتاء، على خيولهم
عند أبواب القرى،
بينما الفتيات الطائشات
يسقطن من بيع إلى بيع
في أيدي الأعيان.
مواخير ريفية بطيئة
حيث ملاكو القرية
- دكتاتوريو المواسم -
يُذهلون الليل التناسلي
بحشرجات مرعبة.
يا قطيعاً من القِحاب، يختبئن
في الزوايا،
يا أشباحاً متقلبة،
أيتها المسافرات في قطار الموت،
لقد أخذوكن،

لقد وقعتن في شبكة الدنس،
ما عدتن قادرات على العودة إلى البحر،
لقد ترصدوكن واصطادوكن،
إنكن ميتات في الخواء،
خواء ما هو أكثر حيوية في الحياة،
تستطعن إنزال الظل
على الجدران:
فليس إلى أي مكان آخر سوى الموت
تمضي هذه الجدران عبر الأرض.

موكب في ليما (١٩٤٧)

كانوا كثيرين، وكانوا يرفعون الوثن
على أكتافهم، وكان الحشد متراصاً
مثل خروج بنفسجي بَراق
من البحر.
كانوا يقفزون راقصين، ويطلقون
همسات مبحوحة وممضوغة
تتحد مع رائحة الطعام المقلي
ومع دقات الطبول الكئيبة.

صَدْريّات بنفسجية، أحذية
بنفسجية، قبعات
تملأ الطرقات ببقع بنفسجية
كأنها نهر أمراض دُمليّة
يصب في زجاج الكاتدرائية

الذي لا طائل منه.
ثمة شيء حِدادي غير محدد
كرائحة البخَور، وازدحام القروح
الوافر،
يجرح العيون متحداً
مع لهب الشبق
في النهر البشري المتراص.

رأيت الإقطاعي البدين
يتعرق بقميصه الكهنوتي الأبيض،
ويكشط نقاط
المَنيّ المقدس عن رقبته.
رأيت الدودة ذا الملابس الرثة
القادم من الجبال الجرداء،
والهندي الذي فقد ملامح وجهه
في الآنية، والراعي
الجميل المناداة، والصغيرات
المتمسكات بالمقدسات،
وأساتذة الضيعة
بوجوههم الزرقاء الجائعة.
جمهور مُنوم يرقص
بقمصان نوم أرجوانية
وفيما بينهم يمضي الزنوج ضاربين بأقدامهم
على طبول غير مرئية.
والبيرو بأسرها تصفع صدرها

متطلعة إلى تمثال سيدة متأنقة،
زرقاء سماوية ووردية
تُبحر فوق الرؤوس
في موكبها المُحلى
الممتلئ بهواء مُتعرق.

ستاندر أويل كومباني

عندما شقت البَريمة طريقها
نحو الفجوة الصخرية
وأنزلت مصرانها الذي لا يلين
إلى المنشآت تحت الأرضية،
والسنوات الميتة، عيون
الأزمان، جذور النباتات الحبيسة
وأنظمة الحراشف
تحولت إلى طبقة سائلة.
صعدت النار في الأنابيب
متحولة إلى سائل بارد
وفي جمارك الأعالي
عند خروجه من عالمه،
عالم الأعماق السحيقة،
وجد السائل مهندساً شاحباً
ولوحة تحمل اسم المالك.

حتى لو تشابكت دروب البترول،
حتى لو بدّلت كتل الزيوت

موضعها الصامت
وحركت سيادتها
في أحشاء الأرض،
عندما تهز الفوارة
فروعها البارافينية،
تصل ستاندر أويل أولاً
مع محاميها، وقربها،
مع شيكاتها وبنادقها،
وحكوماتها وسجنائها.

أباطرتها البدينون
يعيشون في نيو يورك، إنهم قتلة
رقيقون وباسمون،
يشترون حريراً، ونايلوناً، وسيجاراً،
وطغاةً صغاراً ودكتاتوريين.

يشترون أوطاناً، شعوباً، بحاراً،
شرطة، برلمانيين،
وأقاليم نائية حيث
يخبئ الفقراء ذُرتهم
كما يخبئ البخلاء الذهب:
ستاندر أويل توقظهم،
تنظمهم، وتشير لهم

أي الاخوة هو العدو،

فيقوم الباراغوايي بشن حربه،
وينطلق البوليفي
بمسدسه الرشاش في الغابة.

يُغتال رئيسٌ
من أجل قطرة بترول،
تُرهن ملايين الهكتارات
والإعدام رمياً بالرصاص
يتم سريعاً في صباحِ
ضوءٍ فانٍ، متحجر،
ويُفتتح معسكر اعتقال جديد
للمناهضين في «باتاغونيا»،
خيانة، تبادل إطلاق نار
تحت القمر البترولي،
تغيير وزاري مُهَلْهَل
في العاصمة، إشاعة
مثل دُوار الزيت
ثم ضربة المخلب، وسترى
كيف تلمع فوق السحاب،
فوق البحار، في بيتك،
حروف «ستاندر أويل»
مضيئة مناطق سطوتها.

انكوندا كوبر مينىنغ كومباني
يا اسماً ملتفاً كالأفعى،

يا مزرّداً شرهاً لا يشبع، يا مسخاً أخضر،
في الأعالي المتراكمة،
على المطية المتخلخلة،
في وطني، تحت قمر القسوة،
تفتحين، أيتها الحفارة، الفوهات المشعة،
فوهات المعدن المنجمي، وأنفاق
النحاس العذري المصهور
برماله الغرانيتية.

أنا رأيت نار الآلام تتقد
في ليل تشوكيكاماتا الأبدي،
في الأعالي،
والفرقعة الطاغية
للسيكلوب الذي يلتهم
يد، ووزن، وخاصرة التشيليين،
وهو يطويهم
تحت فقراته النحاسية،
مُفرغاً دماءهم الفاترة،
طاحناً عظامهم
ليبصقهم في الجبال
والصحارى الكئيبة.

الهواء يصفر في أعالي
تشوكيكاماتا المرصعة بالنجوم.
الحفر تقضي

بأكف الإنسان الصغيرة،
على مقاومة الكوكب الأرضي،
ويرتعش طائر الحناجر
الكبريتوري، وتتمرد
برودة المعدن الحديدية
بجراحها المتفردة،
وعندما تدوي الصفارات
تبتلع الأرض صفوفاً
من رجال صغار
ينزلون بين فكّيّ فوهة المنجم.

إنهم قادة صغار،
أبناء عمومتي، أبنائي،
وعندما يصبّون المعدن الخام
نحو البحار، ويمسحون جباههم
ويعودون مرتجفين
في القشعريرة الأخيرة،
تأكلهم الأفعى الضخمة،
تُصغّرهم، تطحنهم،
تغطيهم بلعاب مشؤوم،
تُلقي بهم إلى الدروب،
تقتلهم على أيدي الشرطة،
تتركهم يتعفنون في معسكر بيساغوا،
تسجنهم، تبصقهم،
تشتري رئيساً خائناً

يشتمهم ويطاردهم،
تقتلهم جوعاً
في بطاح المدى الرملي.

ويبقى صليبُ ماثل هنا أو هناك
في المنحدرات الجهنمية
كحطبة وحيدة مبعثرة
من الشجرة المنجمية.

اليونايتد فروت كومباني

عندما نُفخ في الصُور، كان
كل شيء مُعَداً على الأرض،
وقسَّمَ "يهوه" العالم
ما بين كوكاكولا انكربوريشن، وانكوندا،
وفورد موتورز، وشركات أخرى،
واحتفظت شركة الفواكه المتحدة
بما هو رحيقي،
بشاطئ أرضنا الأوسط،
بخاصرة أميركا العذبة.
وعَمّدتْ من جديد أراضيها
باسم «جمهوريات الموز»،
وفوق الموتى النائمين،
فوق الأبطال المتململين
الذين حققوا العَظَمة،
والحرية والرايات،

استقرت أوبرا التهريج:
استبعدت الشركة الحريات،
وأهدتْ تيَجاناً لقيصر،
شهرت سيف الحسد، اجتذبت
دكتاتوريات الذباب،
الذبابة تروخيّو، الذبابة تاتشو،
الذبابة كاريّاس، الذبابة مارتينث،
الذبابة أوبيكو، ذباب مبلل
بالدم البائس والمربيات،
ذباب ثمل يَطن
فوق القبور الشعبية،
ذبابات سيرك، ذبابات عَالمة
متضلّعة في الدكتاتورية.

وبين الذباب الدموي
كانت شركة الفواكه تشحن،
مُتلفة البُنّ والفواكه،
في مراكبها المنزلقة
مثل أطباق محملة بكنوز
أرضنا الغارقة.

بينما كان في هاويات
الموانئ السكرية
هنود يَسقطون ويَدفنون
في الباخرة الصباحية:

جسد يتدحرج، شيء
بلا اسم، رقم شهيد،
عنقود فاكهة ميتة
مُستَنزَف في مستودع الجثث.

الأرض والبشر

أيها الإقطاعيون القدماء، يا من ترصعون
الأرض مثل عظام حيوانات رهيبة،
أيها الورثة الخرافيون
لـ «إنكوميندا»[١]، يا أباطرة
الأرض المظلمة، المغلقة
بالحقد والمسيَّجة بالشوك.

بين الأسيجة غرقت
سَداةُ الكائن البشري،
ودُفن الطفلُ حياً،
حُظر عليه الخبز والحرف،
ووُسم كمُستأجر،
وحُكم عليه بالعَيش في الزرائب.
أيها الفلاح البائس التعيس
وسط العوسج،
أيها المُقيد إلى العدم،

---

١ إنكوميندا: قانون من قوانين النظام الاستعماري في أميركا الاسبانية، يقضي بتوزيع السكان الهنود على قادة الجيش الغازي، وعلى هؤلاء الهنود أن يعملوا مجاناً لأسيادهم، أو أن يدفعوا لهم ضريبة، وعلى الأسياد بالمقابل أن يعلموا الهنود أصول الديانة المسيحية.

إلى ظلال المروج الوحشية.

لقد كنتَ لحماً أعزَل بلا كتاب،
ثم هيكلاً عظمياً ساكناً،
مُشْتَرى من حياة إلى أخرى،
مرفوضاً أمام البوابة البيضاء
وبلا أي حُبّ سوى حبّ قيثارة
تُقطِّع القلوب بحزنها
والرقصة التي لم تكد تشتعل
مثل زخة مبللة.

لكن جراح الإنسان لم تكن
في الريف فقط، فبعيداً،
وقريباً، وعميقاً غُرست:
في المدينة، بجانب القصر،
نما الكوخ الأجذم،
مُجَمّع القمامة،
مع داء تأكله المُتهِم.

لقد رأيتُ في منعطفات تالكاهوانو المريرة،
في رماد الجبال الغارق في الماء الراكد،
زهور قذارة الفقر تغلي،
وخليط القلوب المُذَلّة،
والدمامل المفتوحة
في عتمة العشية الغائصة.

وندبة الأسمال،
والجوهر الهرم
للإنسان المشعث والمضروب.

لقد دخلتُ إلى البيوت الغائرة،
مثل جحور الفئران، الرطبة
بملح البارود وملح متعفن،
ورأيتُ كائنات جائعة تتجرجر،
وظلمات منزوعة الأسنان
تحاول الابتسام لي
عبر الهواء اللعين.

لقد اخترقتني سهام شعبي،
والتفت مثل أسلاك حول روحي:
شنّجت روحي:
فخرجتُ أصرخ في الشوارع،
خرجتُ أبكي ملفوفاً بالدخان،
طرقتُ الأبواب فجرحتني
مثل ساكين شوكية،
ناديت الوجوه القاسية
التي قَدّستُها من قبل كالنجوم
فأبدت لي خواءها.
عندئذ جعلت من نفسي جندياً:
رقماً غائماً، جيشاً،
نظام قبضات مقاتلة،

جهاز تبصّر،
خيطاً من خيوط الزمن اللامعدودة،
شجرة مسلحة،
طريقاً لا يُتْلَف للإنسان
على الأرض.

ورأيتُ كم كنا، وكم كانوا
إلى جانبي، ليسوا أحداً،
إنهم جميع البشر،
لا وجوه لهم، فقد كانوا شعباً،
كانوا معدناً، كانوا دروباً.
ومشيتُ مع خطوات الربيع ذاتها
في العالم.

المتسولون

إلى جانب الكاتدرائية، معقودون
إلى الجدار، حملوا أقدامهم،
صررهم، نظرتهم السوداء،
وأباريقهم الشاحبة،
وعلب طعامهم الصفيحية البالية،
وهناك، في قداسة الحجر القاسية،
صاروا نباتات الشوارع،
وورود الأوبئة الشرعية الشاردة.

للحديقة متسولوها

مثل أشجارها ذات الفروع والجذور
المعذبة:
فعند أقدام الحديقة يحيا العبد،
متحولاً إلى قمامة، كما هي نهاية الإنسان،
جاهزاً لمكنسة الموت.
الإحسان يدفنه
في ثقب أرضه الأجذم:
مقدماً بذلك مثلاً لإنسان عصري.
يجب عليه أن يعرف كيف يدوس، كيف يُغرِق
أبناء جنسه في مستنقعات الازدراء،
كيف يضع حذاءه على جبهةِ
الكائن المرتدي بزة المهزوم،
أو على الأقل عليه أن يدرك ذلك
في منتجات الطبيعة.
أيها المتسوَل الأمريكي، يا ابن عام ١٩٤٨،
يا حفيد الكاتدرائيات،
أنا لا أحترمك،
ولن أضع عاجاً قديماً،
ولا لحية مليك على صورتك المرسومة،
مثلما يبرزونك في الكتب،
وإنما سأكنسك بالأمل:
لن تدخل في صدري مع معشرك،
مع الذين خلقوك باصقين
شكلك الذليل،
سأبعد طينتك عن الأرض

إلى أن تصوغك المعادن
وتخرج لامعاً مثل سيف.

الهنود

الهندي فرّ من جلده إلى أعماق
الاتساع القديم حيث كان قد صعد يوماً
كالجُزر.. مهزوماً،
وتحول إلى سديم غير مرئي
وراح يشق الأرض، ويسكب
علامته السرية على الرمل.

مَنْ استهلك القمر، مَنْ سَرّح
عزلة العالم السرّية،
مَنْ لم يغادر دون أن ينتصب
في حجارة شامخة متوّجة بالهواء،
مَنْ استمر مثل ضوء سماوي
تحت ثقَل دَغَله،
استُنزف فجأة حتى غدا خيطاً،
تحول إلى تجاعيد،
حطم أبراجه الغزيرة
وتلقى حزمة أسماله.

أنا رأيته في أعالي أميركا الممغنطة،
يقرض ضفاف المياه الكتيمة:
لقد سرتُ فوق جلال الجيل البوليفي الثقيل

مع بقاياهم
من عصفور وجذر.
ورأيتُ
أخي في الشعر المجنون،
«ألبيرتي»، يبكي في الباحات الأراوكانية
عندما أحاطوا به مثلما أحاطوا من قبل بـ "إرثيَا"
وكانوا بدلاً من تلك الآلهة الحمراء،
سلسلة بنفسجية من الموتى.

وبعيداً، في شبكة الماء الوحشي
ماء «تييرا دي فويغو»،
رأيتهم يصعدون، آه أيتها الذئاب، شُعْثاً،
إلى الزوارق المهشمة،
ليتسولوا الخبز من البحر المحيط.

هناك كانوا يقتلون كل خيط
من ألياف سلطتهم المقفرة،
وكان صياد الهنود يتلقى
أوراق نقد قذرة لقاء جلبه الرؤوس،
رؤوس سادة الهواء، وملوك
عزلات الثلج الجنوبية.

مَنْ دفعوا للمجرمين
يجلسون اليوم في البرلمان،
ويعقدون قرانهم في مقرات الرئاسة،

يعيشون مع الكردينالات والمديرين،
بينما الورود تنمو
فوق حنجرة سادة الجنوب المقطوعة بالسكين.

قنازع الريش الأراوكانية
خرّبها النبيذ،
أتلفتها الحانة،
سَوّدها المحامون
ممن يخدمون سرقة مملكتهم،
والذين أعدموا الأرض رمياً بالرصاص،
ومن حماهم في الدروب،
مصارع ضفتنا
الباهر.
دخلوا وهم يطلقون الرصاص ويتاجرون،
أطلقوا على أنفسهم اسم "ناشري السلام"
ورفعوا من مرتبتهم.

هكذا فقد الهندي أملاكه دون أن يرى،
هكذا كان غير مرئي انهيار ملكه:
لم ير الرايات،
لم يطلق السهم الدامي،
وإنما قضموه شيئاً فشيئاً
قضاة ولصوص وملاكون،
جميعهم استولوا على عذوبة الإمبراطورية،
جميعهم أوقعوه في الشّرك

إلى أن ألقوا به نازفاً
في أقصى المستنقعات الأمريكية.

ومن الصفائح الخضراء،
من سماء الأوراق المتعددة والنقية،
ومن المسكن الأبدي المشيّد
بأزهار الغرانيت الثقيلة،
سِيق إلى الكوخ المُحطم،
إلى بالوعة البؤس القاحلة.
من العُرْيِ الساطع،
من الصدور الذهبية، والخصر الشاحب،
أو من الزُخْرُف المعدني
الذي ضَمّ كل الندى إلى جلده،
أخذوه إلى خيط الأسمال،
ووزعوا عليه سراويل ميتة
وهكذا مضى جلاله المُرقع
في هواء العالم الذي كان ملكه.
هكذا اقتُرِفت هذه الجريمة.

العملية كانت غير مرئية مثل دخول
الخائن، مثل سرطان لا يمكن لمسه،
إلى أن اختنق أبونا،
إلى أن أظهروه شبحاً
ودخل من البوابة الوحيدة التي فتحوها أمامه،
بوابة فقراء آخرين، بوابة جميع

الفقراء المجلودين على الأرض.

القضاة

في أعالي البيرو، في نيكاراغوا،
فوق باتاغونيا، وفي المدن،
لم يكن لكَ حق، لم تملك شيئاً:
يا كأس البؤس،
يا ابن أميركا المهجور،
لا قانون، ولا قاضٍ
يحمي أرضكَ، بيتكَ الصغير وما فيه من ذُرة.

عندما أتى نَسْلُ معشرك،
سادة معشرك، وكان حلم المخالب والمدى
قد أصبح منسياً،
جاء القانون ليُخلي سماءك،
لينتزع منك التراب الذهبي،
ليُجادل في مياه الأنهار،
ليسلبك مملكة الأشجار.

شهدوا عليك، ختموا
على قميصك، غلفوا
قلبك بأوراق وأوراق،
دفنوك بمراسم باردة،
وعندما استيقظت في حدود
أقصى النكبات تدهوراً،

وأنت محروم، متوحد، تائه،
أعطوك زنزانة، قيدوك،
وغلّوا يديك حتى لا تستطيع السباحة
والخروج من بحر الفقراء،
وإنما لتغرق وأنت ترفس بقدميك.

القاضي اللطيف يقرأ عليك المادة
رقم أربعة آلاف، الفقرة الثالثة،
المادة نفسها المستخدمة في كل أنحاء
الجغرافية الزرقاء التي حررها
آخرون كانوا مثلك وسقطوا،
ويَحكُمُ عليك حسب قانونه،
وبلا استئناف، بأنك كلب أجرب.

دمك يقول، كيف حاكوا
الغنى والقانون؟ بأي نسيج
من حديد كبريتي، وكيف يسقط
الفقراء دوماً في المحكمة؟
كيف أصبحت الأرض مريرة هكذا
للأبناء الفقراء الذين رضعوا
الحجارة والآلام بقسوة؟
هكذا حدث وهكذا أُسجّلُه.
فالحيوات سجّلته على جبهتي.

III

قتلى الساحة ٢٨ كانون ثاني ١٩٤٦

سنتياغو دي تشيلي
لستُ آتياً لأبكي هنا، حيث سقطوا:
إنني آتٍ إليكم، آتٍ إلى الذين حضروا.
آتٍ إليك وإلي، لأدقّ على صدرك
لقد سقط آخرون من قبل.
أتذكر؟ أجل أنت تذكر.
آخرون كانت لهم الأسماء والألقاب نفسها.
سقطوا في سان غريغوريو،
في لونكيماي الماطرة،
في رانكيل بعثرتهم الريح،
وفي إكيكي دُفنوا في الرمال،
وعلى امتداد البحر والصحراء،
على امتداد الدّخان والمطر
من سهوب البامبا حتى جزر الأرخبيل
قُتل رجال آخرون،
آخرون مثلك كانت أسماؤهم: انطونيو
وكانوا مثلك صيادين أو حدادين:
إنهم لحم تشيلي، وجوه
جرحتها الريح،
عذبتها البامبا،
وختم عليها الألم.

لقد وجدتُ بين جدران الوطن،
إلى جانب الثلج وبلّوراته،
ووراء النهر ذي الفروع الخضراء،
وتحت النيترات والسنبلة،
وجدت قطرة من ماء شعبي
وكل قطرة مثلَ النار كانت تتّقد.

المجازر

لكن الدماء أُخفيتْ حينذاك
وراء الجذور، غُسِلت
وأُنكِرتْ
(لقدْ كانت بعيدة جداً)، مطر الجنوب محاها
عن التراب.
(بعيدة جداً كانت)، ملح البارود
التهمها في سهول البامبا:
وكان موت الشعب كالعادة:
كأن أحداً لم يمت، لا شيء،
كأن من سقطوا على الأرض
هم حجارة، أو ماء على الماء.

من الشمال حتى الجنوب، حيث سَحَقوا الموتى
أو أحرقوهم،
تَمّ دفنهم في الظلام،
أو أُحرِقوا بصمت تحت جنح الليل،
أُلقِي بهم في بئر

أو قُذِفت إلى البحر عظامهم:
لا أحدَ يعرف مكانهم الآن،
ليس لهم ضريح.
في جذور الوطن منثورة
أصابعُهم المسحوقة:
قلوبهُم التي اخترقها الرصاص:
ابتسامةُ التشيليين:
شجعان البامبا:
أمراء الصمت.

لا أحد يعرف أين دَفَنَ القتلةُ
تلك الأجساد،
ولكنها ستخرج من تحت التراب
في ثورة الشّعب
لتأخذ ثمن الدم المهدور.

أما هذه الجريمة فكانت في وسط الساحة.
الغابة لم تُخْفِ الدماء الطاهرة،
دماء الشعب؛ ورمال البامبا لم تمتصها.

لم يُخْفِ أحد هذه الجريمة

فهذه الجريمة كانت في وسط الوطن.

رجال النيترات

لقد كنتُ في مناجم النيترات،
مع الأبطال القائمين،
مع الذي يحفر ثلج الخصوبة الرقيق
في قشرة الكوكب القاسية،
وصافحتُ بفخر أيديهم الترابيّة.
هم قالوا لي: "انظر،
يا أخانا، كيف نحيا،
هنا في هومبيرستون، هنا في مابوتشو،
في ريكابينتورا، في بالوما،
في بان دي اثوكار، في بيوخييّو.

وأروني وجباتهم
من الطعام البائس،
وأرض بيوتهم الترابيّة،
والشمس والغبار والبراغيث
والعزلة الفسيحة.

ورأيتُ عمل الحفّارين،
الذين يتركون على عصي
الفؤوس كل آثار أكفهم
مجتمعة.

أنا استمعتُ إلى صوت آتٍ
من أعماق نفق المنجم الضيّق

الذي مثل رحم جهنمي،
ورأيت صاحب الصوت بعدها يتطلّعُ إلى أعلى.
إنه كائن بلا وجه،
إنه قناع مُعفر
بالعَرق، بالدم، وبالتراب.

قال لي: «أنّى ذهبتَ
حدّث الناس عن هذا العذاب،
تحدث يا أخي عن أخيك
الذي يحيا تحتُ، في الجحيم.»

الموت

أيها الشعب، هنا قررْتَ أن تمد يدك
إلى عامل البامبا المضطهَد، وتناديت،
برجالك، بنسائك، بأطفالك
قبل سنة إلى هذه الساحة.
وهنا أُريقت دماؤك.
في وسط الوطن سُفكتْ،
مقابل القصر، في منتصف الشارع،
ليراها الجميع
ولكي لا يستطيع أحد محوَها،
ولتبقى البقع الحمراء
مثل شهاب لا تخمد.

كان هذا عندما التحمت يد تشيلية بأخرى

ومدت أصابعها نحو البامبا،
وبقلب كامل
مضت وحدة كلمتهم:
كان هذا، أيها الشعب، عندما سِرتَ تغني
أغنية قديمة مع الدموع،
مع الأمل ومع الألم:
فأتت يد الجلاد
وضمخت الساحة بالدم!

كيف تولد الرايات

مازالت هكذا راياتنا حتى اليوم،
فالشعب طرزها برقته:
أخاط الأسمال مع الآلام.
وغرس النجمة بيده المتقدة.
ثم انتزع من قميص أو من السماء
زُرقةً لنجمة الوطن.

الأحمر قطرةً بعد قطرةٍ كان يُولد.

أناديهم

واحداً واحداً سأحدثهم هذا المساء.
واحداً واحداً ستأتون إلى الذكرى
في هذا المساء، إلى هذه الساحة.

مانويل أنطونيو لوبيث،

أيها الرفيق.

ليسبوا كالديرون،
لقد خانك آخرون، ونحن سنواصل طريقك.

أليخاندرو غوتبريث،
إن الراية التي هوت معك
تنتصب الآن في كل أرجاء المعمورة.

ثيسر تابياس،
إن قلبك في هذه الرايات
يخفق اليوم مع رياح الساحة.

فيلومينو تشافيث،
لم أصافح يدكَ يوماً، ولكن هاهي ذي يدي هنا:
إنها يد نقية لا يقتلها الموت.

رامونا باراً، أيتها النجمة
الفتية المضيئة،
رامونا باراً، أيتها البطلة الغضة،
رامونا باراً، أيتها الزهرة الدامية،
رفيقتنا، يا قلباً باسلاً،
أيتها الطفلة المثالية،
أيتها المُحاربة الذهبيّة:
نُقسم باسمكَ أن نواصل هذا النضال

لكي يزهر دمكِ المهدور.

الأعداء

هم الذين جاؤوا بالبنادق المحشوّة
بالبارود، هم الذين أصدروا أمر الإبادة الفظّ،
هم الذين وجدوا هنا شعباً يغني،
شعباً جمعه الحُبّ والواجب،
والصَبيَّة النحيلة سقطت مع رايتها،
والفتى الباسم تدحرج إلى جانبها جريحاً،
وذهول الشعب رأى الموتى وهم يسقطون
بغضب وألم.
عندئذ، وفي المكان
الذي سقط فيه المغدورون،
نُكست الأعلام لتتضمّخ بالدم
ولترتفع من جديد في وجه القتلة.

من أجل هؤلاء القتلى - قتلانا -
أطالب بالقصاص.

للذين ضرجوا الوطن بالدماء،
أطالب بالقصاص.

من الخائن الذي ارتقى فوق الجريمة،
أطالب بالاقتصاص.

من الذين دافعوا عن الجريمة،
أطالب بالاقتصاص.

لا أريد أن يمدوا إليَّ يدهم
الملطخة بدمائنا.
أريد القصاص.
لا أريد أن ترسلوهم سفراء،
ولا أن تبعثوهم بهدوء إلى بيوتهم،
أريدهم أن يُحاكموا هنا،
في هذه الساحة، في هذا المكان.

أريد القصاص.

إنهم هنا

علي أن أنادي هنا كما لو كانوا هنا.
إخوتي: اعلموا أن نضالنا
سيستمر على الأرض.

سيستمر في المصنع، في الحقل،
في الشارع، في مناجم ملح البارود.

في منجم النحاس الأخضر والأحمر،
في الفحم وأنفاقه الرهيبة.
سيكون نضالنا في كل الأنحاء،
وفي قلوبنا ستكون الرايات

التي شهدت مصرعكم،
التي تضمخت بدمائكم،
وستتكاثر كتكاثر أوراق
الربيع السرمدي.

دائماً إلى الأبد

حتى لو داست الأقدام ألف عام
هذا المكان،
فإنها لن تمحو دماء الذين سقطوا.

ولن تنطفئ اللحظة التي سقطتم فيها،
حتى لو اخترقت آلاف الأصوات هذا الصمت.
المطر سيبلّل أحجار الساحة،
ولكنه لن يمحو أسماءكم النارية.

ألف ليلة ستخيم بأجنحتها القاتمة،
دون أن تقوض النهار الذي ينتظره هؤلاء القتلى.

نهار العدالة المأخوذة بالنضال.
وأنتم - أيها الإخوة الشهداء - بصمت
ستكونون معنا في ذلك النهار الرحب
نهار النضال النهائي، النهار الفسيح.

IV

وقائع من عام ١٩٤٨ (أميركا)

يا عام شؤم، يا عام فئران، يا عاماً نجساً!
عالياً كان خطك ومعدنياً
على ضفاف الأقيانوس
والهواء، مثل سلك
من عواصفَ وتوتر.
ولكنكِ أيضاً يا أميركا

ليليّة، زرقاء ومستنقعيّة:
مستنقع وسماء، احتضار
قلوب مسحوقة
مثل برتقالات سوداء مهشمة
في صمتكِ، صمت الأقبية.

باراغواي

يا باراغواي المكبوحة!
ما كان نفع القمر النقي
الذي أضاء أوراق
الهندسة المذهبة؟
وفيمَ نَفَعَ الفكر
الموروث من الأعمدة
ومن الأرقام الوقورة؟

لأجل هذا الثقب المُثقَل
بالدم المتعفن، لأجل
هذا الكبد الاعتدالي
المنتزع من الموت.
من أجل مورينيغو المُتَسلّط،
الرابض فوق السجون
في بركة عطوره،
بينما الريش القرمزيّ
لطيور الكولبيري الكهربائية
تطير وتسطع
فوق فقراء الغابة الموتى.

أيها العام الخبيث، يا عام زهور ضامرة،
يا عام بنادق، انظر إلى ما تحت عينيك،
لا تدع ألمنيوم الطائرة، ولا موسيقى
سرعتها الجافة الصاخبة تعميك:
انظر إلى خبزك، إلى أرضك،
إلى حشودك المُجَرحة،
إلى ذريتك المسحوقة!
أترى هذا الوادي
الأخضر والرمادي من أعالي السماء؟
زراعة شاحبة، ومنجمية
رثة، صمت ونحيب
كالقمح يسقط
ويُولد

في أبدية أثيمة.

البرازيل

برازيل دوترا[1]، الديك الرومي
الرهيب في الأراضي الساخنة،
المُسمَّن بأغصان الهواء السام المريرة
للهواء السام:
ضفدع المستنقعات السوداء
في قمرنا الأمريكي:
أزرار ذهبية،
عينا فأر رمادي داكن:
آه - يا سيدي - لأمعاء
أمنا المسكينة الجائعة،
لكل هذا الحلم والمحررين المُشرِقين،
لكل هذا العَرق فوق فتحات
المنجم، لكل هذه
العزلة في المزارع،
أميركا، إنك ترفعين فجأة
إلى وضوحك الكوني
«دوترا» مُسْتخرَجاً من أعماق زواحفك،
من أعماقك الخرافية الصماء.

وهكذا حدث!

---

١ أوريكو غاسبار دوترا، (١٨٥٨ ـ ١٩٧٤) جنرال برازيلي، ورئيس الجمهورية ١٩٤٥ ـ ١٩٥٠.

أيها البناؤون البرازيليون،
اضربوا الحدود ،
أيها الصيادون، ابكوا ليلاً
فوق المياه الساحلية،
بينما «دوترا »، بعينيه الصغيرتين
كعيني خنزير غابيّ،
يحطّم المطبعة بفأسٍ،
يحرق الكتب في الساحة،
يسجن، يطارد ويجلد
إلى أن يخيم الصمت
في ليلنا الداجي.

كوبا

إنهم يقتلون في كوبا!

هاهم قد وضعوا «خيسوس مينيندث»[1]
في صندوق اشتروه حديثاً.
لقد خرج، مثل مليك، من الشعب،
ومضى ناظراً إلى الجذور،
موقفاً العابرين،
ضارباً صدور النائمين،
مُقراً الأعمار،

١ خيسوس مينيندث : نقابي كوبي ، زنجي الأصل . كان أميناً عاماً للاتحاد الوطني لعمال صناعة السكر . وفي الثاني والعشرين من كانون الثاني ١٩٤٨ ، وبينما هو عائد من زيارة لعمال مصانع السكر في منطقة اوريئتي ، ولدى نزوله من القطار ، أطلق عليه الضابط خواكين كاسياس لوميوتي النار وأرداه قتيلاً .

مُعيداً تركيب الأرواح المهشمة،
ورافعاً السكر
من حقول القصب الدامية،
والعَرق الذي يعفن الحجارة،
سائلاً في المطابخ
الفقيرة: من أنت؟ كم تأكل؟
ملامساً هذا الذراع، هذا الجرح،
ومراكماً هذا الصمت
في صوت واحد، الصوت الأجش
صوت كويا المنقطع.
اغتاله ضابط صغير،
جنرال صغير: في قطار
قال له: تعال، وعلى الظهر
أطلق الجنرال الصغير النار،
ليصمت الصوت،
صوت حقول القصب الأجش.

أميركا الوسطى

يا عام شؤم، أترى
ما وراء الظلال الكثيفة
لأحراش خاصرة جغرافيتنا؟
موجة تصطدم بالشاطئ
مثلما تصطدم نحلات زرقاء بقرص الشهد
فيطير بريق البحرين
فوق الأرض الضيّقة...

يا أرضنا النحيلة مثل سوط،
ساخنة مثل عذاب،
إن خطوك في هندوراس، دمك
في سانتو دومينغو، ليلاً،
عينيك في نيكاراغوا
تلمسني، تدعوني، تطالبني،
وعبر الأرض الأمريكية
أقرعُ الأبواب لأتكلم،
أقرعُ الألسنة المُقيدة،
أرفعُ الستائر، أغرسُ
اليد في الدماء:
آه، يا آلام
أرضي، آه ياحشرجات
الصمّت العظيم المُستَقِر،
آه يا شعوب الاحتضار الطويل،
آه يا خاصرة الزفرات.

بويرتو ريكو

مستر ترومان يصل إلى الجزيرة
جزيرة بويرتو ريكو،
يأتي إلى مياه بحارنا
الصافية الزرقاء
ليغسل أصابعه الدامية.
فقد أمر لتوه
بقتل مئتي شاب يوناني،

ورشاشاته تعمل
بصرامة،
كل يوم
تسقط بأوامره الرؤوسُ
الدوريدية[1]. عنب وزيتون -،
عيون البحر القديم، أوراق
تيجان الأعمدة الكورنتسية[2]،
على التراب اليوناني.
والقتلة
يرفعون كأس قبرص المعذبة
مع الأمريكيين المجربين،
بين قهقهات صاخبة،
وشوارب تقطر
زيتاً مقلياً ودماً يونانياً.

ترومان يصل إلى مياهنا
ليغسل يديه الحمراوين
من الدم البعيد. بينما هو
يقرر، يعظ، يبتسم
في الجامعة بلغته،
ويُطبق الفم الناطق بالقشتالية،
يغطي ضوء الكلمات
التي سالت هناك

---

١ الدوريدية : نسبة إلى منطقة دوريدي اليونانية .

٢ الكورنتسية ، نسبة إلى مدينة كورنتس اليونانية القديمة التي نافست اثينا وإسبارطة .

مثل نهر سلالة شفافة
ويَسن قراراً: «فلتمت لغتكِ،
يا بويرتو ريكو».

اليونان

(الدم اليوناني
ينزل في هذه الساعة. يُشرق
في التلال.
إنه مجرد
جدول بين التراب والأحجار:
الرعاة يدوسون
دمَ رعاةٍ آخرين:
إنه مجرد
خيط نحيل ينزل
من الجبال حتى البحر.
حتى البحر الذي يعزف ويغني.)

... إلى أرضك، إلى بحرك التفت بعينيك،
انظر الوضوح في المياه والثلوج الجنوبية،
في الشمس وهي تُشكّل الأعنابَ،
في بريق الصحراء، في ظهور تشيلي
بخطه المصفوع...

في «لوتا»[1] تقوم مناجم الفحم

---

[1] لوتا، بلدة تشيلية في مقاطعة كونسبسيون. وهي مركز منجمي وميناء هام.

المنخفضة: إنها ميناء بارد،
في الشتاء الجنوبي الخطير،
المطر يسقط ويسقط على السطوح، كأجنحةِ
نوارس لها لون الضباب،
وتحت البحر المكفهر
يحفر الإنسان ويحفر في الطبقة السوداء.
حياة الإنسان هنا قاتمة
مثل الفحم، ليل رث،
خبز بائس، نهار قاس.

لقد جلتُ طويلاً في العالم
ولكني لم أرَ أبداً
في الدروب أو المدن
امتهاناً أسوأ للإنسان.
اثنا عشر رجلاً ينامون في غرفة واحدة.
الغرف لها سقوف
من بقايا لا اسم لها:
قطع صفيح، أحجار،
كرتون، ورق مبلل.
أطفال وكلاب، في بخار
المحطة الباردة الرطب،
يجتمعون ليُمنحوا
نار الحياة البائسة التي ستكون يوماً
جوعاً وضباباً متجدداً.

العذابات
إضراب آخر، الأجور
لا تكفي، النساء يبكين
في المطابخ، عمال المناجم
يوحدون أيديهم
وآلامهم.
إنه إضراب
الذين تحت البحر يحفرون،
وهم منبطحون في الكهف الرطب،
الذين استخرجوا بالدم والجهد
الكتلة السوداء من المناجم.
هذه المرة أتى الجنود.
حطموا لهم البيوت، ليلاً،
وساقوهم إلى المناجم
وكأنهم يقودونهم إلى المعتقل
سلبوهم الطحين البائس الذي يملكون،
وحبة الرز التي لأطفالهم.

بعد ذلك، وهم يضربون الجدران،
نفوهم، أغرقوهم،
حاصروهم، وَسمُوهم
كما يَسمون البهائم، وفي الدروب،
في خروجِ الآلام،
رأى أمراء الفحم
أولادهم يُطردون ،

نساءهم يدسنَ
ومئات المنجميين
يُبعدون ويُسجنون،
في باتاغونيا، حيث البرد القطبي،
أو في صحراء بيساغوا.

الخائن
وفوق هذه المحن
ثمة طاغية يبتسم
باصقاً آمال
عمال المناجم المغدورين.

كل شعب له آلامه،
كل نضال له عذاباته،
ولكن تعالوا إلى هنا وقولوا لي
إذا كان بين السفاحين،
بين جميع الضالين
الطغاة، المتوجين بالحقد،
الذين صولجاناتهم سياط خضراء،
أحد يشبه طاغية تشيلي
هذا الذي خان وعوده وابتساماته
وداسها
هذا الذي جعل القَرْفَ وسطه،
هذا الذي رقص على آلام
شعبه البائس المهان.

وعندما تراكمتْ عيون سوداء
عيون الأذلاء، المهانين
في السجون المزدحمة
بضحايا قوانينه الغادرة،
كان يرقص في «بِنيا دي مار»،
محاطاً بالمجوهراتِ والكؤوس.

لكن العيون السود كانت تنظر
من خلال الليل الأسود.

ما الذي فعلته أنت؟ ألم تأت كلمتك
من أجل الأخ في المناجم الواطئة،
من أجل آلام المغدورين،
ألم يصلك صوت المناداة
لتهتف وتدافع عن شعبك؟

إني أتهم

عندئذ اتهمتُ ذاك الذي
خنق الأمل،
صرختُ في أرجاء أميركا
ووضعت اسمه في كهف
العار.
عندما أنبتتني الجرائم،
وقطيع الكلاب الضارية

المَبيعة والمُستأجَرة:
«أَمنا الحكومة»،
الشرطة كتبوا
بالقطران شتيمتهم الغليظة
ضدي، لكن الجدران
كانت تنظر إلى الخونة
وهم يكتبون اسمي بحروف كبيرة
وكان الليل يمحو،
بأيديه العديدة،
أيدي الشعب والليل،
الوصمة التي يريدون إلصاقها باطلاً
بنشيدي.

مضوا عندئذ ليلاً
ليحرقوا بيتي (النار تشير الآن
إلى اسم من بعثهم)،
واجتمع القضاة كلهم
لإدانتي، وبحثوا عني،
ليصلبوا كلماتي
وليعاقبوا هذه الحقائق.

أغلقوا جبال تشيلي
حتى لا أخرج
لأروي ما يحدث هنا،
وعندما فتحت المكسيك أبوابها

لتستقبلني وتحميني
أمر توريس بوديت، الشاعر البائس[١]،
بتسليمي
إلى السجانين الموتورين.

لكن كلمتي بقيت حية،
وبقي قلبي الحر يتهم.

ماذا سيحدث، ماذا سيحدث؟ في ليل
بيساغوا، والسجن، والأغلال،
والصمت، والوطن المهان،
وهذا العام المشؤوم، عام الفئران العمياء،
هذا العام المشؤوم، عام الحقد والضغائن،
ماذا سيحدث، تسألني، ماذا سيحدث؟

الشعب المنتصر
قلبي في هذا النضال.
شعبي سينتصر. جميع الشعوب
ستنتصر، شعباً فشعباً.
هذه الآلام
ستُعتَصرُ مثل مناديل
إلى أن تقطر كل الدموع المراقة
في حُفَرِ الصحراء، في القبور،

---

١ خيمي توريس بوديت: (١٩٢٠ ـ ١٩٧٤) شاعر وسياسي مكسيكي.

على أدراج العذاب البشري.
لكن زمان النصر قريب.
وليكن الحقد وسيلتنا كي لا ترتعش
يد القصاص،
لتصل الساعة
في ميقاتها، في اللحظة النقية،
وليملأ الشعب الشوارع الخاوية
بأبعاده الطازجة الصامدة.

ها هي ذي رقتي من أجل ذلك اليوم.
أتعرفونها؟. ليس لي راية أخرى.

V

غونثالث بيديلا، خائن تشيلي (خاتمة) ١٩٤٩

من سلاسل الجبال القديمة
خرج الجلادون، مثل عظام،
مثل أشواك أمريكية على ظهر سلالة الكوارث
الأزب، وقد استقروا،
وتكوّنوا في بؤس أهالينا.
في كل يوم كان الدم يلطخ حواشي ملابسهم.
ومن الجبال، مثل حيوانات ناشرة العظام،
أنجبوا لطيننا الأسود.
أولئك الذين كانوا النمور العَظائية،
الأمراء الجليديين،

الخارجين لتوهم من كهوفنا وهزائمنا.
هكذا نبشوا عن فكّي «غوميث»
تحت الدروب الملطخة بخمسين عاماً من دمنا.

الحيوان أظلمَ الأراضي بأضلاعه
عندما كان يفتل شاربه بعد تنفيذ الإعدامات
وهو إلى جانب السفير الأميركي الذي يقدم له الشاي.

المُسُوخ حَفَّروا، ولكنهم لم يكونوا حفراء.
أما الآن
ففي الركن الذي حجزه النور للنقاء،
في الوطن الأبيض الثلجي، الوطن الأراوكي،
ثمة خائن يبتسم فوق عرش متعفن،
ويترأس الخِسة في وطني.

إنه غونثالث بيديلا، الفأر الذي ينفض
فروته المليئة بالرَوْث والدم
على أرض وطني الذي باعه.
كل يوم
يُخرجُ من جيوبه النقودَ المسْروقة
ويفكر إذا ما كان سيبيع في الغد أرضاً
أم دماً.
لقد خان كل شيء.
صعد على أكتاف الشعب كفأر
ومن هناك، راح يقضم راية وطني المقدسة،

ويلوي ذيله القارض
قائلاً للمالك، للأجنبي،

لسيد باطن الأرض التشيلية: «اشرب
دماء هذا الشعب كلها، فأنا وكيل
التعذيب هنا.»
أيها المهرج المسكين، يا مزيجاً
بائساً من قرد وفأر، يدهنون ذيله في «وول ستريت»
بمرهم ذهبي،
لن تمر الأيام دون أن تقع عن الشجرة
وتصبح كومة من القذارة المكشوفة
التي يحاذر العابر كي لا يدوسها في الزوايا

هكذا كان. الخيانة صارت حكومةً لتشيلي.
وترك خائن اسمه في تاريخنا.
يهوذا يرفع أسنان جمجمة كراية له
هو الذي باع شعبي،
سمم وطني،
أقام معتقل بيساغوا، مَحَقَ نجمتنا،
وبصق ألوان راية طاهرة.

غابرييل غونثالث بيديلا. ها هنا أترك اسمه،
بعد أن يكون الزمن قد محا عاره،
بعد أن ينظف وطني
وجهه المضاء بالقمح والثلج،

لمن سيبحثون هنا عن الإرث
الذي أُضمنه هذه السطور كجمرة خضراء
لكي يجدوا أيضاً اسم الخائن
جالب كأس الاحتضار الذي رفضه شعبي.

شعبي، يا شعبي، ارفع قدرك،
حطِّم السجن، افتح الأسوار التي تحاصرك،
اسحق الخطو المتعثر للفأر الذي يحكمك
من القصر: ارفع حرابك إلى الفجر،
وفي أعلى الأعالي دع نجمتك الغاضبة
تشع مضيئة دروب أميركا.

فهرس الكتاب

المقدمة	5
I. المصباح في الأرض	19
- حب أميركا (١٤٠٠)	21
- النباتات	23
- بعض الحيوانات	27
- الطيور آتية	29
- الأنهار تنضم	32
› أورينوكو	33
› الأمازون	34
› تيكيندااما	35
› بيو - بيو	35
- المعادن	36
- البشر	41
II. مرتفعات ماتشو بيتشو	49
III. الغزاة	73
- إنهم آتون من الجزر (١٤٩٣)	75
- الآن كوبا	76

- وصلوا إلى بحر المكسيك 77
- كورتس 80
- تشولولا 82
- ألفارادو 83
- غواتيمالا 84
- قس 85
- الرأس على سنان رمح 86
- تحية إلى بالبوا 88
- جندي نائم 90
- خيمينث دي كيسادا (١٥٣٦) 92
- موعد الغربان 95
- سكرات الموت 97
- الخط الأحمر 99
- مرثاة 102
- الحروب 104
- مكتشفو تشيلي 106
- الأرض المقاتلة 107
- الأرض والإنسان يتحدان 108
- بالديبيا 110
- إرثيا 113
- يدفنون الرماح 115
- قلب ماجلان (١٥١٩) 116
  - أستيقظ في الليل مفكراً بالجنوب الأقصى 116
  - وأتذكر عزلة المضيق 117
  - المكتشفون يظهرون، ولا يبقى منهم شيء 118

›الكآبة وحدها تفرض نفسها 118

›أتذكر المكتشف العجوز 119

›ماجلان 119

›وصل إلى المحيط الهادي 120

›ماتوا جميعاً 120

- برغم الغضب 121

IV. المحررون 125

- المحررون 127

- كواوتيموك (١٥٢٠) 130

- فراي بارتولومي دي لاس كاساس 134

- الزحف في أراضي تشيلي 138

- وانبثق الرجال 140

- توكي كاوبوليكان 141

- الحرب الوطنية 143

- الخازوق 145

- لاوتارو (١٥٥٠) 146

- تربية العاهل 146

- لاوتارو بين الغزاة 148

- لاوتارو ضد القنطور 150

- قلب بيدرو دي بالديبيا 152

- الحرب الشاملة 154

- المستوطنات تغطي أرضنا (١) 156

- الإقطاعيات (٢) 159

- الملاكون الجدد (٣) 160

- كومنيو سوكورو (١٧٨١) 162
- توباك آمارو (١٧٨١) 164
- أميركا الثائرة (١٨٠٠) 166
- برناردو أوهيجينس ريكليلمي (١٨١٠) 168
- سان مارتين (١٨١٠) 173
- مينا (١٨١٧) 177
- ميراندا يموت في الضباب (١٨١٦) 181
- خوسيه ميغل كاريرا (١٨١٠) 183
- مانويل رودريغث 193
  > الحياة 193
  > الهوى 194
  > والموت 195
- ارتيغاس 195
- غواياكيل (١٨٢٢) 199
- سوكري 202
  > الرايات 203
- كاسترو ألبيس دل برازيل 204
- توسان لوفيرتر 206
- مورازان (١٨٤٢) 208
- رحلة عبر ليل خواريث 210
- الريح فوق لينكولن 212
- مارتي (١٨٩٠) 215
- بالماسيدا التشيلي (١٨٩١) 218
- إلى اميليانو زاباتا مع موسيقى لـ "تاتا ناتشو" 223
- ساندينو 227

ـ نحو ريكاباربن (١)	231
› النحاس (٢)	232
› الليل في تشوكيكامانا (٣)	233
› التشيليون (٤)	236
› البطل (٥)	237
› مهن (٦)	238
› الصحراء (٧)	240
› ليلي (٨)	240
› القفر (٩)	241
ـ ريكاباربن	242
› رسالة (١٩٣٩)	249
› أبو تشيلي	250
ـ برستيس البرازيلي	251
ـ قلت في "باكايمو" (البرازيل ١٩٤٥)	257
ـ الطغاة من جديد	261
ـ سيأتي اليوم	262
V. الرمل المغدور	265
ـ ربما يكون النسيان على الأرض	267
ـ الجلادون	269
› الدكتور فرانثيا	270
› روساس (١٨٢٩ ـ ١٨٤٩)	273
› اكوادور	277
› غارسيا مورينو	278
› سحرة أميركا	280

› استرادا 281
› أوبيكو 282
› غوميث 282
› ماتشادو 283
› ميلغاريخو 284
› بوليفيا (٢٢ آذار ١٨٦٥) 285
› مارتينث (١٩٣٢) 288
› الأباطرة 289
- الأوليغارشية 291
› امتداد قانون المحاباة 294
› انتخابات في تشيمبارونغو (١٩٤٧) 297
› القشدة 298
› الشعراء السماويون 300
› المستغلون 302
› المتحذلقون 303
› أصحاب المحسوبية 304
› محامو الدولار 308
› الدبلوماسيون (١٩٤٨) 312
› بيوت الدعارة 314
› موكب في ليما (١٩٤٧) 316
› ستاندر أويل كومباني 618
› انكوندا كوبرميننغ كومباني 320
› اليونايتد فروت كومباني 323
› الأرض والبشر 325
› المتسولون 328

› الهنود 330
› القضاة 334
ـ قتلى الساحة، ٢٨ كانون ثاني ١٩٤٦، سنتياغو تشيلي 336
› المجازر 337
› رجال النيترات 339
› الموت 340
› كيف تولد الرايات 341
› أناديهم 341
› الأعداء 343
› إنهم هنا 344
› دائماً 345
ـ وقائع من عام ١٩٤٨ (أميركا) 346
› باراغواي 346
› البرازيل 348
› كوبا 349
› أميركا الوسطى 350
› بويرتو ريكو 351
› اليونان 353
› العذابات 355
› الخونة 356
› إني أتهم 357
› الشعب المنتصر 359
› غونثالث بيديلا، خائن تشيلي (ملحق) ١٩٤٩ 360

الكتاب	المؤلف	المترجم
المجتمعات الأهلي والمدني	عبد الله حنا	
مع بورخس	ويليس بارنستون	د.عابد اسماعيل
كل الأسماء	جوزيه ساراماغو	صالح علماني
دكتاتورية رأس المال	أديب ديمتري	
أحزان الصفصاف الباكي	فؤاد نعيسة	
الأمير المطرود	رضا الظاهر	
عرس النار	طالب الرفاعي	
العراق المعاصر	عبد الوهاب حميد رشيد	
جنون أو قداسة	خوسيه اتشغاراي	رفعت عطفه
ذاكرة المانية	هاينرش بول	صلاح حاتم
لمحات من الأدب المجري	ثائر صالح	
مدينة الاعاجيب	ادواردو ميندونا	صالح علماني
وطن في وطن	لؤي آدم	
أهل التابوت	نزيه أبو عفش	
قفزة وقصص أخرى	نادين غوردمير	اسامة اسبر
حكمة الروح الصوفي	ميثم الجنابي	
دليل المصطلحات التنموية	د. مجيد مسعود	
باراباس	بارلاغركفيست	سعدي يوسف
الحياة البرلمانية	شاكر اسعيد	



ريكاردو أليسير نيفتالي رييس باسولاتو بابلو نيرود المعروف بـ بابلو نيرودا، شاعر تشيلي الجنسية ويعتبر من أشهر الشعراء وأكثرهم تأثيراً في عصره، ولد في تشيلي، بقرية بارال في ١٢ يوليو العام ١٩٠٤. ووفقاً للكاتب الروائي غابرييل غارثيا ماركيز: "بابلو نيرودا من أفضل شعراء القرن العشرين في جميع لغات العالم". وكتب عنه الناقد الأدبي هارولد بلووم: "لا يمكن مقارنة أي من شعراء الغرب بهذا الشاعر الذي سبق عصره".

بدأت إبداعاته الشعرية في الظهور قبل أن يكمل عامه الخامس عشر وتحديداً عام ١٩١٧ وفي عام ١٩٢٠ اختار لنفسه اسماً جديداً هو بابلو نيرودا.

شغل نيرودا أكثر من منصب سياسي، وكان ذو إتجاه شيوعي متشدّد، وكان عضواً في مجلس الشيوخ وفي اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الذي رشّحه للرئاسة في بلاده في العام ١٩٧٠.

في ٢١ أكتوبر ١٩٧١ فاز نيرودا بجائزة نوبل في الأدب وعندما عاد إلى شيلي استقبله الجميع باحتفال هائل في استاد سانتياجو وكان على رأس الاحتفال الرئيس سلفادور ألليندي الذي لقي مصرعه في الانقلاب الذي قاده بينوشيه. وعندما قتل الانقلابيون الرئيس ألليندي جاء جنود بينوشيه إلى بيت بابلو نيرودا، وقالوا له جئنا نبحث عن السلاح في بيتك فردّ قائلاً: إنّ الشعر هو سلاحي الوحيد. وبعدها بأيام توفي نيرودا في ٢٣ سبتمبر ١٩٧٣ متأثّراً بمرضه وبإحباطه من الانقلابيين، حتى إنّ آخر جُمَلِه، في كتابه "أعترف أنّني قد عشت" والذي يروي فيه سيرته الذاتية: "لقد عادوا ليخونوا تشيلي مرّة أخرى".

"النشيد الشامل" يعتبر أكثر أعمال نيرودا شمولاً، مؤلَّف من ١٥ فصلاً مقسّمة إلى ٢٤٩ نشيداً، وهو من دُرر الشعر في القرن العشرين، بل ربما هو أكبر عمل منهجي في تاريخ الشعر الناطق بالإسبانية على الإطلاق، فقد كُتبت صفحاته على امتداد أكثر من عشر سنوات. وفيه عمد الكاتب إلى أسلوب جمع الغناء الأكثر عذوبة إلى النغمات الأشد عنفاً.

مكتبة نوبل ١٩٧١

ISBN 284305605-5
9 782843 056055